طبعة منقحة

الأنفاس الأخيرة

عثمان نوري طوبباش

إلى أين المسير؟

دار الأرقم

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم احفظنا من عاقبة الذين اغتروا بهذه الدنيا
وأهلكوا أنفسهم من أجل ملذات فانية!

اللهم يا أرحم الراحمين، اجعل حياتنا ومماتنا كحياة
عبادك الصالحين ومماتهم، وأكرِمنا كما أكرمتَهم بالبركة
والنِّعَم والخصال الحميدة، ويسِّر لنا بلوغ مرضاتك!

اللهم أعِنَّا على النظر إلى هذا الكون بمحبتك، والتفكر
في حقائقه وأسراره بشعور وإيمان، واجعلنا ممَّن
يذرفون دموع الندامة على ما ارتكبوه فينالون غفرانك،
وارزقنا وجوهاً مبيضة ونفوساً راضيةً يوم لقائك!

إسطنبول: ١٤٣١/ ٢٠١٠
طبعة منقحة: ١٤٣٩/ ٢٠١٨
اسم الكتاب باللغة التركية: Gönül Bahçesinden Son Nefes
الترجمة للعربية: د.عبدالله المصري
مراجعة، تصحيح وتدقيق: محمد عز الدين سيف- د. آدم أقيــن
تصميم وتنضيد: حسام يوسف
ISBN: ٩٧٨-٩٩٤٤-٢١-٣٧٠-٧
طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم
Language : Arabic

العنوان:

▸ Address: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.org
Web site : www.islamicpublishing.org

الأنفاس الأخيرة

إلى أين المسير؟

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

مُقَدِّمَة

الحمد لله سبحانه وتعالى الذي رزقنا نحن عباده الضعفاء العاجزين لذةَ الإيمان وطمأنينته.

والصلاة والسلام على سيد الكون سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ الذي كان وسيلة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ﷺ.

أما بعد:

فإن هذا الكتاب الذي نضعه بين أيديكم إنما هو جمعٌ لمقالات نشرناها بفضل الله تعالى في مجلة «أَلتون أُولوق». وسنعرض لكم في هذه المقدمة مختصرًا لما يحتويه هذا الكتاب.

إن الإنسان عند خروجه من دار الاغتراب التي جيءَ به إليها كي يُمتحَن فيها يقف على أعتاب عالَم أبدي؛ ذلك العالَم له بابان: أحدهما يوصِل إلى الخسران المبين، والآخر يوصل إلى السعادة الأبدية. والذي يُحدِّد مِن أي البابَين سيدخل العبد إنما هو الأنفاس الأخيرة التي هي خلاصة عمره. لذلك علينا أن نعيش كل لحظة بنضج مستعدين للخروج من هذه الدنيا، فإننا في أي لحظة قد نفتح أعيننا وإذ نقف عند حدود عالَم آخر؛ فلا بد أن نكون في حال ترقب ومراقبة دائمة، ووعي وإدراك لأهمية الأنفاس الأخيرة.

والحق أن أول إشارة لما سيكون عليه حالنا في الآخرة تظهر في أحوالنا عند الأنفاس الأخيرة. ولا بد من إعداد الأنفاس المعدودة

في هذه الدنيا الفانية للحظة الأنفاس الأخيرة، كي يستطيع كل واحد منَّا الرحيل من هذه الدنيا عبدًا صالحًا. أي إن الحياة الأخروية السعيدة تقتضي حياة في الدنيا قائمة على الصدق والإخلاص والاستقامة والسكينة، ومزيَّنةً بالأعمال الصالحة. فالحياة مثل قطرات الماء التي تملأ كوبًا، ونقاء الماء فيه مرتبط بنقاء القطرات التي تتساقط، والأنفاس الأخيرة كتلك القطرات الأخيرة التي تجعل الماء يفيض من الكأس. وقد ورد في الخبر:

«يموت الرجل على ما عاش عليه، ويُحشَر على ما مات عليه»[1]

والأنفاس الأخيرة أي المشهد الأخير في مسرح هذه الحياة كالمرآة البرَّاقة يرى كلُّ امرئ فيها عاقبته، ويعرف نفسه على أفضل صورة. يقول الشاعر التركي الكبير نجيب فاضل:

في تلك اللحظة التي تُرفَع فيها حُجبٌ وتنزل حُجب
تكون المهارة أن تستطيع قول: «مرحبًا» لملَك الموت

في تلك اللحظة يُعرَض حساب الحياة الدنيا أمام قلب العبد وعينَيه، لذلك لن يجد ما هو أكثر عبرةً له من لحظة الموت.

إن الأنفاس التي نتنفَّسها في العبادة والمعاملات التي نعيشها في هذه الحياة الدنيا هي كالبوصلة لأنفاسنا الأخيرة، وهي في الوقت نفسه ترجمان لحالنا التي سنكون عليها في الآخرة.

---

١ المناوي، فيض القدير، ج٥، ص٥١٩.

وسيكون شكل حياتنا في عالَم البرزخ الذي سيستمر حتى قيام الساعة وفقًا لأحوالنا وأعمالنا في الدنيا. فنستطيع إذًا تحويلَ الموت من خسران إلى نصر، ومن حزن ومأتم إلى فرح وسعادة، وهذا دأب مَن يعرفون الموت ويُعِدُّون العدة للمصير الذي يرغبون فيه بعد الارتحال من هذه الحياة.

وأمثال هؤلاء العباد يجعلون أعمارهم تمر بأفضل الأحوال، وأكثرها بركة، إذ يدخلون حلقة ذكر الله في هذا الكون ويُحيون أوقاتَ السَّحر التي هي أكثر أوقات الذكر أجرًا وبركةً. أما الذين ينشغلون بالنهار وينامون في الأسحار، فلن ينالوا شيئًا من البركات والفيوضات، مثلما تذهب أمطار شهر نيسان/ إبريل التي تحيي المخلوقات هباءً منثورًا عندما تهطل على الصحاري والبحار والصخور الصمَّاء. لذلك فإن الخواص من عباد الله تعالى لا يبتعدون عن أجواء القرآن والتفكر خشية الوقوع في الغفلة، فيُدركون أن الصفات الإلهية في هذه الدنيا تتجلى بمعناها الكامل في ثلاثة أشياء هي: **الكون، والقرآن، والإنسان.**

فالكون كتاب أسرار وتجليات مليء بآيات القدرة والعظمة، هو تجلٍّ فعلي لأسماء الله الحسنى، وكأنه قرآن صامت. والقرآن الكريم عالَم ناطق، والإنسانُ ملتقى الاثنين ومحلُّ التجليات الإلهية.

والعارفون الذين يعيشون بهذا الشعور يدركون في أجواء القرآن والتفكر أن القرآن دائمًا في المقدمة والعلم دائمًا يأتي خلفه؛ لأن

القرآن ليس علم إنسان عاجز، بل هو علم الله الذي أكرم البشر بوضعه في هذا الكتاب قواعدَ العلوم في هذه الدنيا، وهو الذي خلق الإدراك في البشر فكان وسيلةً للاستكشافات العلمية.

فلنا أن نقول: عندما يكون أساس قدرتنا على التفكر والإحساس آياتُ القرآن الكريم، فإننا نصل إلى حقائق مدهشة عظيمة، مَثَل ذلك كمثَل البذرة الصغيرة التي تكاد لا تُرى حينما توضَع في تربة خصبة فتغدو شجرة عظيمة باسقة. فلو لم تكن فيوضات القرآن التي لا تنفد، وهديه وإرشاده الذي لا ينتهي، لظلَّت قدرتنا على التفكر والإحساس كتلك البذرة الجافَّة المحرومة من التربة الخصبة. من أجل ذلك كله ليس للعباد نعمة أعظم من إدراك سِعَةِ إحسان الله إليهم وقدرته وعظمته بفضل القرآن الكريم.

وأهل القلوب الذين يتفكَّرون في هذه الحقائق السامية يتطهَّرون ظاهرًا وباطنًا بالتوبة ودموع الندامة في هذه الدنيا الفانية المليئة بالذنوب والمعاصي والتي هي دار ابتلاء وامتحان لهم.

وهم يدعون ربهم كل حين، إذ أدركوا معنى قول الله تعالى:

﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾ [٢]

ويعيشون حياتهم نتيجةً لهذا الإدراك على أمل أن يكونوا خير أمة، ويزيِّنون أحوالهم كلها بزينة الدعوة إلى الحق والخير، لأن

---

٢ الفرقان: ٧٧.

السبيل إلى أن يكونوا خير أمة يمر من هذا الطريق. يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [3]

والذين يبذلون جهدهم في سبيل أداء هذه المهمة العظيمة كما ينبغي يزيِّنون قلوبهم برِقَّة الإسلام وسماحته وجماله، ويكونون قدوةً حسنةً بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم في تبليغ الحق والحث على الخير. ويدعون إلى الحق والخير في إطار قول الله ﷻ:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [4]

فالمحاسن عندما تنعكس على قلب المؤمن وحياته تغدو أحواله وأعماله كلها محاسن. ويصبح ذلك المؤمن من أهل الإيثار؛ أي في ذروة الجود والكرم ماديًّا ومعنويًّا. ويصبح باستغنائه غنيًّا عن كل شيء دنيوي، وتحلُّ في أخلاق التجارة لديه بَركةُ تجارة رسول الله ﷺ، فلا تجد الأورام الخبيثة مثل الربا طريقًا لها إلى ربحه الحلال، ويصير ماله قرضًا حسنًا لله سبحانه وتعالى.

٣ آل عمران: ١١٠.

٤ النحل: ١٢٥.

ويحرص أشدَّ الحرص على مراعاة أوامر الله تعالى في الدَّين والاستدانة، لأنه مطيع لله ورسوله محبٌّ لهما، لا يغادر مجالس الأولياء ويصحبهم، ويثبِّت صحبته لهم بالوفاء، ويكون في كل أحواله وأوصافه في مقام أهل الإيمان الذين يُقتدَى بهم. وفي ذلك المقام يفهم معنى القَدَر والأسرار فهمًا صحيحًا، فيمنحه التقديرُ الإلهي صفاءً ما بعده صفاء.

قُـراءَنـا الأعـزَّاء!

عرضنا عليكم هنا خلاصةً للموضوعات التي سعينا لتقديمها لكم في كتابنا هذا الذي سمَّيناه «الأنفاس الأخيرة».

ذلك أنه علينا ألا ننسى أن الإنسان يواجه أسباب الموت التي لا حصر لها ليل نهار سواء أدرك ذلك أم لم يدركه، فالموت يكمن للإنسان في كل لحظة. وقد قال مولانا جلال الدين الرومي في كتابه (المثنوي) معبرًا عن هذه الحال:

«كل لحظة في الحقيقة موتُ جزء من روحِك، وكل لحظة وقتٌ لخروج الروح، وكل لحظة ينقضي عمرك».

ألا نقترب خطوة إلى القبر مع ابتعادنا كل يوم عن هذه الحياة الفانية؟ أليس كل يوم سوى طيٍّ لصفحة من أيام عمرنا؟

إن كل حجر في المقبرة يحفُّه صمتُ الموت إنما هو ناصح أمين يتحدث بلسان الحال. ولعل المقابر داخل المدن وفي أفنية

المساجد وعلى جانبي الطرق تفكُرٌ فعلي في الموت، ودعوة لأن تنظم حياتك في الدنيا وفقًا لذلك. إن الكلمات لا تستطيع بأكتافها الضعيفة أن تحمل ثقل الموت الرهيب، وكل القدرات والسلطات تنتهي وتذوب أمام الموت.

الموت قيامةٌ خاصة بالمرء، فعلينا أن نستيقظ قبل قيامتنا حتى لا نكون من النادمين، لأن كل فانٍ سيقابل مَلك الموت لا محالة في زمان ومكان مجهولَين. وليس ثمة مكان يفر إليه المرء من الموت، فلا بد من أن يستجيب لقول الله تعالى: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ**﴾ [٥] ويعلم أن لا ملجأ ولا مأوى إلا رحمته سبحانه وتعالى.

ولا عبد- إلا الأنبياء والرُسل- معصومٌ عن أن تزل قدمه بعد ثبوتها في الإيمان. فعلى كل مؤمن أن يدرك قيمة نعمة العمر حقَّ الإدراك. والوسيلة الوحيدة للنجاة من الخوف من الموت إنما هي السعي للعيش بصورة صالحة حسنة، لأن الذين يستعدون للموت بدلًا من أن يشعروا بالخوف منه يرون هذا الموت وسيلةً لبلوغ الحياة الأبدية، وهؤلاء هم المفلحون الذين وصلوا إلى الطمأنينة بتجميل صورة الموت. أما الذين خسروا آخرتهم بالعيش بغفلة في هذه الدنيا فلن يستطيعوا التخلص من الإحساس برهبة الموت وظلمته حينما يواجهونه. وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي:

---

٥ الذاريات: ٥٠.

«يا بني، إن الموت من لون المرء؛ فالموت يبدو عدوًّا رهيبًا لِمَن يكرهون الموت من غير أن يتفكروا في أنه يوصلهم إلى خالقهم. والموت يبدو صديقًا لِمَن يصادقونه».

والحق أن الأنفاس الأخيرة مرآة برَّاقة صافية، وكل إنسان يرى في تلك المرآة عمره كله بحسناته وسيئاته في أوضح صورة، وفي تلك اللحظة لا تُسدل أستار الغفلة والعناد على العيون والآذان، بل على العكس تُرفع تلك الأستار كلها، ويدفع الاعترافُ العقلَ والوجدان إلى الندم. فلنحرص على ألا تكون أنفاسُنا الأخيرة المرآةَ التي نشاهد فيها حياتنا شاعرين بالحسرة والندامة، ولنسعَ كي يكون القرآن الكريم والسنة الشريفة مرآتنا ونحن في هذه الحياة، لأن المفلحون هم الذين عرفوا أنفسهم قبل أن يلتقوا بالموت.

وأشكر هنا أخواي محمد علي أشملي، ومحمد عاكف غوناي اللذَين ساهما في تأليف هذا الكتاب، وأتضرع إلى الله ﷻ أن يجعل هذا العمل صدقةً جاريةً لهما وأن يكافأهما على هذا الجهد.

اللهم اجعل أنفاسنا الأخيرة نافذةً نشاهد منها ثوابنا في الآخرة.

آمين!

عثمان نوري طوباش

إسطنبول -أسكدار/ ٢٠١٨

الأنفاسُ الأخيرة

-١-

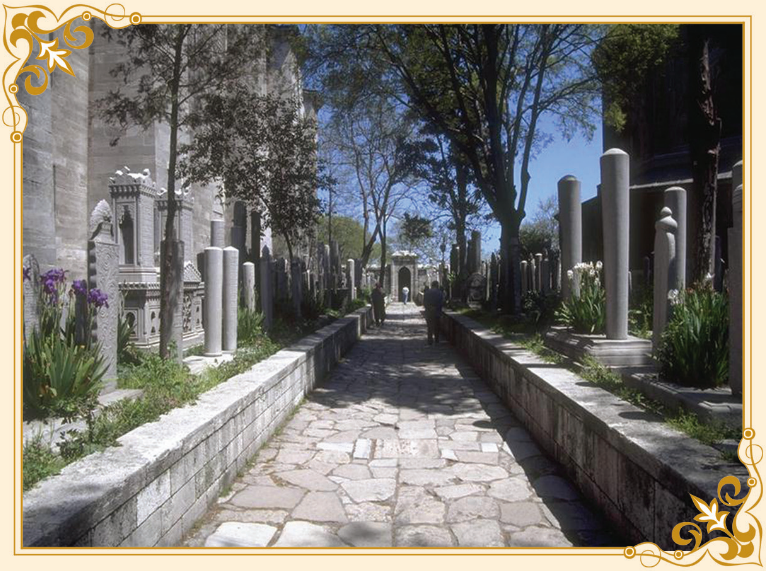

يواجه المرءُ الموتَ مرات لا حصر لها طوال عمره، فها هي الأمراض تصيبه، والمصائب تحل به، والكوارث تنزل عليه، والمخاطر الجسيمة تتربص به كل لحظة لكنه لا يدركها لعجزه وغفلته؛ أفلا يُظهِر كلُّ ذلك للمرء أنه ثمة حاجزًا رقيقًا بينه وبين الموت؟

الأنفاسُ الأخيرة

-١-

لقد جعل الله ﷻ صفةَ البقاء منحصرةً به وحده، لذلك فإن المخلوقات كلها آيلة إلى الفناء، وفي هذا يقول الله ﷻ:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[٦]

وهذا الفناء يتجلى بالموت، إذ يقول الله ﷻ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٧]

فعلى الإنسان أن يعيش واضعًا هذه الحقيقة نُصبَ عينَيه. لذلك يقول الله ﷻ في آية آخرى:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[٨]

والإنسان خُلِقَ في هذه الدنيا الفانية كي يُمتحَن فيها، فأكبر غاياته أن يسعى لنيل رضا الله ﷻ ودخول الجنة في دار القرار. وطريق بلوغ هذه الغاية واضح في قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٩]

---

٦ الرحمن: ٢٦.

٧ الأنبياء: ٣٥.

٨ ق: ١٩.

٩ الشعراء: ٨٨ -٨٩.

وإذا أراد المرء أن يأتيَ الله بقلبه سليم، فعليه بتربية النفس، وأساس هذه التربية التسليمُ التام لرسول الله ﷺ وطاعته واتباعه. لأن الله ﷻ أنزل القرآنَ الكريم على قلب رسول الله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، لهذا كانت عبادات رسول الله ﷺ وأقواله وأفعاله وأخلاقه كلها تفسيرًا للقرآن الكريم. فإذا أردنا الاقتداء برسول الله ﷺ كما ينبغي، فلا بد أن يكون رسول الله ﷺ أحبَّ إلينا من أرواحنا وأزواجنا وأولادنا وأموالنا. وهذه المحبة تمنح العبدَ محبةَ الله ﷻ؛ أي إن محبةَ رسول الله ﷺ محبةُ الله تعالى، ومحبةُ الله تعالى هي محبة رسول الله ﷺ. فلا مناص من الوصول إلى هذه الحال كي يبلغ العبد مرضاة ربه ﷻ.

وكل ذلك أجملُ خطوات الاستعداد للأنفاس الأخيرة، ومَثَل الأنفاس الأخيرة كمَثَل القطرة الأخيرة التي تسقط في الكأس فتجعل الماء يفيض منها، فالأنفاس الأخيرة لها نتيجةٌ قائمة على ما سبقها من أنفاس، والإعداد للأنفاس الأخيرة مرتبط بطريقة استعمالنا لأنفاسنا الآن. فالخواص من عباد الله الذين يمضون أعمارهم في حب الله ﷻ وحب رسوله ﷺ ويزيِّنون أوقاتهم بالأعمال الصالحة، يرتحلون وهم سعداء بنطق كلمة التوحيد في اللحظات الأخيرة؛ أي يستبشرون ببشرى رسول الله ﷺ إذ قال:

«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، دخلَ الجنة».[١٠]

١٠ أبو داود، الجنائز، ١٥-١٦/ ٣١١٦.

أي إن الذي يعيش عمره في أنوار كلمة التوحيد، يرتحل إلى دار القرار بهذه الكلمة في لحظاته الأخيرة، لأنه عندما كان يقول: «لا» في كلمة التوحيد كان يمحو من قلبه كل العوارض الفانية والعلائق الشهوانية وأصنام الهوى، ومع لفظ «إلا» كان يملأ قلبه بمحبة الله ﷻ فقط.

وعلينا أن نعلم أن هذا الكون دار إقامة فانية بنَتْها يد القدرة الإلهية وزينتها بالتجليات، وأنه ليس في الكون شيءٌ خُلِقَ عبثًا، وأن غاية الحياة الدنيا إنما هي نيل السعادة في الآخرة، لذلك يحذِّرنا ربُّنا ﷻ بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾[11]

إن الموت الذي سيحِلُّ على كلِّ حيٍّ إنما هو لحظة وداع كبيرة للدنيا الفانية، وهو قيامة خاصة به.

وعلى الإنسان ألا ينسى أنه يواجه كل يوم وليلة أسبابًا للموت لا تعدُّ ولا تُحصَى. فالموت يتربص بالإنسان كل لحظة، وفي ذلك يقول مولانا جلال الدين الرومي في كتابه (المثنوي):

«كل لحظة في الحقيقة موتُ جزء من روحِك، وكل لحظة وقتٌ لخروج الروح، وكل لحظة ينقضي عمرك».

١١ آل عمران: ١٠٢.

أفلا نقترب خطوةً من القبر مع كل يوم نبتعد فيه عن هذه الحياة الفانية؟ أليس كلُّ يوم سوى اقتطاع ورقة من تقويم عمرنا؟

وينبه مولانا جلال الدين الرومي الإنسانَ حتى لا تصيبه الغفلة في هذه الحياة التي تجري كما يجري النهر الدافق فيقول:

«أيها الإنسان، انظر إلى آخر ما يظهر في المرآة! وفكِّر في حال الجميل حينما يشيخ وفي البناء إذا صار خرابًا يومًا، كي لا تنخدع بما تراه في المرآة».

إن أنفاسنا الأخيرة سِرٌّ إلهيٌّ مليء بالحِكَم؛ أي إن الموت الذي يعدُّ الحقيقة المستقبلية الوحيدة التي نعلمها مرتبطٌ وقته بتقدير الله سبحانه وتعالى، فها هي الأمراض تصيبنا، والمصائب تحل بنا، والكوارث تنزل علينا، والمخاطر الجسيمة تتربص بنا كل لحظة لكننا لا ندركها لعجزنا وغفلتنا؛ أفلا يُظهِر كلُّ ذلك لنا أنه ثمة حاجزًا رقيقًا بيننا وبين الموت؟

ويحذِّرنا الله ﷻ في كتابه العزيز من الحسرة والندامة بعد الموت فيقول:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١٢]

١٢ المنافقون: ١٠.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[13]

فالله سبحانه وتعالى يُمهِل الإنسانَ الذي يواجه الموت في حياته مرات لا حصر لها، ويعطيه الفرص الكثيرة التي لن يجدها في الآخرة. غير أن هذا الإنسان الذي ينبغي أن يكون واعيًا حذرًا يرى- مع الأسف- أوراق تقويم عمره تتساقط واحدةً تلو الأخرى، ولكنه لا يستشعر عظمة هذا الأمر لغفلته في هذه الحياة، ومَثَله مَثَل الصخور الصلدة التي لا تعمل فيها قطرات المطر.

إننا في الأصل نموت منذ ولادتنا شيئًا فشيئًا، ونسير كل يوم نحو الموت من غير أن ننتبه.

وما أجمل تلك الآية الكريمة التي تعبِّر عن أن كل لحظة تمضي في شريط الزمن تُقرِّبنا إلى صباح الحقيقة:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾[14]

كان هناك عبد صالح يسمى قُس بن ساعدة عاش قبل النبي ﷺ وبشَّرَ بقدومه، قام مرةً يخطب في الناس في سوق عكاظ، وتحدث عن هذه الحياة الفانية حديثًا بليغًا جميلًا، وعما يحدث فيها موافقًا لما ذكرته الآية السابقة فقال:

---

١٣ فاطر: ٣٧.

١٤ يس: ٦٨.

«أيها الناس، اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، جمع وأشتات وآيات، وأرض ذات رتاج، وبحار ذات أمواج، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أَرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا؟ أقسمَ قُسٌّ قسماً لا حانث فيه ولا آثماً، إن لله دينًا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ونبيًا قد حان حينه، وأظلَّكم أوانه، فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه وعصاه. تبًا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية، والقرون الماضية. يا معشر [قبيلة] إياد، أين الآباء والأجداد، وأين ثمود وعاد، وأين الفراعنة الشداد؟ أين من بَنَى وشَيَّد، وزخرف وغره المال والولد؟ أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى، وقال أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً، وأطول منكم آجالاً، وأبعد منكم آمالاً، طحنهم الثرى بكَلْكَلِه، ومزقهم بتطاوله، فتلك عظامهم بالية، وبيوتهم خاوية، عمرتها الذئاب العاوية، كلا بل هو الله الواحد المعبود، ليس والد ولا مولود».[١٥]

ونحن أيضًا سنلتقي بالموت بعد أن تنفد الأنفاس المعدودة التي وهبها الله لنا؛ ذلك الموت الذي قد يأخذنا عن هذه الدنيا بغتةً ويقطع علاقتنا بها إلى الأبد. ولكن هذا اللقاء للعباد الصادقين الصالحين لا يكون موتًا بل إحياءً لهم، لذلك لا بد أن ندرك سرَّ عبارة:

١٥ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ٢٣٦.

«**موتوا قبل أن تموتوا**».

وقد عبَّر مولانا جلال الدين عن هذا السر بقوله: «**موتوا لتحيوا**».

يقول سيدنا علي ﷺ: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**».

فينبغي ألا تهزمنا مشاعرنا الشهوانية ورغباتنا النفسانية، ولا بد أن نعلم أن العيش الحقيقي لا يكون بالروح الحيوانية، بل بالروح التي نفخها الله تعالى فينا.

فأفجع أنواع الموت أن يموت الإنسان وهو غافل عن الحق ﷻ قد خسر رضاه. وعلى المؤمن أن يعرف كيف يعيش وكيف يموت، وأن يسير في طريق يوصله من الإيمان إلى الإحسان؛ ذلك أنه لا أحد- سوى الأنبياء- يكفل حسن خاتمته وحسن الحال التي سيُبعَث عليها.

ومع ذلك كله نجد أن سيدنا يوسف ﵇ يتضرع إلى الحق تعالى قائلًا:

﴿**تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾[16] ودعاؤه هذا يدلُّنا على معانٍ عظيمة وراءه.

فلا بد أن يعيش العبد في حال بين الخوف والرجاء، عندها ينال رِقَّة القلب وقوة البصيرة فيعيش عمره ساعيًا لحسن الخاتمة وخروج أنفاسه الأخيرة وهو على الإيمان.

---

١٦ يوسف: ١٠١.

إن أولى الإشارات وأوضحها التي تبين لنا ما سيكون عليه حالنا في الآخرة تظهر لحظة خروج أنفاسنا الأخيرة. والقرآن الكريم- دليل الهداية- يعرض لنا أحوال أهل الإيمان الذين سعوا إلى الوصول إلى الفلاح حتى آخر نَفَس والمكافآت التي منَّ الله تعالى بها عليهم.

فسحرة فرعون لمَّا رأوا المعجزة الواضحة التي ظهرت على يد سيدنا موسى عليه السلام سجدوا في الحال وتشرفوا بنعمة الإيمان وقالوا:

﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[17]

لكن فرعون عتى واستكبر، وهددهم بسلطانه وقوته فقال:

﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[18]

فجاءه الجواب النابع من إيمان عميق في قلوب السحرة:

﴿قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[19]

---

١٧ الأعراف: ١٢١ - ١٢٢.

١٨ الأعراف: ١٢٣-١٢٤.

١٩ الشعراء: ٥٠-٥١.

ما أجمل هذه الصورة! إنهم يتضرعون إلى الحق ﷻ لا ليخلصهم من الظلم، بل لأن همَّهم أن تخرج أرواحهم عند آخر نَفَس وهم مسلمون دون أن يضعف إيمانهم، إذ قالوا:

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٢٠]

فانتقلوا إلى الرفيق الأعلى شهداءَ أولياءَ بعد أن دفعوا ثمن الهداية الذي كان قطع أرجلهم وأيديهم من خلاف ثم صلبهم.

ومن الأحوال التي عرضها القرآن الكريم حال أصحاب الأخدود الذين آمنوا بالله ﷻ فأُلقُوا في أخاديد مملوءة بالنار، ولم يتنازل هؤلاء المؤمنون الصادقون- على شدة الظلم- عن إيمانهم، وكانوا في أحوال معنوية سامية عندما ساروا إلى الموت غير مترددين ولا خائفين في سبيل دعوتهم، لأن الذين يخشون من الله تعالى بحق لا يشعرون بالخوف في مواجهة أي شيء آخر.

وحبيب النجار- من أصحاب القرية- رُجم وقُتِلَ لإيمانه بالله تعالى، ولكنه عندما رأى ما أُعِدَّ له في الآخرة في آخر أنفاسه وهو يودِّع هذه الدنيا الفانية مقبلاً على الآخرة، شعر بالأسى لغفلة قومه وقال:

﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾[٢١]

---

٢٠ الأعراف: ١٢٦.

٢١ يس: ٢٦.

ذلك أنه نال السعادة الخالدة في الآخرة بعد رجمه في هذا العالم الفاني.

كان الرومان واليونان وعبدة الأصنام في المراحل الأولى لانتشار النصرانية يُلقُون أهل الإيمان في ذلك الوقت للأسود الجائعة في المدرَّجات الكبيرة. أما أهل الإيمان فلم يكونوا يسعون للبقاء أحياء بل للحفاظ على إيمانهم، لأنهم اختاروا الصبر على هذا الظلم الشديد ونيل الثواب العظيم عند الله تعالى.

ولا شك أن كل هذه الأحوال السامية نتيجة عيشهم مدركين **أنهم مع الله تعالى**، لذلك كانت المعية مع الله غاية العبودية وهدف لا غنى عنه.

كان أحد الواعظين واقفًا على المنبر يوضِّح للناس أحوال الآخرة، وكان بين الجالسين الشيخُ شبلي، فذكرَ الواعظ الأسئلةَ التي سيوجِّهها المولى جل جلاله لعباده في الآخرة قائلًا:

«يُسأل المرء عن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن عمره فيمَ أفناه، وعن عباداته كيف أدَّاها، وعن مراعاته للحلال والحرام...»

ثم قال: «وسيُسأل عن كذا وعن وكذا...» وعدَّ أمورًا مهمة جدًا. ولكن مع كل هذه الإيضاحات والتفصيلات، لم ينبِّه الناسَ إلى جوهر المسألة كلها، فقال له الشيخ شبلي بأسلوب لطيف:

«يا شيخي الواعظ، لقد نسيت سؤالًا في غاية الأهمية؛ إن الله تعالى - باختصار - سيسأل عبده:

يا عبدي، لقد كنتُ معك، وكنتُ أقرب إليك من حبل الوريد، فمعَ مَن كنت؟».

فالقاعدة الأساسية في هذه الحياة أن تكون مع الحق تعالى ولا تضيع الأنفاس هباءً.

وقد عبَّر رسول الله ﷺ عن هذه القاعدة بقوله لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما بعد أن أخذ بمنكبِه:

«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[22]

فكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول:

«إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[23]

وهذه الجمل التي تبيِّن لنا أن مرور الحياة كسحابة صيف ترشدنا إلى الحياة الحقيقية. وقد كان رسول الله ﷺ يدعو الله ويتضرع إليه بقوله:

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»[24]

---

٢٢ البخاري، الرقاق، ٣.

٢٣ البخاري، الرقاق، ٣.

٢٤ البخاري، الرقاق، ١.

وكانت حياة الصحابة الكرام الذين أدركوا سرَّ هذا الحديث مملوءة بالفضائل والحكم والعبر التي لا تعد ولا تحصى:

فسيدنا خبيب بن عدي ﵁ عندما أسرَه المشركون وأرادوا أن يقتلوه، لم تكن لديه إلا رغبة واحدة وهي أن يبلِّغ سلامًا مملوءًا بالمحبة لسيدنا رسول الله ﷺ، إذ رفع عينيه إلى السماء وتضرع إلى الله قائلاً:

«اللهم إنه ليس هاهنا أحد يبلِّغ رسولك السلام عني، فبلِّغه أنت عني السلام».

وكان النبي ﷺ آنذاك جالساً مع أصحابه في المدينة المنورة فقال:

«**وعليه السلام ورحمة الله**».

ثم قال: «**هذا جبريل يقرئني من خبيب السلام**»[٢٥].

وفي نهاية غزوة أُحد أمرَ رسول الله ﷺ بالبحث عن الشهداء والجرحى، وكان هناك صحابي يهتم به رسول الله ﷺ وهو الصحابي الجليل سعد بن الربيع ﵁.

يقول الراوي:

بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع وقال لي: إن رأيته فاقرئه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأصبته وهو في آخر رمق

٢٥ انظر: البخاري، المغازي، ١٠؛ الواقدي، المغازي، جـ١، ص٣٦١.

وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح و ضربة بسيف ورمية بسهم فقلت له: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: خبرني كيف تجدك؟

قال: على رسول الله السلام وعليك السلام قل له: يا رسول الله، أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يَخْلُص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شُفْرٌ يطرف قال: وفاضت نفسه رحمه الله.[٢٦]

وهذه الكلمات التي نطق بها الصحابي الجليل سعد بن الربيع كانت كلمة وداعه لهذه الحياة الفانية، ووصيةً للأمة كلها في الوقت نفسه.

ومن الأمثلة التي تعكس حال الصحابة الكرام في أنفاسهم الأخيرة الحادثة التالية:

إذ رُويَ أن الحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل، وعياش بن أبي ربيعة أُثْبِتُوا يوم اليرموك، فدعا الحارث بماء ليشربه، فنظر إليه عكرمة، فقال الحارث: ادفعوه إلى عكرمة، فنظر إليه عياش بن أبي ربيعة، فقال عكرمة: ادفعوه إلى عياش، فما وصل إلى عياش، ولا إلى أحد منهم حتى ماتوا وما ذاقوه.[٢٧]

٢٦ انظر: الحاكم المستدرك، جـ٣، ص ٢٢١/ ٩٤٦٠؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ ٢، ص.٥٩٠

٢٧ الزيلعي، نصب الراية، ٢، ٣١٨؛ الحاكم، المستدرك، جـ٣، ٧٢/ ٥٠٥٨.

فأمثال هؤلاء لا تربطهم أي قرابة، غير أن محبتهم ورحمة ورحمة بعضهم ببعض وإيثار الواحد منهم أخاه على نفسه قد بلغت درجة أن الواحد منهم ليجود بأنفاسه الأخيرة وهو يتحلّى بالفضيلة وكأنه يدعو قائلًا:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٢٨]

فاللهم ارزقنا حسن الخاتمة، واجعل آخر أنفاسنا في هذه الدنيا أول خطوات بلوغ مرضاتك. آمين!

٢٨ الأعراف: ١٢٦.

الأنفاسُ الأخيرة

-٢-

إن مقصود الحياة أن تعيش وتموت عبدًا صالحاً، فالهدف الأعظم أن تقتدي بهدي رسول الله ﷺ الذي أكرمَ اللهُ به البشر كلهم، وأن تكون عبدًا فطنًا ليِّن اللسان رقيق القلب.

الأنفاسُ الأخيرة
-٢-

إذا أردت أن تترك هذه الدنيا وراءك وأنت عبد مؤمن صالح، فلا بد أن تُعِدَّ كل نَفَس من أنفاسِك للحظة خروج أنفاسك الأخيرة؛ أي إذا أردت الحياة السعيدة في الآخرة، فلا مناص من العيش في هذه الدنيا عيشًا تزيِّنه بالأعمال الصالحة، وتقضي أيامه على التقوى والاستقامة، ذلك أن نبيِّنا الكريم ﷺ يقول:

«يموت المرء على ما عاش عليه، ويُحشَر على ما مات عليه» [٢٩]

ويقول في حديث آخر:

«يُبعَث كل عبد على ما مات عليه»[٣٠]

وفي الحياة أمثلة لا حصر لها نعتبر بها، ولنسرد لكم هنا مثالًا منها:

أراد مؤذن في مدينة (أضه بزاري) زيارة والدي العزيز موسى أفندي رحمه الله بعد أن أدى وظيفته في صلاة الظهر. وكان هذا المؤذن يعبر الطريق إلى الناحية الأخرى راكبًا دراجته بعد أن أُضيئَت له الإشارة الخضراء، وإذ بسيارة مسرعة تتجه نحوه ولم

---

٢٩ المناوي؛ فيض القدير، ج٥، ص٥١٩.

٣٠ مسلم، الجنة، ٨٣.

تستطع التوقف مع أن الإشارة كانت حمراء، فاصطدمت به، ومن شدة الاصطدام طار ذلك المؤذن في الهواء ثم سقط على الأرض، ولفظ أنفاسه الأخيرة. لكن الغريب في الأمر أنه أثناء لفظه أنفاسه الأخيرة كان ينطق بصوت عالٍ سمعه السائق الذي صدمه والمَّارة هناك، إذ كان يقول: «**ربي إني قادم إليك**».

فهذا هو لبُّ الأمر كله؛ أن تنتقل إلى رحاب الله تعالى بفرح وسرور في اللحظة الأخيرة من العمر، أي أن تكون قادرًا على القول باشتياق: «ربي إني قادم إليك» في تلك اللحظة التي يخاف فيه كل إنسان. فاللهم لا تحرمنا من هذا الكرم! آمين.

وهذه الحال عبَّر عنها السابقون فقالوا هذا المثل الجامع: «جرة الماء تنكسر في طريق نقل الماء» أي إن القلب لو كان مشغولًا بأمر ما دائمًا في الحياة فإنه يكون مشغولًا به أيضًا عند الموت.

ولا شك أن لهذا الشأن أحوالًا استثنائية، فقد يعيش العبد حياته بالأعمال الصالحة كي يموت على الإيمان، لكن عليه ألا يظن أنه ضَمِنَ رحمة الله تعالى بهذه الأعمال؛ أما العبد الذي أمضى حياته كلها مرتكبًا للذنوب والمعاصي، فعليه ألا يقطع الرجاء من رحمة الله تعالى ومغفرته؛ فلحظة خروج الأنفاس الأخيرة سرٌّ إلهيٌّ لا يدركه أحد.

وكتابنا العظيم القرآن الكريم يَعرِض لنا العباد الصالحين الذين سعوا للنجاة بإيمانهم لحظة خروج أنفاسهم الأخيرة كي نقتدي

بهم، وكذلك يَعرِض أيضًا في لوحات معبِّرة العواقب الحزينة للذين انقادوا للكفر بعد أن سَلَّموا أنفسهم لشهواتهم مع أنهم عاشوا مراحل من حياتهم وهم يعملون صالحًا.

وأبرز الأمثلة لذلك إبليس وقارون وبلعم بن بعوراء الذين لم يطهِّروا أنفسهم ولم يتحلوا بالعلم الذي اكتسبوه، وثعلبة الذي كان صحابيًا وانخدع بزخرف الدنيا وملذَّاتها.

فإبليس كان ذا شأن عند الله تعالى، ولكنه لكبره وغروره لم يرَ القدرة والعظمة والحكمة في أمر الله تعالى وادَّعى أنه أفضل من سيدنا آدم عليه السلام. فجرَّه الوهم بأنه أشرف وأعز من آدم عليه السلام إلى عصيان أمر الله تعالى، وسيظل لتكبُّرِه ذليلًا مطرودًا من رحمة الله إلى الأبد.

أما قارون فكان رجلًا فقيرًا صالحًا، وكان أفضل من يفسر التوراة بعد سيدنا موسى عليه السلام، ولكنه بعد ذلك انخدع بدسائس النفس والشيطان ومالَ قلبه إلى حبِّ الدنيا. وصارت له أموال عظيمة وكنوز هائلة، وعندما أمره سيدنا موسى عليه السلام أن يؤدِّي الزكاة، أبى واستكبر. وصار يحسد سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام لمكانتهما عند الناس، وتمادى في حسده حتى إنه افترى على سيدنا موسى عليه السلام، وفي نهاية المطاف خسفَ الله به وبداره الأرض.

إن أشد أنواع الغفلة نسيان الحق عز وجل صاحب الملك والملكوت وإغراق القلب بمغريات الدنيا الخداعة مثل المال والملك والجاه.

وأما بَلْعم بن باعوراء فقد كان عبدًا صالحًا صاحب كرامة، علَّمه الله تعالى الاسم الأعظم. وكان معروفًا في بني إسرائيل على أنه أحد العلماء والأولياء. ولكنه بعد ذلك مالَ إلى هواه ورغباته الشهوانية، حتى إنه مات على الكفر. وقد ذكرَ الله تعالى قصَّته في القرآن الكريم إذ قال:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣١]

وأما حكاية ثعلبة فهي مثال لرجل عاش في عصر رسول الله ﷺ فغرَّته الدنيا بعد أن كان يعيش حياته كما أمره الله تعالى، وصار لسوء حظه من السعادة الأبدية إلى الشقاء الأبدي. كان ثعلبة في البداية لا يكاد يترك المسجد النبوي ومجالس رسول الله ﷺ، لكنه عندما أصبح ذا مال وملك، ملأ حُب الدنيا قلبه، ومع مرور الوقت ترك الجماعة، وامتنع عن أداء الزكاة فساءت عاقبته. ومع أنه شعر بالندم لأنه لم يتبع كلام الرسول ﷺ إلا أنه عندما خرجت روحه كانت ترن في أذنه كلمات رسول الله ﷺ:

---

٣١ الأعراف: ١٧٥-١٧٦.

«ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه».[٣٢]

وكانت حال سفيان الثوري- أحد كبار أهل التصوف- حالًا فيها كثير من العبر. إذ انحنى ظهره في شبابه، وعندما سُئِل عن ذلك قال:

«كان لي شيخ أطلب العلم على يديه، ولمَّا حضرته المنيَّة لم يستطع أن ينطق بكلمة الشهادة مع أني لقَّنته إياها، ومن حينها انحنى ظهري».

فنرى مما سبق ذكره أن الخاتمة مجهولة، فسحرة فرعون عاشوا حياتهم في ضلال ثم اهتدوا في أواخر حياتهم. أما قارون وبَلْعم بن باعوراء فكانا ينعمان بالهداية ولكن طُويَت في النهاية صحائف أعمالهم بالخسران المبين. لهذا مهما بلغ المرء مقامًا معنويًّا ساميًا فإن النفس والشيطان يتربصان دائماً به، وما إن يجدا الفرصة فإنهما يُخرِجَان المرء عن الصراط المستقيم. لأن إبليس كما أخبرنا القرآن الكريم قال للحق ﷻ:

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٣٣]

وطلب إعطاءه مهلةً حتى يوم البعث، وأُعطيَت له تلك المهلة امتحانًا للبشر. وقد أقرَّ باستثناء عباد الله المخلصين من تَسلطه إذ قال:

---

٣٢ انظر: الطبري، التفسير، جـ. ١٤، ٣٧٠-٣٧٢؛ ابن كثير، التفسير، جـ. ٢، ٣٨٨.

٣٣ الأعراف: ١٦.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٣٤]

وليس ثمة عبد- سوى الأنبياء- يأمن من زلة القدم في موضوع الإيمان. لذلك على كل مؤمن أن يسعى ليعرف قيمة الحياة التي وهبها الله تعالى له كما ينبغي ويعيشها كما أمر الله سبحانه وتعالى ورسوله. والوسيلة الوحيدة للنجاة من رهبة الموت وفزعه إنما هو السعي للعيش عيشًا صالحًا طوال العمر، لأن الذين يستعدُّون للموت لا يخافون منه بل يرون فيه وسيلة لبلوغ مرضاة الله، وهؤلاء هم العباد الصالحون الذين اطمأنَّت قلوبهم بعد أن صار الموت جميلًا في نظرهم.

ولكن الذين عاشوا بغفلة وأضاعوا آخرتهم لن يجدوا مناصًا من رهبة الموت وفزعه. وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله في هذا الشأن إذ قال:

«يا بني، إن موتَ كل امرئ يكون على حسب لونه. فمَن كرهَ لقاء الموت وصار عدوًّا له ولم يدرك أنه وسيلة للوصال مع الله، بدا الموتُ له عدوًّا رهيبًا. ومَن أحبَّ الموت، بدا له صديقًا حميمًا».

---

٣٤ ص: ٧٩-٨٣.

«أيتها النفس التي تخاف الموت وتهرب منه، لو أردتِ حقيقة الأمر، فاعلمي أنكِ لا تخشين الموت بل تخشين نفسك».

«لأن ما تخشينه وتخافينه في مرآة الموت ليس وجهَ الموت بل وجهكِ القبيح. فروحكِ كالشجرة والموت أوراقها، وكلُّ ورقة من جنس شجرتها».

فأيما عبد تخلَّصَ من أهواء نفسه في هذه الحياة الدنيا، وسارَ في طريق التحلي بالصفات الملائكية المكنوزة في روحه؛ أي لو أدرك سر «**الموت قبل الموت**»، لرأى الموت خطوةً أولى لا بد منها للوصول إلى مرضاة المولى العظيم المتعال. وعندها يصير الموت- الذي هو مصدر أشد الرهبة عند أغلب البشر- في القلوب العارفة النقية شوقاً للقاء الرفيق الأعلى.

ولقد كانت اللحظات الأخيرة لرسول الله ﷺ أوضحَ الأدلة على ذلك الشوق للقاء المولى ﷻ، لأنه ﷺ كان طوال حياته مطيعًا لأمر ربه.

لما بقي من أَجَلِ رسول الله ﷺ ثلاث نزل عليه جبريل فقال: يا أحمد، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك وتفضيلاً لك وخاصة لك يسألك عما هو أعلم به منك، يقول لك: كيف تجدك؟ قال: «أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً!». فلما كان اليوم الثاني هبط إليه جبريل فقال: يا أحمد، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك وتفضيلاً لك وخاصة لك يسألك عما هو أعلم به منك،

يقول لك: كيف تجدك؟ فقال: «أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً!»

فلما كان اليوم الثالث نزل عليه جبريل وهبط معه ملك الموت ونزل معه ملك يقال له إسماعيل يسكن الهواء، لم يصعد إلى السماء قط ولم يهبط إلى الأرض منذ يوم كانت الأرض على سبعين ألف ملك ليس منهم ملك إلا على سبعين ألف ملك فسبقهم جبريل فقال: يا أحمد، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك وتفضيلاً لك وخاصة لك يسألك عما هو أعلم به منك ويقول لك: كيف تجدك؟ قال: «أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً!»

ثم استأذن ملك الموت فقال جبريل: يا أحمد، هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على آدمي كان قبلك ولا يستأذن على آدمي بعدك، قال: ائذن له، فدخل ملك الموت فوقف بين يدي رسول الله، ﷺ، فقال: يا رسول الله يا أحمد، إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها! قال: وتفعل يا ملك الموت؟ قال: بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما أمرتني، فقال جبريل: يا أحمد، إن الله قد إشتاق إليك! قال: فامض يا ملك الموت لما أُمِرَتَ به.[٣٥]

٣٥ ابن سعد، الطبقات، جـ٢، ص٢٥٨؛ البلاذري، أنساب الأشراف، جـ١، ص٥٦٥.

وكانت عائشة ﵂ تقول إن من نعم الله علي: أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته: دخل عليَّ عبد الرحمن وبيده السِّواك، وأنا مُسنِدةٌ رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السِّواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: أُلَيِّنه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فليَّنته، فأمره، وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، يقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**» ثم نصب يده، فجعل يقول: «**في الرفيق الأعلى**» حتى قُبِضَ ومالت يده.[٣٦]

وهكذا ترك رسول الله ﷺ خلفه سيرةً مليئةً بالذكريات التي تدل على مدى شوقه للقاء المولى ﷻ، وهاجر من هذه الدنيا الفانية إلى الدنيا الحقيقية الدائمة.

وقد نَقل حسام الدين شلبي تلميذُ المتصوف الكبير مولانا جلال الدين الرومي لحظةَ وداع أستاذه للدنيا بعد أن عاش حياته في شوق للقاء رب العالمين فقال:

ذات يوم جاء الشيخ صدر الدين مع مجموعة من أشراف الدراويش لعيادة مولانا في مرضه. وعندما رأوا حال مولانا حزنوا وقال له الشيخ صدر الدين: «عجَّل الله شفاءَك ومَنَّ عليك بالصحة والعافية».وعندها قال مولانا:

٣٦ البخاري، المغازي، ٨٣.

«مبارك عليكم الشفاء بعدي! لم يكد يبقى شيء بين العاشق والمعشوق».[٣٧]

لم يرَ مولانا الرومي في الموت الذي هو سبب للغَمِّ والخوف عند كثير من الناس كابوساً، بل رأى فيه خلاصاً من الغربة، وانتقالاً إلى الحق ﷻ صاحب الجمال المطلق. وقد عبَّرَ عن ذلك بقوله:

«إذا مِتُّ فلا تقل: لقد مات. قد كنت ميتاً فأحياني الموت». لهذا كان يشبِّه اليوم الذي سيودع فيه الدنيا بـ«**ليلة العرس**».

❀

ولا شك أن الطمأنينة والسكينة التي عاشها في الدنيا أهل الله مثل مولانا جلال الدين الرومي، ويونس أَمْرَه، وعزيز محمود هدائي تستمر بعد وفاتهم.

ولا بد من الاستعداد للموت وذلك بالتخلِّي عن أهواء النفس وغوائلها، والتحلِّي بالخصال الحميدة التي تجعل من المرء يعيش حياة قائمة على اتباع أوامر الله سبحانه وتعالى.

يقول ربنا ﷻ في كتابه الكريم:

﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ**﴾[٣٨]

وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه حياة أولياء الله كلهم.

---

٣٧ انظر: أبو الحسن الندوي، تاريخ عظماء الإسلام، جـ١، ص٤٤٩.

٣٨ الحجر: ٩٩.

والعارف بالله يزيِّن حياته التي أودعها اللهُ تعالى أمانةً عنده بالعبادة والعبودية له ﷻ كما ينبغي، فيسعى بذلك كي يأتي اللهَ **بقلب سليم**، وعندها يكون قد نال ثواب العبودية لله في الدنيا.

أي إن سيدنا رسول الله ﷺ عندما كان يردِّد لحظة خروج أنفاسه الأخيرة قوله: «**بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى**» كان ذلك مظهرًا من مظاهر العبودية لله ﷻ، وقد استمر هذا المظهر في العارفين الذين ساروا على نهجه ﷺ.

ونضرب هنا مثلًا الشيخ سامي أفندي رحمه الله الذي كان من أهل الله، لقد كان قلبه يفيض بمحبة النبي ﷺ ويسعى للاقتداء بسُنَّته والسير على هديه بدقَّة، كالذي يسير في الرمال على آثار مَن سبقَه. وكانت أنفاسه الأخيرة دليلًا على هذا الأمر، فقد خرجت روحه بجوار الرسول ﷺ الذي اتبعه طوال حياته وذلك عند رفع آذان الفجر الأول. ولم يسمع آنذاك الذين كانوا بجانبه منه إلا قوله: «**الله.. الله.. الله**»، ولم يكن يقول تلك الكلمة بلسانه فقط، بل بكل ذرة في جسده.

ولبُّ الأمر كله أن يعيش العبد في حياته عبدًا صالحًا وتخرج روحه وهو عبد صالح. فالله ﷻ يأمر كلَّ واحد منَّا أن يكون عبداً رقيق القلب ليِّناً مع إخوانه المسلمين مقتدياً بهدي النبي الكريم ﷺ. والعبد ينال شرف قول الله ﷻ له: «**نِعْمَ العبدُ**» حينما يتلذذ بجعل حياته في سبيل الله. وعندما تعمُّ الروحانية في القلب بمحبة الله

ويزول صدأه، يَشُعُّ منه نور الحق والإيمان، وعندها يغدو كلُّ نفَس نتنفَّسه إعدادًا لخروج الأنفاس الأخيرة.

ولكن القلب إن نسيَ اللهَ ﷻ، فلا يجد لذَّة الروحانيات، بل تقتصر الحياة حينئذ على الأمور المادية. يقول المولى ﷻ:

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[39]

والحق أن الذنوب كلها تبدأ عندما ننسى الله تعالى، لأن العبد عندما يقول: «**الله**» ويدرك حقيقة الموت، يسعى ليكون في أفضل حال في عباداته ومعاملاته، ويعيش شاعراً بإخوانه المسلمين حذراً من أي يؤذي أحداً لا بقول ولا بفعل.

ويدُلُّنا المولى ﷻ في كثير من آيات كتابه العزيز إلى ما يجب أن تكون عليه أحوالنا لكي نتجنَّب سوء العاقبة. فخلاصة الأمر كله أن نعيش حياتنا كلها على ضوء قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[40]

وإلا فإن طول العمر أو قصره فيه هذه الحياة الفانية لا يكون له أي معنى؛ فالله تعالى يخاطب الناس كلهم بقوله:

---

٣٩ الحشر: ١٩.

٤٠ آل عمران: ١٠٢.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[٤١]

فنفهم أن المدة التي نقضيها في العبادات والطاعات لله سبحانه وتعالى لا تُعدُّ شيئًا مذكورًا إن قارنَّاها بالحياة الأبدية في الآخرة. وما أبلغ عظة الجنيد البغدادي في هذا الشأن إذ قال: «ساعةٌ في الدنيا خير من ألف سنة في الآخرة، إذ لن تجد هنالك عملًا ينجيك». فكلُّ مرحلة في مستقبلنا وكلُّ يوم وكلُّ ساعة فرصةٌ عظيمة للعبادة والطاعة.

فاللهم أكرمنا بحياة تكون وسيلةً لاستقبال أنفاسنا الأخيرة ونحن نشتاق لرؤية جمال وجهك يا كريم. آمين!

٤١ النازعات: ٤٦.

الأنفاسُ الأخيرة

-٣-

الأنفاس الأخيرة كالمرآة اللمَّاعة البرَّاقة لا تجد ذرة غبار عليها، ويرى المرء فيها عمرَه كله بمحاسنه ومساوئه في أجلى صورة. عندئذ لن تُحجَب العيون عن رؤية الحقيقة بحجاب الغفلة أو الاعتراض، بل تُرفَع الحُجبُ كلها ولا يبقى بدٌّ من الندامة؛ فلنحرص على ألا تكونَ أنفاسنا الأخيرة المرآةَ التي نرى فيها حياتنا بحسرة وندامة.

الأنفاسُ الأخيرة

-٣-

الأنفاس الأخيرة كالمرآة اللمّاعة البرّاقة، والمرءُ يعرف نفسه بأفضل صورة لحظةَ خروج أنفاسه الأخيرة، إذ يرى ببصره وبصيرته الحساب الذي سيلقاه على أعماله في حياته؛ لهذا لن يجد المرء شيئًا أعظم عِبرة من لحظة الموت.

وقد ذكرَ لنا القرآن الكريم أن فرعون الذي أمضى حياتَه في معصية الله تعالى لم يعرف نفسَه وحقيقة عمره الذي ضيّعه هباءً إلا حين نزل عليه العقاب الربّاني إذ أُغرِق في البحر الأحمر. هنالك أدرك أن الوجه الحقيقي لسلطانه ومُلكِه في الدنيا لم يكن إلا خسراناً وضياعاً وحسرةً، فندِم أشد النَّدَم. ويصف الله سبحانه وتعالى لنا حالَه تلك في قوله:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٤٢]

لكن سبقَ السيفُ العذل، وجاءه الخطاب الربّاني وهو يغرق في البحر شاعرًا بضرورة دخول حلقة الإيمان، إذ قال المولى ﷻ:

---

٤٢ يونس: ٩٠.

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤٣]

فلا تنفع الندامة والصحوة والسعي لدخول الإيمان لحظة خروج الأنفاس الأخيرة لأولئك الذين أدركوا أخطاءهم ومساوئهم حينما رأوا البلاء ثم عادوا إلى غيِّهم حينما سَلِموا؛ لهذا فإن تأخير التوبة والندم إلى آخر العمر ما هو إلا ضلال واغترار. وما أشدَّها من غفلة أن يعيش المرء حياته من غير أن يصغي إلى صرخة الموت المترددة على مسامعه، ومن غير أن يدركَ أنه سيعبر من تلك البوابة- بوابة الموت- لا محالة، وهو في هذه الحياة يتقلَّب في السرَّاء والضرَّاء، وبين سعة العيش وضيقه.

وقد ذكر الله ﷻ في كتابة الكريم في مواضع كثيرة أنه قد خلق الحياة الدنيا امتحاناً لنا، ومن هذه الآيات الكريمة التي تُعدُّ تنبيهاً وتحذيراً لنا من الغفلة ونسيان الغاية الأصلية:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[٤٤]

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[٤٥]

---

٤٣ يونس: ٩١.

٤٤ الأنبياء: ٣٥.

٤٥ الملك: ٢.

لذلك فإن عباداتنا ومعاملاتنا وأخلاقنا في الحياة الدنيا، والأنفاس كلها التي نتنفسها هي كالبوصلة لأنفاسنا الأخيرة، وهي في الوقت نفسه ترجمان لما سيكون عليه حالنا في الآخرة.

وفي ذلك يقول الإمام الغزالي رحمة الله عليه:

«من لم يذق لذة المعرفة في الدنيا، فلن يستطيع أن يتذوق لذة المشاهدة في الآخرة... ومَن زرع شيئاً في الدنيا، حصده في الآخرة. والمرء يموت على ما عاش عليه، ويُبعَث على ما مات عليه».

فكلُّ إنسان يستعدُّ للثواب أو العقاب في الحياة الأبدية بالأنفاس التي يتنفَّسها صباح مساء. ويُحذِّر الله ﷻ في القرآن الكريم عباده إذ يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ...﴾[٤٦]

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[٤٧]

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[٤٨]

---

٤٦ التحريم: ٦.

٤٧ التكوير: ١٢-١٤.

٤٨ التكوير: ٢٦.

فينبغي لكل امرئ أن يدرك ما يستعد إليه، ويعيش حياته على هذا الأساس، ولا يترك ذلك للحظة خروج أنفاسه الأخيرة؛ فالربح والخسارة أمور دنيوية لن يجدها في القبر.

إن مَن غرَّته الأهواء والشهوات وانخدع بزخرف الدنيا، فنسي طاعة ربه وعبادته وهو فوق التراب، لا ريب أنه سيكون من النادمين الخاسرين حينما يوضَع في التراب. ولا أحد يعلم كم سنمكث هناك في القبر إذا قارنَّا المدة بأعمارنا في هذه الحياة؛ فالكيِّس مَن أدركَ هذه الحقيقة وأعدَّ لحياة البرزخ والحياة الأبدية التي تليها.

ولنا أن نعلم أن الذين تشع أنوار الإيمان في قلوبهم إذا لقوا الموت لم يروا فيه مصدر خوف ورهبة بل بشرى جميلة للحياة الأبدية؛ وأولئك لا يرون في المقابر التي تحمل أسماءَ أحبابهم وأقاربهم مجرد حجارة بل عِظَةً وتنبيهًا لهم. والمؤمن العاقل يرى هذه الحياةَ حقيقةً يعيشها ولا ينفك الموت عنها، فهو إنسان لا يهاب الموت، ذلك أن قلبه اطمأن إذ عاش حياته مستعدًا له. فإذا أردنا أن تكون لحظة خروج أنفاسنا الأخيرة أفضل لحظات حياتنا، فلا بد أن تكون قلوبنا مليئة بمحبة الله ﷻ؛ وإلا فإن الحياة التي تنتهي «بحب الدنيا وكراهية الموت» مصيرها الخسران المبين.

إن الاستعداد الكامل للآخرة يكون بالدخول في الأوصاف التي يحبها ربنا سبحانه وتعالى، والتي أخبرنا عنها في القرآن

الكريم أي يتزين العبد بأوصاف الجمال مثل الرحمة، والشفقة، العفو، ومساعدة الآخرين، والعبادة التي تأتي نتيجة التقوى والزهد والإحسان ويمكن اختصار ذلك كله في أن نقول أن يصبح عبدًا يحب الله تعالى. فعلى المؤمن أن يكون صاحب كرم وبذل وإحسان إذا كان يعلم أن ربَّه كريم. ولا بد أن يجعل التقوى والولاء شعارًا له، وأن يتجنَّب الصفات السيئة الرذيلة التي لا يحبها الله تعالى مثل الغرور والكبر والإسراف والظلم والفتنة والغيبة والنميمة والكذب، لأن هذا يُعدُّ جزءاً مهماً من الاستعداد للأنفاس الأخيرة.

وإذا أراد العبد حُسنَ الخاتمة، فعليه أولًا أن يُطهِّر قلبه؛ أي يُبعِد عنه الميول السيئة ويزيِّنه بالخصال الحميدة، فبلوغ القلب درجة التقوى هو أفضل شعلة هداية في رحلة الدنيا. ويوضِّح مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله تطهيرَ القلب بقوله:

«إن صنع القبر لا يكون بالحجارة ولا بالأخشاب ولا بالقماش، بل ينبغي أن تحفر قبراً في قلب طاهر، في عالمكَ الداخلي، ومن أجل ذلك ينبغي ألا ترى في نفسك شيئًا أمام عظمة الحق ﷻ».

ولا بد أن تمتلأ القلوب بمحبة الله ﷻ ورسوله كي تبلغَ المقصود وتكونَ تزكية النفس كما ينبغي. ومن أعظم علامات محبة الله تعالى طاعتُه. ومعصية الله ﷻ وادعاء محبَّته في الوقت ذاته إنما هو خداع للنفس.

وفي ذلك يقول الحق ﷻ في الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٤٩]

لذلك علينا أن نجعل محبتنا لله ورسوله فوق كل شيء، ونحافظ على ذلك حتى خروج أنفاسنا الأخيرة. وزيادة محبة الله ورسوله في القلوب تظهر في أداء العبادات والأعمال الصالحة. ذلك أنه ثمة فرق عظيم بين العبودية لله والقلب متعلِّقٌ بحُبِّ الدنيا، وبين العبودية والقلب مليءٌ بمحبة الله سبحانه وتعالى.

فالمؤمن المعتصم بحبل الله والذي يفيض قلبه بمحبة الله ورسوله ترتقي أحواله ومعاملاته وعباداته وطاعاته وعلاقته بالناس.

ومن الأمور التي على المؤمن أن يهتمَّ بها أثناء استعداده للحظة خروج أنفاسه الأخيرة هو الخشوعُ في عباداته كلها. فالله ﷻ قد ذكَرَ في كتابه الكريم أن من صفات المؤمنين المفلحين الخشوع إذ قال:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٥٠]

٤٩ التوبة: ٢٤.

٥٠ المؤمنين: ١ – ٢.

وأما الذين يغفلون عن صلاتهم فقال عنهم:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٥١]

فنفهم من ذلك أن الله ﷻ يريد من العبد أن يعيش حياةَ عبودية لا تقتصر على حركات الجسم فقط بل تشمل القلب أيضًا، كي تكون عبوديته وسيلة لبلوغ مرضاته سبحانه. ولا شك أن المراد الإلهي لا ينحصر في الصلاة فقط، بل يشمل العبادات كلها مثل الصيام والحج والإنفاق.

فالصيام ينبغي أن يجعلنا نعلم قيمة النِّعَم التي بين أيدينا، ونشعر بأحوال الفقراء والمساكين. والصيام إذ يمنعنا عن بعض الحلال لوقت معلوم، يرشدنا إلى ضرورة اجتناب الحرام والمشبوه. أما في الحج فينبغي أن يعبد المسلمُ ربَّه كما ينبغي، فيتفكر في لباس الإحرام الذي يرتديه كأنه كفن له يذكِّره أنه لا شيء أمام عظمة الله وقدرته. ويشعر المسلم إذا أنفقَ أن المال الذي بين يديه إنما هو مُلكٌ لله سبحانه وتعالى، وأنه أمانةٌ يؤدِّيها لمستحقِّها. ولا ينظر إلى مال غيره بعين الحسد، فشعور العبودية المكنون في العبادات يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمحبة في القلب، والقلب إذا زال صدؤه وتطهَّر، كانت العبادات كما ينبغي، وأشرقت هنالك أنوار الإيمان.

---

٥١ الماعون: ٤ – ٥.

وإذا تساءلنا كيف نؤدِّي العبادات بخشوع، فما علينا إلا أن ننظر إلى سيرة أسوتنا الحسنة نبيِّنا محمد ﷺ وحياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم. إذ يرشدنا نبيُّنا الكريم الذي لم يعشْ صفحة من صفحات عمره إلا وهو يدرك الآخرة، إلى أن نستشعر في عباداتنا بالحال التي سنكون عليها في أنفاسنا الأخيرة.

فذات مرة جاءه صحابي فقال:

يا رسول الله علمني وأوجِز، فقال:

«إذا قمت في صلاتك فصلِّ صلاة مودِّع، ولا تكلَّم بكلام تعتذر منه، وأجمع اليأس عما في أيدي الناس»[52]

فعلى كل مؤمن يسعى للاستعداد للموت أن يُحسِّن معاملاتَه وعلاقته بالناس- مثلما يحسِّن عباداته- مُستنًّا بسُنَّة النبي ﷺ. وعليه أن يكون عبداً ينفع الأمة بيده ولسانه، ويتحلى بالإيثار فيحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه؛ عندها تحيط المحبة لله ورسوله بالمخلوقاتِ كلها فتغدو وسيلة للنظر إليها بنظر الرأفة والرحمة.

ومن الأمور المهمة للاستعداد للأنفاس الأخيرة قدرةُ العبد على ترسيخ شعور الإحسان في القلب؛ أي دوام المعية القلبية في كل لحظة مع الحق عز وجل والشعور دائمًا بأنه يراه. وأعظم سعادة له أن يستطيع أن يكون في معية ربِّه، لكن العقل البعيد عن روحانية القلب

---

٥٢ ابن ماجة، الزهد، ١٥؛ أحمد بن حنبل، المسند، جـ٥، ٤١٢.

والذي تغلبه أهواء النفس يكون عاجزًا عن إدراك هذه الحقيقة؛ أي يكون غافلاً عن أعظم سعادة.

لابد أن يكون المؤمن متوكلاً صابراً لا يفقد توازنه في مواجهة تقلبات الحياة. وعليه أن يفكِّر في الامتحانات العسيرة التي واجهها رسول الله ﷺ، وأن يتذكر ثبات رسول الله ﷺ وحال الرضا التي كان عليها مع أنه فقد في حياته ستة من أولاده السبعة. وعليه ألا ينسى صبر رسول الله ﷺ وصلابته عندما استُشهد عمه حمزة رضي الله عنه ومصعب بن عمير رضي الله عنه الذي كان يحبه كثيراً.

وينبغي للباحث عن الحقيقة كي يصل إلى صلاح القلب في هذا العالم الفاني أن يواجه الابتلاءات والمصائب بالصبر، والنسيان بالذكر، والجحود بالشكر، والعصيان بالطاعة، والبخل بالكرم، والأنانية بالإيثار، والشكَّ باليقين، والرياء بالإخلاص والتواضع، والذنوب بالتوبة، والغفلة بالذكر والتفكر.

إضافة إلى ذلك، علينا أن نعلم أن الأيام والليالي المباركة لا سيما أوقات السحر التي تُحيَى بذكر الله إنما هي فرص ونفحات نورانية في هذا العالم الفاني لنيل رضا المولى عز وجل، فسعادة الآخرة مكنونة في عتمة الأسحار. وأولياء الله الذين يعيشون حياتهم دون أن يغفلوا عن الموت يسعون لمرضاة الله عز وجل بالذكر والتفكر في أوقات السحر وهم يتقلَّبون بين الخوف والرجاء، فأوقات الأسحار التي تنقضي بلا ذكر وتفكر إنما هي أوقات هجران لدى أحباب الله.

ومن الأمور المهمة الإنفاق في سبيل الله تعالى، وفي ذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥٣]

وقد ذكر المفسرون أن التهلكة التي ورد ذكرها في هذه الآية الكريمة هي: «الامتناع عن الإنفاق والتضحية في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى وخدمة دينه المبين خشية الفقر أو لحب الدنيا».

فعن أبي أيوب الأنصاري أنه قال:

«إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام قلنا: هلمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها... فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد»[٥٤].

فعلى المؤمن أن يسعى دائماً لينفق روحه وماله في سبيل الله في كل أحواله، لأن كل شيء دنيوي بين أيدينا إنما هو- مثلما هي الحياة- أمانة لدينا.

وهذه الأمانة تكون وسيلة للفوز في الآخرة إذا أنفقناها في مكانها، وتكون سببًا لخسران الآخرة إذا ضيَّعناها بتجميعها وحصرها للنفس طلباً للراحة والدعة.

---

٥٣ البقرة: ١٩٥.

٥٤ أبو داود، جهاد، ٢٢، ٢٥١٢.

وما ينبغي للمؤمن أن ينسى أبدًا اللوحة المُعبِّرة التالية التي تتعلق بالإنفاق وهي أن:

الديدان تبدأ بالتعلق ببدن الميت مع انتهاء أهل والأقارب من العزاء. وبعد ذلك تبدأ بتمزيق ذلك البدن وإفنائه مع بدء الورثة في تقسيم المال بينهم. وتكاد هاتان العمليتان تبدآن وتنتهيان في الوقت نفسه؛ ففي جانب يفنى البدن ويتحلل وعلى الجانب الآخر تُوزَّع الثروة. والروح التي تشاهد تلك الحال بدهشة وحيرة تريد أن تعض على يديها حسرة وندامة، ولكن لم يعد هناك لا يد ولا رِجل ولا شيء، وبقيت الأعمال الصالحة. فالتقوى والأعمال الصالحة التي عملناها في الدنيا ستكون خير بضاعة لنا في الآخرة.

وفي ذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ:

«**إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**»[٥٥]

وصفوة الكلام أن أحوالنا وأعمالنا في الدنيا تحدِّد حياتنا في عالم البرزخ الذي سوف يستمر إلى قيام الساعة. فالعاقل من استعدَّ للموت قبل أن يموت كي لا يكون الموت خسارة وندامة له بل فوزاً عظيماً.

فأيُّما عبد لم يحِد عن الصراط المستقيم مهما كان عمله ومهنته، فإن الله تعالى سيتوفَّاه على ذلك الصراط. والذي يعيش حياته

٥٥ الترمذي، القيامة، ٢٦.

على هدي القرآن والسُّنة في إطار كلمة التوحيد بين أهله وفي عمله وعلاقاته بالناس وطاعته لله، فلا ريب أنه سيجد الطمأنينة والسكينة لحظة خروج أنفاسهم الأخيرة. والمهم أن نسعى لنعيش حياتنا على الصراط المستقيم مدركين معنى قوله تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[٥٦]، وإلا كانت نهاية أنفاسنا الفانية إلى الضياع والخسران المبين كسفينة أضاعت بوصلتها فما عرفت على أي صخرة ستتحطم.

إن الذين أدركوا سرَّ قول: «**موتوا قبل أن تموتوا**» فعاشوا حياتهم دون غفلة عن الموت إنما هم العارفون أولياء الله، وقد وعدهم الله تعالى أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يوم القيامة. ويغدو الموتُ الذي هو حجاب يخفي وراءه عالَم الخلود سعادةً عظيمةً لمَن عاشوا حياتهم وهم يعرفون أنهم أشرف مخلوقات الله تعالى، وأعدوا- بلطف الله تعالى- للحظة خروج أنفاسهم الأخيرة. وجوهر الأمر كله أن يُرجِع العبدُ أمانةَ الروح التي وهبها الله تعالى لبدنه كما دخلت فيه أول مرة طاهرةً صافيةً. كما قال الشاعر التركي نجيب فاضل قيساكوراك:

في تلك اللحظة تُرفَع الحجب

والمهارة حينها أن تقول لملك الموت: «أهلاً بك»

٥٦ الفاتحة: ٦.

والحق أن الأنفاس الأخيرة كالمرآة اللمَّاعة البرَّاقة لا تجد ذرة غبار عليها، ويرى المرء فيها عمرَه كله بمحاسنه ومساوئه في أجلى صورة. عندئذ لن تُحجَب العيون عن رؤية الحقيقة بحجاب الغفلة أو الاعتراض، بل تُرفَع الحُجبُ كلها ولا يبقى بدٌّ من الندامة؛ فلنحرص على ألا تكونَ أنفاسنا الأخيرة المرآةَ التي نرى فيها حياتنا بحسرة وندامة، وذلك بأن نعيش على هدي القرآن الكريم والسُّنة الشريفة، فالمفلح هو مَن عرف نفسه قبل أن يُدرِكه الموت.

اللهم اجعل أنفاسنا الأخيرة نافذةً نشاهد منها فلاحنا وتوفيقنا في الحياة الآخرة.آمين!

ذكر الله في الكون
وأوقات السَّحر

إن الأسحار أكثر أوقات الذِّكر بركةً، وقد جعل المولى ﷻ للأذكار في هذا الوقت من الليل فضلاً على سائر الأوقات. وإحياء الأسحار تعبير عن محبة العبد لربِّه وتعظيمه إياه. والصلاة في الليل والتسبيح فيه كأنه لقاء بالمولى ﷻ والجلوس في حضرته. ولا بدَّ من إحياء الأسحار إحياءً تظل روحانيَّته في سائر اليوم.

ذكر الله في الكون
وأوقات السَّحر

لقد وهبَ ربنا ﷻ المخلوقات كلها الحياةَ بتجلِّي اسمه «**الحي**»، ولن نجد بين المخلوقات مخلوقاً يمكن أن نصفه بأنه بلا حياة. فمع أن الحركة والحياة تبدو منحصرةً بالنبات والحيوان والإنسان، إلا أننا لو شاهدنا بعين البصيرة حركةَ الجزئيات في الذرة، لبقينا مندهشين حائرين أمام الحياة الرائعة التي توجد في جوهر مادةٍ نحسبها بلا حياة، وتزداد هذه الدهشة كلما قلَّبنا أبصارنا في عالَم الذرَّات وانتقلنا إلى عالَم المجرَّات.

وكلَّف الله ﷻ المخلوقات كلها الحية والميتة بالذِّكر دائماً، لهذا فإن المخلوقات تذكر ربها وتسبِّحه بصورة خاصَّة بها.

وتعرف الجمادات والنباتات والحيوانات في الوقت نفسه نبيَّنا محمداً ﷺ وسائر الأنبياء الآخرين، وهذه الحال تبدو باستمرار في معجزات الأنبياء. فقد تحوَّلت العصا التي كانت في يد سيدنا موسى عليه السلام إلى حيَّةٍ تسعى بإذن الله تعالى وأرعبت فرعون. وانفلق البحر الأحمر بأمر الله تعالى وأصبح طريقًا لموسى وأصحابه، ولكن ما إن جاء فرعون وجنوده خلف موسى حتى أهلكَهم. وأنَّ جذع النخلة

الذي كان في المسجد النبوي وبكى حزنًا على فراق النبي. وكثير من الحيوانات قد اشتكت لرسول الله ﷺ من ظلم أصحابها لها.

وقد عبَّر مولانا جلال الدين الرومي عن طاعة الجمادات لأمر الله تعالى إذ قال:

«ألا ترى أن السُّحُب والشمس والقمر والنجوم كلها تتحرك وفق نظام معين. وكلُّ نجم من تلك النجوم التي لا تُحصى يُشرِق في موعده فلا يتأخر عن وقته ولا يتقدم.

كيف لم نفهم هذه الروعة في الخلق من معجزات الأنبياء؟ لقد جعلوا الحجارة والعصا وغيرها أشياءَ عاقلة، فانظر إليها وقِسِ المخلوقات الجامدة الأخرى بها.

إن طاعة الحجارة لرسول الله ﷺ وطاعة العصا لسيدنا موسى عليه السلام تخبرنا كيف أن المخلوقات كلها التي نظن أنها بلا روح تخضع لأمر الله عز وجل.

إنها تقول: نعرف الله ا ونطيعه، إننا لسنا أشياء تافهة خُلقت عبثًا، بل نحن كلنا نشبه البحر الأحمر الذي عرف فرعون فأغرقه، وميَّزَ بني إسرائيل فأنقذهم ونجاهم.

أليس كلُّ حجر أو شجر في أي مكان كان يسلِّم على النبي ﷺ ما إن يراه. فاعلم أن كل شيء تظن أنه بلا روح هو حي مثلك والروح تسري فيه».

أي إن معرفة سيدنا محمد ﷺ لا تقتصر على الإنس والجن فقط، بل تعرفه المخلوقاتُ كلها حتى الجمادات- بسِرٍّ إلهي نجهله-، وتطيعه بمحبة عظيمة طاعةً لا قيد فيها ولا شرط. ولكن حُجُب الغيب المُسدلة أمام أعين الإنسان امتحاناً له في الدنيا تمنعه في أحيان كثيرة من أن يُلاحظ هذا الأمر. وما أعظم العِبَر في حديث رسول الله ﷺ الذي يُوقظنا من الغفلة إذ قال:

«إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس».[57]

فيبيِّن لنا هذا الحديث أن معرفة الله ﷻ ورسوله ﷺ وطاعتهما لا تنحصر في الإنسان فقط، بل يمكن القول: إن هذا الأمر موجود على مستوى متقدم أكثر في المخلوقات الأخرى بصورة فطرية. والآية الكريمة التالية توضِّح لنا جانبًا آخر لهذه الحقيقة إذ يقول الحق ﷻ:

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[58]

فربُّنا سبحانه وتعالى ينبِّه الغافلين ويرينا أن كلَّ شيء في الوجود يعرفه ويذكره بلسان حال يفوق إدراكنا. فلو استطعنا أن نسمع ذكر المخلوقات، لتحولت قلوبنا بالعبادة والذكر والتسبيح والعبودية

---

57 أحمد بن حنبل، مسند، جـ.٣، ص٣١٠؛ الدارمي، المقدمة، ٤.

58 الأنبياء: ٧٩.

الصادقة إلى قلوب طاهرة، ولاستطعنا أن نرفع حُجُبَ الغفلة وأن نقف على عالم الحقيقة.

والحادثة التالية التي يرويها لنا الشيخ **عزيز محمود هدائي** الذي كان من أولياء الله تعبِّر أجمل تعبير عن أن النباتات مشغولة دائمًا بذكر الله تعالى:

ذات يوم خرج الشيخ **أُفتاده** في نزهة مع مريديه، فطلبَ منهم أن يتجولوا في ذلك المكان ويحضر كلَّ واحد منهم باقة من الزهور. ولكن عزيز محمود رجع وفي يده زهرة ذابلة مكسورة الساق، وبعد أن قدَّمَ كلُّ مريد ما في يده لشيخه مسرورًا، قدَّم عزيز محمود مطأطئَ الرأس زهرتَه الذابلة تلك إلى شيخه أُفتاده. وعندما سأله الشيخ وهو بين مريديه الذين كانوا في دهشة من أمره:

«يا ولدي محمود، لقد أحضرَ كلُّ واحد باقةً نضرةً من الزهور، فلماذا أحضرت زهرة ذابلة مكسورة الساق؟»

فأحنى عزيز محمود رأسه بأدب وقال:

«يا شيخي، اعلموا أني مهما قدمت لكم، فهو قليل. غير أني كلما مددت يدي لأقطف زهرةً، وجدتها تذكر الله، فما رغبت أن أمنعها عن الذِّكر. وما استطعت أن أُحضِر إلا هذه الزهرة التي ما عادت قادرةً على ذكر ربِّها».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«إن سلطانَ الطيور طائرُ اللقلق ، هل تعرف معنى قوله: «لق.. لق؟» إنه يقول: الحمد لك ، والشكر لك ، والملك لك يا مُستعان».

أما الشيخ محي الدين بن عربي فيقول في هذا الشأن:

«المخلوقات كلها تذكر الله تعالى بصورة خاصة بها، ولكنها في هذا الأمر على مستويات مختلفة؛ فأبعد المخلوقات عن الغفلة هي الجمادات لأنها مستغنية عن كل الحاجات مثل الطعام والشراب والهواء. ثم تأتي النباتات لأن الحاجة تبدأ فيها، إذ تأخذ غذاءها من التراب والماء والشمس، وتخلط هذا بتقدير إلهي، فتظهر للوجود الأزهار والأوراق والثمار مختلفة الأشكال والألوان. بعد ذلك تأتي الحيوانات، فعناصر الحياة فيها مكتملة أكثر من النباتات، لهذا تكثر حاجاتها وتزداد شهواتها. أما حاجات الإنسان فلا تنفد، فالأنانية والأوهام والأطماع الدنيوية تسوقه دائمًا إلى الغفلة».

وفي ذلك يقول الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾[٥٩]

إن القدرة على فهم الأسرار والحِكَم في صفحات هذا الكون ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنضج القلب. والمؤمن الذين ينظر إلى السماء والأرض بعين القلب يشعر بشعور مختلف تمامًا. فالقرآن الكريم قد بيَّنَ أن كلَّ

٥٩ الإنفطار: ٦-٨.

شيء في الكون من الذرات إلى المجرات تذكر الخالق ﷻ وتسبِّحه، وقد أخبرنا أن السموات والأرض والجبال والأشجار والمروج والشمس والقمر والنجوم والصواعق والحيوانات والأحجار الصماء وحتى الظلال المنتشرة في الأرض كلها تسجد لله ﷻ صباح مساء:

﴿وَللهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[60]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[61]

إن هذه الآيات الكريمة تعرض أمامنا مشهدًا عظيمًا، فالسجدات في هذه اللوحة المهيبة تشترك مع الظلال؛ أي ثمة سجدتان: السجدة الأولى سجدة الوجود نفسه، والأخرى سجدة ظلِّ هذا الوجود في الوقت نفسه. فكل ذرة في الكون تسجد لربِّها مؤمنةً أو غير مؤمنة، وتؤدِّي مهمتها في حضور الخالق ﷻ. والكائنات كلها في حال سجود، وكل الوجود في حال تسليم للحق ﷻ فطرةً حتى المنكرون والغافلون؛ فوا أسفاه على أولئك الغافلين في الإنكار والذنوب!

فالغافلون الذين يتخذون آلهة أخرى سوى الله تعالى لا يعرفون أن الوجود كله حتى ظلال الأشياء التي يعبدونها تتوجه إلى الله

---

٦٠ الرعد: ١٥.

٦١ النحل: ٤٨.

تعالى الذي ينكرونه، وهم في إطار النظام الذي وضعه الله تعالى للكون؛ فما أشدَّه من خسران وضياع وانخداع!

فالآيات الكريمة تصوِّر مشهدًا فيه الظلال والأشياء والأحياء والملائكة حيث يؤدِّي الجميع مهمته في خشوع. أما مخالفة أمر الله تعالى والهروب من عبادته فهي صفة الغافلين. وكأن الآيات الكريمة تسخر من الغافلين حين تذْكر لهم أن المخلوقات كلها مع ظلالها تخضع لأمر الخالق سبحانه وتعالى.

ولو أننا نظرنا باعتبار إلى اتحاد السماء مع الأرض في الآفاق، وإلى امتداد سفوح الجبال، لوجدنا أنها في حال سجود، ومن أجمل مظاهر هذه الحال ظلالُ الأشجار والزهور والحشائش والحيوانات والإنسان على الأرض عن اليمين والشمائل. وكأن الأرض سجَّادةٌ لظلال الوجود كله، وكأن المطر دموع السماء، وكأن الرعد الذي يأتي عقب البرق صرخة من صدر السماء.

إن أحوال المخلوقات في الأرض والسماء دليلٌ عظيم للقلوب السليمة. وتجليات قدرة الله كثيرة، إذ تمتد من الدعوات التي تصدر عن قلب أصغر حشرة لا تكاد تُرى إلى الأصوات التي تصدر عن أضخم الحيوانات.

وما النغمات الحزينة التي تأتي من قلوب البلابل الصغيرة، وزقزقات طيور القُمْرِي، ولقلقات طيور اللقلق إلا تسبيحات لله تعالى لا يسمعها إلا القلب الواعي.

وفي ذلك يقول الحق ﷻ في كتابه العزيز:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُوم والْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[٦٢]

فالمخلوقات وحتى الجمادات كلها في حال تسبيح لله تعالى، ولكن قِسمًا من البشر سيُبتلون- مع الأسف- بالعذاب والخسران لبقائهم غافلين عن ذكر الله ﷻ. وإذا كانت المخلوقات كلها في حال ذكر وتسبيح وعبادة، فما بال الإنسان لا ينتبه أمام هذا النظام البديع! وما باله لا يأخذ العبرة والعظة من تلك اللوحة المُعبرة للكون!

ومما لاشك فيه أن طريق الأُنس بالله تعالى ألا ينسى العبد ربه. وأينما ولَّى المؤمنون ذوو البصائر وجوهَهم، رأوا أنوار ذكر الله، وأينما أصغوا آذانهم، سمعوا أنغام تسبيح الله. وإننا على قدر ذكرنا لله تعالى في هذه الحياة الدنيا، نبلغ مرضاته في الآخرة.

إن عدم نسيان الله سبحانه وتعالى هو طريق الحياة بوجدان حيٍّ، وهو طريق الموت على الإيمان والنجاة في دار القرار، فالذي ينسى ذِكرَ ربِّه يضيع عمره هباءً في سراديب الغفلة، ولن يستيقظ من تلك

٦٢ الحج: ١٨.

الغفلة إلا بالموت، ولكن عندئذ يكون قد أضاع الفرصة فصار في الخسران المبين. وقد جاء في الآية الكريمة:

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[٦٣]

عن عبد الله بن بُسرٍ رضي الله عنه أن رجلًا قال:

يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به ، قال ﷺ:

«لا يزالُ لِسَانُكَ رَطبًا من ذكر الله»[٦٤]

إن ذكر الله تعالى ليس تكرار لفظ (الله) فقط، ولكن الذكر عندما يجد مكانًا في القلب الذي هو المركز، تصل النيَّات والأعمال إلى المستوى المطلوب، وحينها يكون الذِّكرُ وفاءً بالعهد الذي قطعه العباد مع الحق سبحانه وتعالى عندما سألهم: **﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾**[٦٥] فكان جوابهم: **بلى**.

فالغفلة عن ذكر الله تهلكة شديدة، لذلك ينبِّه الله عز وجل عباده كثيرًا في هذا الشأن، حتى إنه عندما أرسلَ سيدنا موسى وسيدنا هارون إلى فرعون، وأمرهما -وهما نبيَّان- قائلاً:

---

٦٣ الحشر: ١٩.

٦٤ الترمذي، الدعوات، ٤؛ ابن ماجة، الأدب، ٥٣.

٦٥ الأعراف: ١٧٢.

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[٦٦]

لم يستثنهما من هذا التنبيه، وكأنه سبحانه وتعالى أراد أن يكون هذا الأمر درسًا وعبرةً لنا.

والحق أن ذِكر الله الدائم إنما هو سبيل خلاص قلوب المؤمنين من قساوة الغفلة، ووسيلة بلوغهم مرضاة الله ﷻ. ولا يكون هذا الذكر في مدة أو مرحلة، بل يكون طوال العمر، أي مع كل نَفَس يتنفسه الإنسان، عندها يبلغ المرتبة المعنوية المنشودة. وفي هذا يقول الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ...﴾[٦٧]

لقد نزلت هذه الآية الكريمة لتنبِّه طائفة من الصحابة الذين عاشوا الضنك والشِّدة في مكة، ثم مالوا إلى الدَّعَة والراحة في المدينة المنورة بعد أن وجدوا فيها الرزق الواسع. فلا بد أن نملأ قلوبنا بمبحة الله ﷻ، ونسعى للوصول إلى مرتبةٍ لا تغرينا فيها الأطماع الدنيوية والمنافع الفانية.

لأن المحبَّ يحمل حبيبه في قلوبه دائمًا، ولا يغيب ذكره عنه لحظة واحدة؛ أما القلب بلا محبة فهو مثل الأرض الخاوية.

---

٦٦ طه: ٤٢.

٦٧ الحديد: ١٦.

والمعرفة هي المحبة، لأن المحبة سببُ الوجود، فالحق ﷻ أراد أن يُعْرَف فخلق هذا الكون.

إن عظمة المحبة تُقَاس بالتضحية التي تُبذل في سبيل المحبوب، ومن أبرز الأمثلة لذلك الاستيقاظ في الأسحار واللجوء إلى المولى ﷻ.

❀

على المؤمن أن يذكر الله تعالى دائمًا، وأعظم أوقات الذكر بَركةً «**الأسحار**»، فالحق ﷻ قد جعل للذكر في الأسحار ثوابًا أعظمَ، لأن الاشتغال بالذكر والعبادة في الأسحار يكون أصعب من الأوقات الأخرى؛ لهذا فإن إحياء الأسحار تعبيرٌ عن محبة المؤمن الصادقة لربه وتعظيمه إياه.

وقد قال ربنا ﷻ في شأن هؤلاء المؤمنين السعداء الذين رضي عنهم:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[68]

وقال أيضًا:

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[69]

---

٦٨ الذاريات: ١٥-١٨.

٦٩ الشعراء، ٢١٨-٢١٩.

وعقب نزول هذه الآيات الكريمة سارَ رسول الله ﷺ بين منازل أصحابه ليلاً، فوجد لتلك المنازل دويًّا كدوي النحل من تلاوة القرآن والذكر والتسبيح.

فنفهم من كلِّ ذلك أنه على قدْر محبة الله في القلوب تكون الرغبة في الصلاة والتهجد والتسبيح في الليل، وكأن الصلاة والتسبيح في تلك الأوقات لقاءٌ مع الخالق ومناجاته والتضرع إليه.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً. إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾[70]

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[71]

إن الليالي للمؤمنين فرصةٌ لا تُعوَّض لما فيها من سكينة وفيوضات. فالذين يعرفون قيمة الأوقات المباركة يجدون فيها- لا سيما الثلث الأخير من الليل- أفضلَ فرصةً للتوجه إلى ربهم من أجل قبول دعائهم وعبادتهم وابتهالاتهم. وإذا كان النهار فيه العمل والكد بقصد تأمين الغذاء للجسم، فإن الليل وسيلةٌ لتأمين الغذاء للروح وإنارة القلب بنور الله سبحانه وتعالى.

٧٠ الإنسان: ٢٦-٢٧.

٧١ السجدة: ١٦.

ذات مرة سألَ طلابٌ وليًّا من أولياء الله عن مسألة لم يفهموا الحكمة منها إذ قالوا:

«عندما ننظر حولنا، نرى أن الكلاب لا تُذبح للحصول على لحومها مثل بعض الحيوانات الأخرى وتُترَك لتموت عندما يحين أجلها، وتلد الكلاب قياسًا بالحيوانات الأخرى عددًا كبيرًا في البطن الواحدة؛ لكن الإنسان يذبح الأغنام بقصد العبادة ويتغذى على لحومها، والأغنام لا تحمل بأكثر من واحد في البطن الواحدة في أغلب الأحيان، ومع ذلك لا تنقص أعدادها بل تزيد. فما حكمة هذه البركة التي في الأغنام؟»

وبعد أن استمع إليهم الولي مبتسمًا أجاب عليهم ذلك الجواب الحكيم قائلاً:

«إن هذه الحال التي تشاهدونها في الحيوانات إنما هي إشارة بارزة إلى بَركة وقت السحر، لأن الأسحار أوقات مباركة تتنزل فيها الرحمات. والكلاب تظل تنبح طوال الليل، ولكن إذا ما جاء وقت السحر ترقد لتنام. أما الأغنام فهي تستيقظ وقت السحر، لهذا فهي تأخذ نصيبها من بركة وقت السحر».

وعن ابن عباس ﵄ أنه قال:

«عجبت للكلاب والشاء، إن الشاء يُذبَح منها في السنة كذا وكذا، ويُهدَى كذا وكذا، والشاء أكثر منها والكلب تضع الكلبة الواحدة كذا وكذا»[72]

---

٧٢ البخاري، الأدب المفرد، ٥٧٥.

فنفهم من كل ذلك أنه مَن ينام في الأسحار، يظل محرومًا من فيوضات هذه الأوقات وبركتها.

يا رب لا تجعلنا نغفل عنك طرفة عين ولا أقلَّ منها، ونوِّر قلوبنا وليالينا ببركة ذِكرك، وأحيي قلوبنا بالرحمات التي تتنزل في الأسحار. اللهم اجعلنا نفقه فضل ذكرِك يا عليم، وأهدِ مَن حُرِمَ من إدراك عظمتك، واحفظ بحرمة الذاكرين لك في الأسحار بلادَنا وأمتَنا من شرِّ الأشرار وكيد الكائدين. آمين!

القرآن والتفكر

-١-

إذا كانت السموات بنجومها التي تتلألأ ستبقى إلى قيام الساعة دليلًا على القدرة والعظمة الحاكمة، فإن القرآن أيضًا سيضيء بنجوم الآيات آفاق إدراك الإنسان إلى يوم القيامة. وأكثر البشر سعادةً في هذه الدنيا هم الذين يجتمعون تحت ظلال القرآن الكريم ويسيرون بنور الحياة الصادر عنه.

القرآن والتفكر

- ١ -

تتجلى أسماء الله ﷻ في هذا العالَم بصورة كاملة في ثلاثة مواضع هي: **الإنسان والقرآن والكون**.

فالإنسان الذي تتجلى فيه الأسماء الحسنى كلها إنما هو جوهر العالَم. وقد تجلت هذه الأسماء نفسها في حال الكلام، فكان القرآن. والقرآن مفصَّلٌ أكثر إذا قارنَّاه بالإنسان، ولكن جوهرهما واحد لذلك قيل: «**الإنسان والقرآن توأمان**».

أما الكون الذي هو الموضع الثالث لتجلي الأسماء الحسنى فهو كتفسير للقرآن الكريم؛ فالكون قرآن صامت، والقرآن كون متكلم. أما الإنسان من حيث جوهره فهو بداخلهما يقع في موضع السلطان الكامل للتجلي بلا نقصان؛ فالإنسان والقرآن والكون أسرةٌ موحدة واحدة.

فإذا كانت السموات بنجومها التي تتلألأ ستبقى إلى قيام الساعة دليلًا على القدرة والعظمة الحاكمة، فإن القرآن أيضًا سيضيء بنجوم الآيات آفاق إدراك الإنسان إلى يوم القيامة. وأكثر البشر سعادةً في هذه الدنيا هم الذين يجتمعون تحت ظلال القرآن الكريم ويسيرون بنور الحياة الصادر عنه.

إن كل سرٍّ وحكمة وحقيقة مخفيَّة في القرآن، وكل سعادة ظاهرة في الإيمان، وهذا العالم المترامي الأطراف يوضِّح أنَّ الحق ﷻ إنْ شاءَ جعلَ المحيط في الذرة ظاهرًا أو مخفيًّا، وإنْ شاءَ جعلَ الذرة في المحيط ظاهرًا أو مخفيًّا.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«وجدتني يومًا راغبًا في رؤية نور الله تعالى في البشر، فكأني كنت أرغب في رؤية البحر في القطرة، والشمس في الذرة».

وهذا القول الذي يعبِّر عن الرغبة في بلوغ الحقيقة ويبيِّن عمق الحقيقة ذاتها يُظهِر لنا أن التفكر في الحقيقة أعظمُ وسيلة تحمل الإنسان إلى القمم، لأن الوسيلة الوحيدة الفريدة للوصول إلى الحقيقة إنما هي التفكُر والولع بالبحث.

إن الغايات الدقيقة في التفكُر في الكون بالقلب هي إظهار الحكم اللطيفة. ومن أوضح الواضحات أن هذه الدنيا مدرسة إيمانية في جو امتحان. أما البشر الذين يدعون وجود سلبيات وتناقضات في هذا الكون الذي يسيرون فيه فإنهم يخسرون في الحياة ويبعدون عن رضا الخالق ﷻ، ويعيشون في دوامة من الخسران لعجزهم عن تأمين رأس مال الأبدية اللازم.

ينبغي للإنسان أن يحل عُقدةَ المستقبل أي لغز الموت بأن يعيش بشرف وعِزَّة مدركًا أنه عبدٌ لخالق هذا الكون، وأن يتفكر في حقيقة

الموت كما أمر الله تعالى. لأن الموت يحاصر كل إنسان من كل جانب كدوَّامة هادرة، وهو من أقسى حقائق المستقبل التي لا مفر لمخلوق منها، لذلك فإنه من أعظم الغايات الطمأنينةُ بالتفكر فيه والعيشِ بإدراك حقيقته.

فالإنسان يحتاج إلى إرشاد القرآن فقط لمعرفة الكون وبلوغ طريق التفكر والبحث للوقوف على الأسرار والحكم الإلهية في هذا الكون العظيم.

ولو كان تفكر الإنسان كافيًّا لبلوغ غاية خلقه، لما أرسل الله تعالى الأنبياء عونًا للعباد، ولما أنزل الكتب السماوية. وهذا يعني أن الإنسان يحتاج إلى عون من الله تعالى كي يستعمل نعمة التفكر الموجودة في فطرته كما ينبغي. ولو لم يُنزِّل الله تعالى القرآنَ، فهل كان يستطيع الإنسان أن يفهم صفات الله تعالى؟! فالقرآن إذن يوجِّه تفكرَ الإنسان بالإرشادات والتنبيهات كي يغرف من بحر الحقائق.

ولو لم يكن هناك باب التفكر الذي فتحه القرآن علينا، لبقينا محرومين من إدراك كثير من الحقائق والتعبير عنها. فلا بد أن نُعمِل الأذهان كي نفهم محتوى القرآن، ولا شك أن هذا الأمر يكون داخل حدود واضحة، لأن القرآن الكريم قد أخبرنا أنه لا رطْب ولا يابس إلا موجود فيه، لذلك فإن إدراك حقائقه كلها محال كما هو محالٌ إدراكُ حقائق هذا الكون العظيم كلها.

وهذا يعني أنه ثمة إطار رسمه القرآن الكريم للبشر بإرشادات لا حصر لها في موضوع استعمال العقل للتفكر، لأن حجم العقل الذي أُعطي لنا يمكن وضعه في راحة اليد، أما الحقيقة التي يمكن أن يصل إليها فلا حد لها؛ لذلك ما ينبغي أن يخرج العقل عن إطار القرآن والسُّنَّة، ولا بد له من التحلي بالتسليم لله سبحانه وتعالى.

ونجد أن المفسرين الذين أدركوا عجز العقل وعرفوا حدوده كانوا بعد أن يوضحوا المعاني التي تحملها آية من آيات القرآن الكريم يقولون: «والله أعلم بالصواب» لأنهم كانوا يرون ضرورة الإيمان بحقيقة تلك الآيات كما هي عند المولى ﷻ.

فثمة فرق في الحجم والكمية بين الماء الذي في المحيط والماء في الكوب، وإن كانت الماهية نفسها.

ولو شُرِحَت فكرةُ الألوان لطفل وُلِدَ أعمى، لكان لذلك الشرح أثرٌ في ذهنه، لكن ثمة فرق كبير بين ذلك الأثر وحقيقة الألوان نفسها؛ فرقٌ لا يمكن قياسه.

فينبغي تجنب الادعاء بأن المعنى الذي تم إدراكه بالحواس البشرية هو المعنى الكامل والتام للألفاظ التي يحتويها القرآن الكريم.

وصفوة الكلام أن كلَّ ما ذكرناه يدلُّنا على حدود إدراك الإنسان في تفكره من أجل بلوغ الحقيقة. وهنا نود أن نعرض عليكم بعضًا من الإرشادات والتنبيهات القرآنية في هذا الشأن:

إن القرآن الكريم الذي هو دليل هداية يدعو الناس إلى التفكر في الحِكَم التي في خلق الإنسان، وفي النظام المدهش الذي يحكم الكون، وفي المعجزة البيانية التي يحتويها؛ فعلى مَن يريد أن يعيش بصورة تليق بشرف الإنسانية أن يتفكَّر كما أمر القرآن الكريم.

إن الإنسان الذي يتفكر في أحوال الكون يبحث عن إجابات لتساؤلات كثيرة منها: «ما هذه الدنيا؟» و«لماذا خُلقتُ؟» و«ما حقيقة الأيام الفانية؟» و«أي طريق هو طريق السعادة؟» و« كيف ينبغي أن أعيش؟» و«كيف عليَّ أن أفكر؟» و«كيف يجب أن يكون الاستعداد لوداع هذا العالم الفاني؟».

وإذا كان الكون كله يتحرك بدِقَّة شديدة، فهل يليق بالإنسان الذي يعد أشرف المخلوقات أن يتحرك عبثًا بلا حسبان لشيء ويعيش عيشًا تغلبه فيه شهوات النفس؟

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[73]

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[74]

إن مرحلة براءة الإنسان تنتهي مع الوصول إلى سن البلوغ، ويبدأ المؤمنون الذين يسعون لأداء العبودية لله تعالى على الوجه اللائق

---

٧٣ المؤمنون: ١١٥.

٧٤ القيامة: ٣٦.

في تحمل مسؤولية جديدة. وفي مرحلة النضج هذه لا بد من التفكر بالقلب إضافةً إلى العقل، لأن الكون لا يكشف الأسرار والحِكَم الإلهية واليقينيات الكبرى إلا للقلوب المؤمنة. يقول المولى ﷻ:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾[٧٥]

إن القرآن الكريم يحذِّر ويرشد أولئك الذين يضيِّعون أعمارهم في غفلة ونكران، ويتكاسلون في البحث عن خالق هذه الدنيا والصاحب الحقيقي لكل هذه النعم التي يستمتعون بها في لذة وسعادة تحت تلك السماوات التي يتعاقب فيها الليل والنهار، وتشرق فيها الشمس وتغرب بلا كلل أو ملل، وتتزين بزينة الكواكب، فالله ﷻ يقول:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[٧٦]

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٧٧]

٧٥ ق: ٦-٨.

٧٦ ص: ٢٧.

٧٧ الدخان: ٣٨-٣٩.

إن الكون مَعرِضٌ لتجليات قدرة الخالق وإبداعه وعظمته، وفيه يجد كلُّ قلبِ مؤمن واعٍ البصيرةَ واللذة المعنوية، ويقف مدهوشًا أمام الإبداع العظيم.

يقول الله ﷿ في كتابه العزيز:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراًّ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[78]

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾[79]

إن العيون المبصرة ترى أنوار المحبة تهطل من السماء وينابيع العشق تتفجر من الأرض، والإنسان المتفكر الذي تحيط به المحبة من كل جانب يسعى لمؤالفة مشاعره الظاهرة والباطنة مع المحبة الإلهية، ويجعل غايته الترقي في أحواله الروحانية.

وفي ذلك يقول الحق ﷿:

---

٧٨ الزُمر: ٢١.

٧٩ البقرة: ١٦٤.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[80]

إن الذين يرون السعادةَ في أن يكونوا عبادًا لله ﷻ وأتباعًا لرسوله ﷺ يتمسَّكون بالإيمان؛ فالإيمان شعورٌ مُقدَّسٌ يملأ القلب بمحبة الله ﷻ. والذين ينظرون إلى الكون بقلب نوراني يشعرون بشعور لا مثيل له؛ هذا الشعور يجعلهم يرون في السماء فوقهم محيطًا من الأسرار الإلهية، ويجعلهم يرون الأرضَ وما فيها من حجر وشجر وغيرها من المخلوقات وكأنها تفتح يديها مبتهلةً إلى خالقها سبحانه وتعالى، ويرون في الحشائش سجادة صلاة، ويرون الأزهار التي فوقها كأنها أمة صافية... والجبال التي هي علامات للقدرة الإلهية في حال قيام أمام حضرة الله سبحانه... والسحاب كأنها بحر متحرك في السماء ومنبع للخير والبركة... والبرق شرارات الخوف والرجاء... والرعد قاذفات تُوقِظ من الغفلة وأوامرُ صادرة عن مملكة القاهر فوق عباده... والنهار ظهورٌ لنوره... والليالي منبع للأسرار والحِكم.

والخلاصة أن الكون كتابُ أسرار وتجليات بآياته التي تلفت الانتباه، وهي تجلٍّ فعلي لأسماء الله الحسنى وقرآن صامت...

٨٠ الرعد: ٣.

والقرآن دنيا متدثرة بالكلام... أما الإنسان فهو مركز العرفان بين الكون والقرآن.

عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما كان ليلة من الليالي قال رسول الله ﷺ:

«**يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي**».

قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك. قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال:

يا رسول الله لم تبكِ وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟

قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت عليَّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها:**

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[81]». [82]

لقد بكى رسول الله ﷺ في تلك الليلة التي نزلت فيها تلك الآية الكريمة حتى الصباح. ولا شك أن دموع المؤمنين ستكون بلطف الله عز وجل زينةَ الليالي الفانية والنورَ الذي سيضيء ظلمة القبر.

---

٨١ آل عمران: ١٩٠.

٨٢ ابن حبان، جـ٢، ٢٨٧.

فاللهم نوِّر قلوبنا بأنوار الأسحار وبركتها، وزيِّنها بمحبة رسولك الكريم ﷺ، واحشرنا يوم المحشر تحت لوائه، واجعلنا ممن ينالون شفاعته.

اللهم اجعل بلاد المسلمين محلاًّ للخيرات والفتوحات والبركات.

يا رب اجعل الإيمان نور قبرنا والأعمال الصالحة رفيق دربنا.

إلهي اجعلنا من عبادك الذين يرون الكون والحوادث بعيون قلوبهم، ويتفكَّرون في آلائك كلَّ حين. آمين!

القرآن والتفكر

-٢-

لا بد أن تمتلئ قلوبنا بمحبة حقائق القرآن والسُّنَّة النبوية المطهرة، لأن القرآن والسُّنَّة يدعوان الناسَ إلى طريق الهداية والسعادة الأبدية، وعلينا ألا ننسى أنهما أمانتان لا بد أن نحافظ عليهما ونطبِّقهما في حياتنا.

القرآن والتفكر

-٢-

إن الإنسان ليس كائنًا من لحم وعظم فقط، بل هو معجزةٌ في الخَلْق وإبداعٌ فريدٌ، وهو أشرف المخلوقات. وأيُّ إنسان يصل إلى كمال مرضاة ربِّه محافظًا على الشرف والعزة التي فُطِرَ عليها، تحلُّ عليه النِّعَم والبركات، وينال نصيبًا من العلم الحقيقي، ويكون مصدرًا للخير، لأن ربَّه ﷻ قد خلقه في «**أحسن تقويم**».

وما أسوءَ عاقبة الإنسان الذي يضيِّع أمانة عمره في ما نهى عنه خالقه سبحانه وتعالى الذي أكرمه بنِعَم لا تُحصى.

إن الإنسان هدفٌ منصوبٌ أمام سهام النفس، لذلك عليه أن يعيش عمره يقظًا واعيًا من غير أن ينسى أن الموت متربصٌ به كل حين، وقد يأتيه من حيث لا يحتسب. فمَثَل العمر مَثَل التقويم الذي يحتوي أيام الحياة الفانية المعدودة، وثمة يد خفيَّة تقطف ورقةً من أوراقه كل يوم وتتركها لرياح الأجل.

إن أيامنا الماضية شاهدةٌ علينا، وأيامنا التي في المستقبل ستحِلُّ ضيفًا علينا، فلا بد أن نُعِدَّ لها. والعُمر سِجلٌّ سيُعرَض علينا في الآخرة، والملائكة الكرام الكاتبين تُسجِّل ما نعمله من غير أن تُخْطئ، وسَتُعرَض تلك السجلات علينا ويُقَال لنا حينها:

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[83]

وهذه الأرض التي نعيش عليها ستشهد علينا أمام الحق ﷻ:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[84]

فنسأل الله تعالى أن تبيضَّ وجوهنا في ذلك اليوم؛ ولذلك يقول المولى ﷻ:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[85]

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾[86]

﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ. إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾[87]

ويوضِّح القرآن الكريم لنا أن الذين يرون أنفسهم في مأمن من عذاب الله تعالى إنما هم زمرة الخاسرين:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[88]

وأنَّ الذين يقنطون من رحمة الله وعونه هم الكافرون:

---

٨٣ الإسراء: ١٤.

٨٤ الزلزلة: ٤.

٨٥ السجدة: ١٦.

٨٦ الإنسان: ١٠.

٨٧ المعارج: ٢٧-٢٨.

٨٨ الأعراف: ٩٩.

﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[٨٩]

إن قلب المؤمن يحيا العبودية لله سبحانه وتعالى وهو في مقام «**بين الخوف والرجاء**»، أي يكون المؤمن في حال دعاء وابتهال لربِّه، ويحافظ على هذا التوازن إلى أن يأتيه الموت، وفي ذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿...وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٩٠]

وعلى المؤمنين أن يعيشوا متفكِّرين راجين من الله تعالى أن يكونوا ممَّن وصفهم بقوله:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾[٩١]

وليس هناك ضمان نجاة في الآخرة لأحد من البشر ما عدا الأنبياء ومَن بشَّروا بنجاتهم؛ وفي ذلك يقول المولى ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾[٩٢]

٨٩ يوسف: ٨٧.
٩٠ الأعراف: ٥٦.
٩١ الإسراء: ٥٧.
٩٢ آل عمران: ١٠٢.

إن خشيةَ الله نورُ سعادةِ القلوب. وفي القرآن الكريم كثير من آيات العذاب وأخبار جهنم، ومع ذلك نجد بعض الغافلين تغرُّهم آياتُ الرحمة ولا يلتفتون لآيات العذاب، فينبِّههم الله ﷻ فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾[٩٣]

وقد نجد بعض الغافلين ممَّن يتبجَّحون بقولهم: «دع ذنبك لي لأتحمَّله عنك»، وليس قولهم هذا إلا دليلٌ على حماقتهم وجهلهم.

إن الغافل يفرح في الحياة ويتلذَّذ بنعيم الدنيا، أما المتفكر فيعلم كيف يغتنم الحياة الدنيا، ويعيش في سعي دؤوب ليبلغ المراتب المعنوية. والغافل في حال عصيان وصراع مع قدر الله تعالى، وغارق في متاهات أسئلته: «لأي شيء؟» و«لماذا؟». أما المتفكِّر فهو في حال رضا يسعى إلى الطمأنينة والسكينة بالنظر إلى الحكمة من كلِّ أمر والاطلاع على حقيقته.

ونجد بعضًا من الناس ممَّن يتصرَّفون وكأنهم قد وصلوا مقامات معنوية سامية، ونراهم يهذون بعبارات من غير أن يفهموها وهم لمَّا يبلغوا الذروة في أحوال القلب ولمَّا يطَّلعوا على أسراره،

٩٣ لقمان: ٣٣.

فيقول الواحد منهم مع أنه لم يبلغ مقام أولياء الله: «أنا لا أريد الجنة، ولا أخاف من النار، أنا عاشق لله، أنا أحبه فقط»؛ فأمثال هؤلاء لا يمكن أن تكون أقوالهم ولا أفعالهم ولا أحوالهم مقبولة في دين الإسلام.

فالذي يفنى في محبة الله ﷻ تخرج كل المحبَّات الدنيوية من قلبه، وتبقى محبة الله وحدها هناك. يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: «يا مَن يدَّعي محبة الله ﷻ لا تكمل لك محبتك إياه حتى تنسد الجهات في حقك، ولا يبقى لك إلا جهة واحدة؛ محبوبك يُخرِج الخلق من قلبك من العرش إلى الثرى فلا تحب الدنيا ولا الآخرة، تستوحش منك وتستأنس به، تصير كمجنون ليلى لما تمكنت منه المحبة، خرج من بين الخلق ورضي بالوحدة وخالط الوحش، خرج من العمران ورضي بالخراب، خرج من مدح الخلق وذمهم، وصار كلامهم وسكوتهم عنده واحدًا، رضاهم عنه وسخطهم عنده واحدًا. قيل له بعض الأيام: من أنت؟ قال: ليلى، وقيل له أيضًا: من أين جئت؟ قال: ليلى، وقيل له: إلى أين تمر؟ قال: ليلى؛ عمى عمَّا سواها وطرش عن سماع غير كلامها».[٩٤]

إن المؤمن عندما يعرف محبةَ الله ﷻ، لا يبقى في قلبه محبة أي مخلوق فانٍ. فالرغبات الدنيوية والبشرية تفني العمر، والقلب العاشق يكون في حال أُنس مع ربه فقط في وحدته وفي اجتماعه مع

٩٤ عبد القادر الجيلاني، الفتوح الربانية، ص١٧١-١٧٢.

الناس. ويجد السعادة في أمر الله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾[٩٥]، فيجلعه الله تعالى مطَّلعًا على حقائق الأمور.

لقد أنعمَ الله ﷻ على البشر برسوله الكريم محمدًا ﷺ أسوةً حسنةً لهم في كل مرحلة من حياتهم.

لمَّا مال رسول الله ﷺ إلى ولدي ابنته الحسن والحسين جاءه جبريل عليه السلام فقال: أتحبهما؟ فقال: **نعم**. فقال: أما أحدهما فيُسقَى السُّمَّ وأما الآخر فيُقتَل. فخرجا من قلبه وفرَّغه لمولاه ﷻ وانقلب الفرح بهما حزنًا عليهما.[٩٦]

فنفهم من ذلك أن الله تعالى لا يرضى أن تكون محبة المخلوق في القلب أكبر من محبَّته سبحانه وتعالى؛ وقد نبَّه الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ في المثال السابق إلى هذا الأمر العظيم. فلا بد أن نتجنَّب الإفراط في المحبة ونسعى لنحفظ أنفسنا من أن تتحول محبة الأشياء في قلوبنا إلى أصنام؛ ذلك أننا لسنا معصومين كالأنبياء.

إن تجاوز الحد في المحبة لا يجوز إلا في محبة الله تعالى. وإذا عاش العبدُ بين مشاعر الخوف من الله ﷻ ورجائه، صارَ قلبه منبعَ رحمة؛ لأن المُحِبَّ يعيش دائمًا في خوف من أن يُؤذي مَن يحب أو يفقد محبته. وفي ذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

---

٩٥ هود: ١١٢.

٩٦ عبد القادر الجيلاني، الفتوح الربانية، ص١٩٢.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٩٧]

لذلك لا بد أن نغتنم الفرصة ونملأ دفتر أعمالنا بالأعمال الصالحة ونزيِّنه بالإيمان. وعلينا ألا ننسى أننا من ذرية آدم عليه السلام الذي أُمرت الملائكة بالسجود له إكرامًا من الله عز وجل، وأننا طلاب في مدرسة سيدنا محمد ﷺ، وأننا في طريق الصراط المستقيم نحيا بالقرآن الكريم.

لهذا لا بد أن تمتلئ قلوبنا بمحبة حقائق القرآن والسُّنَّة النبوية المطهرة، لأن القرآن والسُّنَّة يدعوان الناسَ إلى طريق الهداية والسعادة الأبدية، وعلينا ألا ننسى أنهما أمانتان لا بد أن نحافظ عليهما ونطبِّقهما في حياتنا. وقد أخبرنا ربنا عز وجل أن الذين يبلغون مرضاته إنما هم أصحاب القلوب السليمة. فالبقاء من غير تفكُّر بدعوته عز وجل خسرانٌ وغفلةٌ للقلوب التي عليها أقفال، وفي ذلك يقول المولى جل جلاله:

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٩٨]

والقرآن يدعو إلى التدبر فيه وفي آياته التي لا نظير لها فيقول:

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾[٩٩]

---

٩٧ محمد: ٧.

٩٨ محمد: ٢٤.

٩٩ النساء، ٨٢.

أي إنه لا يمكن أن تناقض العلمَ آياتُ القرآن الكريم الموجود منذ أربعة عشر قرنًا؛ لا بل إن الاكتشافات والاختراعات في كل عصر تزيد من قوة القرآن، فالقرآن أعطى للأعرابي الذي كان يعيش قبل ألف وأربعمئة عام ما يبحث عنه ويطلبه ونظَّم حياته في أجمل صورة، ويستطيع اليوم أن يُحيِّر أرباب العلم ويُدهِشَهم ويجعلهم مطيعين له، لأنه مملوء بعلوم وكنوز توجِّه الاكتشافات العلمية كلها التي كانت والتي ستكون حتى قيام الساعة.

حتى إن رؤية معجزات القرآن بالاكتشافات العلمية وعدٌ من الحق سبحانه وتعالى ومعجزةٌ ذكرتها الآيات الكريمة تتحقق بالتدريج:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١٠٠]

والأمثلة لذلك كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ

١٠٠ فصلت، ٥٣.

لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[١٠١]

وقوله:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾[١٠٢]

واعترف الأستاذ الدكتور كيث ليون مور في كتابه عن علم الأجنَّة بمطابقة العلم للقرآن الكريم بعد أن وصفَ مراحل نمو الإنسان في الرحم وقارنها مع الآيات الكريمة، لا بل إن القرآن أوسع وأشمل من علم الطب من حيث الأمثلة والتعريفات التي ذكرها.

وذكرَ أن كلمات «نطفة» و«علقة» و«مُضغة» أي خصائص المراحل الثلاثة توافق الحقائق العلمية وتفتح الطريق للطِّب. فالمرحلة التي عبَّر عنها القرآن بالنطفة تشمل جميع ما احتوته الأبحاث العلمية، وأما العَلقة فتكون قطعة دم مجمدة معلَّقة، وتُخزَّن في هذه الخثرة أعضاء الجنين كلها، وأما المضغة فلها شكل

١٠١ الحج: ٥.
١٠٢ المؤمنون: ١٢-١٤.

قطعة لحم ممضوغة كأنَّ عليها آثار الأسنان. وبعد هذه الأبحاث شعرَ الدكتور كيث بالدهشة والإعجاب أمام القرآن الكريم والنبي العظيم، وصدَّق مطمئنًّا معجزةَ القرآن هذه التي ذُكِرت قبل ١٤٠٠ سنة، واعتنق الإسلام.

إن هذا الإقرار والتصديق وما شابهه ذكَرَه الله تعالى معجزةً أخرى من معجزات القرآن في قوله:

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[١٠٣]

أظهر علم البصمات حقيقة أن بصمات الإنسان تبقى نفسها دون أن تتغير طوال عمره، وأن بصمة كل إنسان لا تشبه بصمة غيره أبدًا؛ لذلك فإن البصمة أفضل وسيلة لمعرفة هوية الإنسان في مؤسسات الأمن والحقوق. وقد اكتُشِفَت هذه الحقيقة في نهايات القرن التاسع عشر وبدأ الناس بالانتفاع منها، لكن القرآن الكريم قد أشار إلى هذه الحقيقة قبل قرون طويلة في الآيتَين التاليتَن:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[١٠٤]

أي إن القرآن يأتي في المقدمة دائمًا ويأتي بعده العلم ليؤكده:

---

١٠٣ سبأ: ٦.

١٠٤ القيامة: ٣-٤.

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[١٠٥]

لأن القرآن ليس علمَ إنسانٍ عاجزٍ، بل هو علمٌ ربَّانيٌّ أكرمَ الله به البشرَ ووضع فيه قواعد العلوم الدنيوية كلها. والله تعالى صاحب صفة الكلام هو الذي خلق الإدراك الذي يوصِلنا إلى الاكتشافات العلمية.

والأنبياء والأولياء كلهم يأخذون علومهم من حقيقة القرآن. وكما أن الإنسان نموذجٌ مصغَّر للعالَم، فإن القرآن كتابٌ إلهيٌّ يحيط بالعوالم كلها. لذلك فإن العلوم التي احتواها القرآن دائمةٌ وصالحةٌ لكل زمان ومكان.

وقد أدرك أهل الله هذه الحقيقة، فكانت كل كلمة بل كل حرف في القرآن الكريم مليئًا بالأسرار، وكانت علوم هؤلاء العظماء وكتبهم تجليًّا من نور القرآن الكريم.

اللهم زيِّنا بعلم القرآن، وأحيي قلوبنا بالتفكر فيه وبمحبة رسولنا الكريم ﷺ حتى نأتيك بقلب سليم.

اللهم ارحمنا بلطفك وكرمك، واحفظنا من الغرق في مستنقع الشهوات! اللهم أكرمنا بفهم الحقائق، واملأ قلوبنا بمحبتك. آمين!

١٠٥ الإسراء: ٨٨.

القرآن والتفكر

-٣-

ما أعظم الحقائق التي يبلغها القلب بعد أن يقوى التفكر والإحساس بالقرآن الكريم، فلو لم يكن هدي القرآن الذي لا ينضب، لصار تفكرنا وأحاسيسنا كالبذور الجافة المحرومة من التربة الخصبة التي تنبت فيها.

القرآن والتفكر

-٣-

لقد كلَّف الله ﷻ الإنسانَ بالعبودية له، وسخَّر له كلَّ ما في السماوات والأرض، فهو القائل في كتابه العزيز:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[106]

وقد وهبَ للإنسان نعمةَ التفكر كي يعيش ويشعر بالعبودية لخالقه كما ينبغي. وأكرمه بإرسال الأنبياء يقتدي بهم في كل أحواله كي يؤمن إيمانًا حقيقيًّا ويصل إلى مرضاة ربه سبحانه وتعالى.

وبلغَ المدد الإلهي بإرسال الأنبياء ذروتَه مع بعثِ نبي آخر الزمان ﷺ، وبالقرآن الكريم الذي نزل عليه.

لهذا نعجز عن شكر الله كما ينبغي، فهو الذي أنعم علينا بنعم كثيرة، وفضَّلنا على كثير من خلقه بأن جعلنا من أمة خير المرسَلين أمةً محمد ﷺ، وجعل كتابنا القرآن الكريم نهتدي به. وما أعظم الحقائق التي يبلغها القلب بعد أن يقوى التفكر والإحساس بالقرآن الكريم، فلو لم يكن هدي القرآن الذي لا ينضب، لصار تفكرنا وأحاسيسنا كالبذور الجافة المحرومة من التربة الخصبة التي تنبت فيها.

---

١٠٦ الجاثية: ١٣.

وليس ثمة نعمة أكبر من إدراك عظمة الإكرام الإلهي الذي تحقق بفضل القرآن الكريم. وتظهر هذه الحقيقة بوضوح مع رؤية حياة أولئك الذين يعيشون بعيدين عن هدي الله في القرن الواحد والعشرين. فإذا أردنا أن نعلم عظمة نعمة كوننا من أمة محمد ﷺ، فيكفينا عبرةً وجود الملايين من المنتسبين إلى أديان مُحرَّفة، ووجود البوذيين الذين يعبدون تماثيل بوذا المصنوعة من الحجارة، والهندوسيين الذين يعبدون البقرة ويقدسونها وهي حيوان عاجز، ومليارات البشر الذين يؤلِّهون مخلوقات عاجزة. غير أن المؤسف أشد الأسف أن نجد أولئك الذين نالوا فرصة الإيمان قد صُمَّت آذانهم عن سماع صوت الحق الهادر لاتِّباعهم أهواء أنفسهم وغوائلها. وقد وصفَ المولى ﷻ أمثال هؤلاء الذين نجدهم في كل عصر بقوله:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[١٠٧]

لذلك يأمر عباده المؤمنين أن يتحلوا بالفراسة والبصيرة حينما يتلون آيات القرآن الكريم، إذ يقول:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمْيَاناً﴾[١٠٨]

وللمؤمن في هذا العصر واجبان:

---

١٠٧ البقرة: ١٨.

١٠٨ الفرقان: ٧٣.

أولهما: أن يشكر الله تعالى على قيمة النعم التي نتنعَّمها بها.

أما الآخر: فدعوة المحرومين من إدراك الحق والحقيقة بأسلوب اللين ورأفة. يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[١٠٩]

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ﴾[١١٠]

ولو أُريد لجهود الدعوة والتبليغ أن تكون مثمرة بالقدر المطلوب، فلا بد أن يتخلق المرء بأخلاق القرآن ويتعلق قلبه وعقله أكثر من أي وقت بماء جاء في القرآن الكريم. وهذا يعني أنه ينبغي أن نسعى لفهم محتوى القرآن الكريم أكثر من سعي علماء الطبيعة لفهم الأمور المادية.

ومن الواضح أن علوم الماديين كلها لم تستطع إلا تحقير البشر وتأكيد فقرهم وذلهم، وثمار هذا الوهم قد نشأت من وزن حقيقة الإنسان بالعقل فقط. أما القرآن الكريم فقد نبَّه الإنسانَ في مواضع كثيرة بعبارة: «**يا أولي الألباب**» أو «**أفلا تعقلون**» أو «**أفلا تتفكرون**» إشارةً إلى العقل الذي اكتسب قيمته بالوحي.

---

١٠٩ آل عمران: ١٠٤.

١١٠ فصلت: ٣٣.

إن القرآن الكريم الذي يأتي قبل العلوم كلها قد بيَّنَ حقيقةَ أنه خير المصادر في إرضاء الفكر البشري وذلك بما يكشفه من جديد مع مرور الوقت إلى قيام الساعة.

لذا علينا ألا نهملَ مسؤوليتنا في السعي لإيضاح كمال القرآن الكريم للناس. فإننا إن لم نستطع أن ننشر حقيقة القرآن التي أيدتها الكشوف العلمية آلاف المرات، مع وجود الوسائل المتنوعة التي يوفرها العصر الذي نعيش فيه، فإن الغافلين الذين يعيشون في أنحاء الدنيا سوف يخاصموننا في حضرة الله تعالى يوم القيامة، وهذا ما يزيد مسؤوليتنا، لأن كثيرًا من الكشوف العلمية في عصرنا الحالي توفِّر تسهيلات كبيرة مقارنةً بالعصور الماضية في موضوع إيضاح حقائق الإيمان التي هي غيب في معظمها وإثباتها.

وبعض الحقائق في الكون التي تحتل مكاناً في القرآن سيتم فهمها وإدراكها عندما يصل المستوى العلمي إلى فَهْم قدرها وعظمتها؛ أي إن القرآن يعرض حقائقه إلى قيام الساعة وفقًا لإدراك البشر ومستواهم العلمي في كل زمان، ولا شك أن ذلك من رحمة الله بهم.

فالحقائق العظيمة مثل الخصائص المميزة في فطرة الإنسان والكشوفات الطبيعية الكبرى، والنظام الدقيق البديع في السماء والأرض والذي يدهش العقل، لو وُضعَت صراحةً في القرآن الكريم قبل أن يكشفها العلم، لما صدَّقها الناس في القرون السابقة ولما نالوا شرف الإيمان، لأنها كانت تفوق مستواهم العقلي.

والقرآن الكريم من هذا الجانب كالأرض الطيبة تُخرِج كنوزها كلما حفرنا فيها، فحسبنا أن نُعمِل عقولنا ونتدبَّر آياته ونقرأها بعيون قلوبنا.

إن التفكر بقلب واعٍ إنما هو السبيل الوحيد لمشاهدة الحِكَم والأسرار والوصول إلى أعماق الأحاسيس بقراءة كتاب الكون. والله سبحانه وتعالى يدعو إلى هذا التفكر في قوله:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[111]

وقوله تعالى:

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[112]

ويبدأ الإيمان الحقيقي بوعي القلب وزيادة شهية التفكر والمحبة.

إن ما يجعل الإنسان إنسانًا هو إعمال القلب والعقل؛ وقد يكون الإنسان ناجحًا في الدنيا إذا أعملَ عقله ونسي قلبه والروحانيات،

١١١ الحج: ٤٦.
١١٢ الرعد: ٤.

لكن إذا أراد أن يكون مؤمنًا صادقًا حقيقيًّا، فلا بد أن يلين ويرقَّ قلبه، عندها يتحدث إليه كل شيء بلسان حاله.

ولو أبصرَ الأعمى منذ ولادته، ورأى الكون حوله، لحارَ ودُهِشَ مما يرى من بحار وأشجار وطيور، ولأُعجبَ من خلق الله. وما أشدَّ غفلة الإنسان الذي يرى كلَّ يوم أمثلةً كثيرة لإبداع الله، فلا يقف عندها، ويتفكَّر فيها، فمَثَله كمثَل الصخور الصلدة التي تتساقط عليه قطرات المطر المباركة فلا تستفيد منها شيئًا.

والله ﷻ يدعونا إلى الوعي والتدبر إذ يقول في كتابه العزيز:

﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[113]

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[114]

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾[115]

---

١١٣ الجاثية: ٥.

١١٤ يس: ٣٧-٤٠.

١١٥ العنكبوت: ٤٣.

وكلما ازداد الإنسان تفكرًا وتدبرًا في حياته، زادت محبَّته لله سبحانه وتعالى ونال السعادة في الآخرة، ولنا في الأنبياء والأولياء والصالحين عبرةً في التفكر في الكون. ولا بد أن نعلم أن في فطرة الإنسان قدرةٌ على معرفة الله بالقلب، وحاجةٌ قوية للإيمان والتعلق بربِّه.

وإذا أصابَ الغافلين ضرٌّ أو كانوا في أزمة من أزمات الحياة، وبقوا وحيدين بلا مأوى ومسند، تراهم يلجؤون إلى الله تعالى بالفطرة، ويشعرون بحاجة إلى المدد الإلهي، وذلك نتيجةٌ طبيعيةٌ للغاية من خلقهم. لكن الذين أخمدوا هذه الفطرة الطبيعية، ولم يروا مظاهر قدرة الله تعالى وإبداعه العظيم في كونه، ولم يعتبروا مما وجدوا في حياتهم، وظلَّت الغشاوة على أبصارهم، فبئسَ ما سيلقونه غدًا يوم القيامة، ويقول المولى جل جلاله فيهم:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[116]

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[117]

ولا بد أن نتعلم القرآن الكريم من الصالحين من المعلمين المملوءة قلوبهم بمحبة الله، لأنهم يدفعون المتعلِّمين إلى تدبر

---

١١٦ الحج: ٤٦.

١١٧ الإسراء: ٧٢.

آيات الله ﷻ. وقد سُئِلَ النبي ﷺ: مَن أحسنُ الناس قراءةً، فقال:

«الذي إذا سمعت قراءته رأيت أنه يخشى الله»[118]

أما القراءة التي لا تنزل من الحلق إلى القلب، فإنها لا تستطيع أن تحمل الإنسان إلى آفاق التفكر في آيات القرآن الكريم. فلا بد أن نصغي السمع إلى التنبيه النبوي في قول رسول الله ﷺ:

«يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» [119]

فإذا كنا نرغب في تجنب هذه المصيبة، فعلينا أن نسعى لننشغل بالقرآن الكريم أكثر، ونتدبَّر آياته، ونفهم معانيها، ونتخلق بالأخلاق التي أمرَ بها القرآن، فهو يدعو المؤمن دائمًا إلى التفكر والتدبر:

﴿ ...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[120]

والحق أن الله تعالى يدعونا في القرآن الكريم إلى التفكير في دلائل وجوده ﷻ، وفي الحكم العميقة في النعم التي منحنا إيانا، ويلفت النظر إلى اختلاف لغات البشر وألوانهم، فيقول:

---

١١٨ عبد الرزاق، مصنف، ج٢، ص٤٨٧.

١١٩ البخاري، فضائل القرآن، ٣٦.

١٢٠ النحل: ٤٤.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[121]

فاللغة التي تتحدث بها أمّةٌ من الأمم لم تُنشِئها لجانٌ مختلفة من تلك الأمة، وليست كلماتها ولا قواعدها ثمرة جهود أبنائها؛ فبعض اللغات تبدأ جملتها بالفعل، وبعضها تبدأ بالفاعل وتنتهي بالفعل، وليس هذا الاختلاف من اختيار البشر، بل هبةٌ من الحق ﷻ. وإلى جانب ذلك جعل الله سبحانه وتعالى ألوان الناس وأعراقهم مخلتفة، وفي ذلك حِكَمٌ كثيرةٌ؛ فالألوان نتيجةٌ للجغرافيا التي يسكنها الإنسان، والأعراق إبداعٌ في الخلق، وليس ذلك إلا من أجل تعارف البشر بسهولة، لا من أجل أن يكون عرقٌ فوق عرق، إذ ثمة أخيار وأشرار في كل عرق، والمهم هنا التقوى، ويبيِّن المولى ﷻ هذه الحقيقة في قوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[122]

وقد حصرَ الله ﷻ الوحدانية في ذاته، وخلق المخلوقات أزواجًا تكمل بعضها بعضًا. وانتقلت الحياة الأسرية التي بدأت في الجنة بآدم عليه السلام وزوجه حواء إلى الأجيال اللاحقة بقانون الزواج

١٢١ الروم: ٢٢.
١٢٢ الحجرات: ١٣.

الذي وضعه الله تعالى، وبلغت الكمال بدين الإسلام. فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[123]

وجعل الحق ﷻ البركةَ في النكاح لأمة محمد ﷺ، وجعل الزواج تحت ظلال الكتاب والسنة جنةَ السعادة في الحياة الدنيا.

وثمة دروس وحِكَم مخفية كثيرة في الزواج الذي يعد التقاء شخصَين لا يألف أحدهما الآخر، وتحاببهما بصورة تأخذ بالألباب. وإنه لمِن الأمور التي تلفت الانتباه وتدعو إلى التفكر أن نرى شابَّين يرتبط قلب أحدهما بالآخر بالرحمة والمحبة التي منَّ الله بها عليهما، وأن نراهما يعيشان في ألفة وطمأنينة بعد أن غادر كلٌّ منهما البيت الذي تربَّى فيه.

إن في الإنسان طبعًا يميل إلى المجادلة والتردد في قبول الحق، وذلك امتحان من الله له، لذلك نجد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة تليق باختلاف مشارب الناس ومسالكهم، وفي ذلك يقول الله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[124]

---

١٢٣ الروم: ٢١.

١٢٤ الكهف: ٥٤.

والقرآن يدعو الإنسان إلى التفكر بلفت انتباهه إلى دقائق خلقه:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾[125]

ويشير إلى حقيقة أن في فطرة الإنسان ميلًا إلى التقوى والفجور:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[126]

ويعرض القرآن الكريم في موضع آخر قدرةَ الله ﷻ على الإحياء مرة أخرى، وعجزَ الإنسان، والحقيقة التي ينتظرها في آخرته:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[127]

ويذكِّر الإنسان أن الزمن نسبي:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[128]

إن كل هذه الآيات التي تدعو الإنسان إلى التفكر الدائم توضح أن التفكر الذي هو جهد عقلي وقلبي أمرٌ قد أَمَرَ الله به. وبيَّن رسول الله علو شأن التفكر في قوله:

---

١٢٥ يس: ٦٨.

١٢٦ الشمس: ٧-١٠.

١٢٧ يس: ٧٧-٧٩.

١٢٨ النازعات: ٤٦.

«ولا عبادة كالتفكُر».[129]

حتى إنه يمكن القول أن هذا الحديث يشير إلى أن التفكُر ضرورة قبل العبادة، لأن فهم أهمية العبادة والأعمال الصالحة لا يكون إلا بالتفكر.

ولا شك أن التفكر الذي أشارت إلى أهميته آيات كريمة وأحاديث شريفة كثيرة لا حصر لها قبل ألف وأربعمئة عام قد زادت أهميته في عصرنا الحالي. ويبقى قليلًا مهما قلنا حول وجوب أن نكون فاعلين في أمر الحث على الخير وتبليغ الحق، من أجل أن نبرأ من المسؤولية في هذا الشأن.

وما ينبغي لنا أن ننسى أنه لا يكفي أن نسمع صدى تلاوة القرآن بآذاننا فقط، والنظر إلى حقائقه نظرة سطحية؛ بل لا بد أن نطيع أوامره المباركة التي توضِّح لنا طرق النجاة في الآخرة. لأن المؤمن يجاهد شهوات نفسَه دائمًا بروحانية القرآن الكريم.

فيا رب اجعل حياتنا حياةً قائمةً في روحانية كتابك العزيز، واجعل القرآن حجةً لنا لا علينا، وارزقنا اتباع أوامره واجتناب نواهيه يا رب العالمين! آمين!

١٢٩ المتقي، كنز العمال،١٦/ ١٢٠.

التوبة والبكاء

تُب إلى الله، وادْعُ بقلب منكسر وعين نديَّة! فالزهور تتفتح في الأماكن المشمسة الرطبة!

(مولانا جلال الدين الرومي)

التوبة والبكاء

سألَ خيَّاطٌ يومًا أحدَ الصالحين عن معنى حديث رسول الله ﷺ:

«إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[130]

فقال الرجل الصالح: نعم هو كما قال رسول الله ﷺ، هل لي أن أعرف ما مهنتك؟

فقال له: أخيط الثياب.

فسأله: ما أسهل شيء في الخياطة؟

فقال: قصُّ القماش.

فسأله: منذ متى وأنت تعمل في هذا العمل؟

فقال له: منذ ثلاثين سنة.

فسأله: عندما تبلغ روحك الحلقوم، هل تستطيع قص القماش؟

فقال له: كلا، لا أستطيع.

فقال الرجل الصالح: أيها الخيَّاط، إذا كنت لا تستطيع أن تعمل عملاً كنت تعمله وتمارسه وتتقنه لثلاثين سنة، فكيف يمكن عند لحظة الموت أن تتوب وأنت لم تتب ولا مرة في عمرك؟ فتُب اليوم وأنت في حال القوة، وإلا فلن يكون لك نصيب من الاستغفار

١٣٠ الترمذي، الدعوات، ٩٨.

وحسن الخاتمة عند الاحتضار، ألم تسمع قولهم: «**بادر إلى التوبة قبل الموت**»[١٣١]؟ فتاب الخيَّاط توبةً نصوحًا.

فنفهم من هذه الحادثة أن مزالق الشهوات في الدنيا كثيرة يتعرَّض لها العباد، وأخطرها تأخير التوبة النصوح دائمًا، مع أن التوبة هي طوق النجاة في هذه الدنيا. يقول رسول الله ﷺ:

«ألا أدلكم على دائكم ودوائكم، ألا إن داءكم الذنوب ودواؤكم الاستغفار».[١٣٢]

لإن الاستغفار الذي يعدُّ أمرًا مهمًّا في الاستقامة وإحياء القلب إنما هو الوسيلة الوحيدة للتخلص من الأدران المعنوية. ولا بد من التوبة التي ترفع الحُجب التي بين العبد وربه من أجل الأعمال الصالحة؛ لذلك على العبد أن يتجاوز العوائق كلها، وبذلك يكون القلب جاهزًا لبلوغ مقصوده. وطرق التصوف كلها تبدأ بالاستغفار في أوراد الأسحار من أجل الترقي المعنوي.

وكانت التوبة الأولى توبة سيدنا آدم عليه السلام وفي تلك التوبة دعا وزوجته ربَّهما قائلَين:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[١٣٣]

---

١٣١ المناوي، فيض القدير، جـ٥، ص٥٠.

١٣٢ الديلمي، الفردوس، جـ١، ص١٣٦.

١٣٣ الأعراف: ٢٣.

وصار هذا الدعاء عبارة استغفار لذريته التي ستأتي من بعده إلى يوم القيامة.

ويُقَسِّم أهل الله التوبة إلى ثلاثة أنواع:

١. توبة العوام، وهؤلاء يتوبون من ذنوبهم.

٢. توبة الخواص، وهؤلاء يتوبون من الغفلة.

٣. توبة خواص الخواص، وهؤلاء يتوبون لكي يرتقوا في درجات القرب من مرضاة الله تعالى.

لكن الإخلاص والصدق شرطان لا بد منهما في التوبة، فكثير من أهل الله يتوبون من توبتهم السابقة؛ أي لا بد من الاستعاذة بالله تعالى من التوبات التي تحتاج إلى توبة، ولا بد من نيل السر في قوله تعالى: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾. لأن النفس والشيطان عندما لا يجدان طريقًا لخطف القلب، يظهران في صورة الحق، ويصبح كل منهما معلمًا يرشد إلى الخير والمحاسن. وهكذا يسقط العبد في حبائلهما وتمسي توبته هباءً منثورًا. والرجوع عن التوبة في كل مرَّة آفةُ الآفات التي تهلك العبد في حياة الآخرة، يقول الله تعالى:

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[134]

١٣٤ الإسراء: ٨.

لأن الذي يرجع عن توبته دائمًا يصبح آلة في يد الشيطان، فإنه لو تاب في أي وقت، فإن الشيطان أو الغافلين المتشيطينين يفسدون توبته في كل مرة بقولهم: «ويحك! تبت؟!».

لذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾[١٣٥]

وقد جاء في كتاب الحديث (الجامع الصغير) للإمام السيوطي أن المَلك المُكلَّف بكتابة الذنوب لا يكتب الذنب على المذنب إلا بعد مضي ست ساعات، لعلَّ المذنب يتوب. ولهذا لا يجب القول: «إنني لم أستطع أن أحافظ على توبتي، واقترفتُ الذنب مرة أخرى، لهذا عليَّ ألا أتوب».

بل على المُذنب الاستغفار دائمًا، لأن الله تعالى قد يكرمه بألا تفسد توبته مرة أخرى، ولكن عليه أن يعلم أن التوبة تتحقق بالندم الشديد، والعزم على عدم ارتكاب الذنب مرة أخرى. ومن أجل ذلك يحذِّرنا ربُّنا ﷻ بقوله:

﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾[١٣٦]

وحديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه:

---

١٣٥ التحريم: ٨.

١٣٦ لقمان: ٣٣.

«**إنِ التوبة من الذنب الندمُ والاستغفارُ**»[137] يشير إلى التوبةِ التي لا يعقبها التفكير في الذنب مرة أخرى.

ويبيِّن هذا الحديث الشريف ضرورة أن تبدأ التوبة بالندم، وهذا يعني أن البكاء يطهِّر أدران الذنوب.

ويُروَى أن أحد المذنبين أراد أن يتوب وشعر بالندم، فأُعطيَت له قائمة فيها ذنوب كثيرة وقيل له: «اقرأ». فبكى هذا المذنب أمام تلك القائمة حتى ما عاد يرى ما كُتِب فيها لشدة بكائه. فكانت دموعه الصادقة تلك وسيلةً لتطهير ذنوبه.

فثمة ذنوب تطهِّرها آلاف القطرات من الدموع، وقد تطهِّر قطرةٌ واحدةٌ من الدموع آلاف الذنوب.

فالبكاء ينبوع توبة للذين يدخلون بستان المحبة الإلهية، فهو يطهِّر الذنوب، وهو تعبير عن شكر الله ﷻ. والبكاء أمل، فطوبى للذين يستطيعون البكاء حين تنقطع الآمال كلها.

وكل دمعة من تلك الدمعات للذين يشاهدون العالم بدموع صادقة تشبه مرايا تعرض ألف بحر وبحر، لأن كل ذرة منها تعظيم وإكبار للأسرار الإلهية. وبالبكاء تُفهَم الحِكَم، لأنه لغةٌ تحمل من المعاني ما لا تحملها الكلمات، وبهايطلب العبد من ربِّه تعالى أشياء لا يتخيَّلها؛ لذلك يجد العذابُ في الحب العزاءَ والسلوى عند ينابيع الدموع، ويستريح على شواطئها الغرباء البائسون.

---

١٣٧ أحمد، المسند، جـ٦، ص٢٦٤.

وقد وردَ في الحديث الشريف:

«**عينان لا تمسُّهما النار: عينٌ بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**»[١٣٨]

ويوضِّح مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله كيفية تطهير الذنوب بالتوبة والبكاء بالمثال التالي:

«عندما يتعكر صفو الماء ونقاؤه، يضطرب ويقلق مثلنا، فيبتهل إلى الله تعالى ويتضرع، فيجعله الله تعالى يتبخر ويُرفَع إلى السماء، فيمرُّ على طرق متنوعة حتى يتطهَّر، ثم يُنزِله الله إلى الأرض مطرًا أو ثلجًا أو برَدًا، ثم يجعله يصبُّ في بحر واسع».

ولا شك أن هذه الأمثلة توضِّح عِظَم محبة الله تعالى ورحمته بعباده المُذنبين الذين يريد أن يُنجيَهم. فحينما تجتمع شمس الندامة مع ماء التوبة في القلوب التي أصابها طين الذنوب، يرفع الله تلك القلوب إلى السماء، ويطهِّرها من جميع الأدران والشهوات النفسية، ثم يجعل أصحابها يسيرون في الأرض أشرفَ المخلوقات؛ وأكثر ما تتجلى هذه الأحوال في الصلاة، لذلك قيل: إن الصلاة «**معراج المؤمن**».

غير أن الإنسان كثيراً ما يغفل عن حقيقة ما ذكرنا هنا، وتلهيه الدنيا ويضحك بدلاً من أن يبكي، لذلك يقول الله ﷻ في كتابه الكريم:

١٣٨ الترمذي، فضائل الجهاد، ١٢.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾[139]

ويقول في آية كريمة أخرى محذِّرًا:

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[140]

أي إن الله تعالى يريد من عبده تطهير الذنوب بالتوبة والبكاء. ويبيِّن مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله أهمية البكاء بقوله:

«عندما تبكي الشمعة تنير أكثر، وتخضرُّ أغصان الأشجار ببركة دموع السُّحب وحرارة الشمس؛ أي لا بد من الحرارة والماء لنمو الثمار».

«ولا بد كذلك من السُّحب والبرق لقبول التوبة؛ أي لا بد من دموع العين وحرقة القلب».

«فإذا لم تقدح شرارة القلب، ولم تَسكُب سُحب العين أمطارها، فكيف تُطفَئ نيران غضب النفس ولهيب الذنوب؟ وكيف يضيء النورُ الإلهي القلبَ؟ وكيف تفيض الينابيع المعنوية؟ وكيف يخضل البستان دون أن تهطل الأمطار؟ وكيف يتعاهد البنفسج مع الياسمين؟»

«دعِ الطبيعة تبكي وتبكي، فالأرض تجف إذا ابتعد عنها الماء، والمياهَ التي تكون بعيدة عن الأنهار والجداول، تصفر وتتعكر وتتلوث وتسوَدُّ».

---

١٣٩ النجم: ٦٠-٦١.

١٤٠ التوبة: ٨٢.

«وعندما تُحرَم الحدائق والبساتين الخضرة مثل الجنات من الماء، تصفر أوراق أشجارها وتذبل وتجف وتتساقط، وتصبح وطنًا للأمراض».

يقول رسول الله ﷺ:

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»[١٤١]

ولا يستطيع دخول جنة العفو إلا أهل القلوب السليمة الذين يطهِّرون قلوبهم بذرف الدموع، لذلك فإن الأنبياء والأولياء والصالحين والصادقين يلجؤون إلى الله دائمًا في السرَّاء والضرَّاء، والفرح والترح، وهم في حال مناجاة لربهم. ولا يمكن لعبد أن يستغني عن الاستغفار والتوبة، حتى الأنبياء عليهم السلام لوقوعهم في الزلَّات. فالتوبة والاستغفار أعظم الوسائل تأثيراً في نيل مرضاة الله، لأنهما في الحقيقة شعور بالندم الشديد والالتجاء إلى الله عز وجل.

والتوبة والدموع التي يريدها الحق عز وجل من عباده بالمحن والشدائد التي يبتليهم بها إنما هي تجارة أبدية، والذين يدركون هذه الحقيقة لا يشتكون من أي مصيبة تصيبهم، بل تكون لهم فوزًا عظيمًا، ومن هؤلاء مولانا جلال الدين الرومي الذي يقول:

«إن الله تعالى يأخذ منك بضع دمعات في هذه الدنيا، ولكنه يُنعِم عليكَ بأنهار كثيرة في الجنة. ويأخذ منك استغاثات وآهات مملوءة

١٤١ البخاري، الرقاق، ٢٧.

بالمحبة والألم، ويعطيك بدلًا عنها مئات من المراتب العالية المعنوية ومقامات لا يمكن بلوغها».

لكن علينا أن نعلم أن البكاء ليس واحدًا، بل ثمة فروق كثيرة بينها، فكثير من الأنّات الكاذبة المصطنعة إنما هيَ غفلة وخداع.

يقول سفيان الثوري رحمه الله:

« البكاء عشرة أجزاء تسعة لغير الله وواحد لله فاذا جاء الذي لله في السنة مرة فهو كثير».

وقد رُويَ أن امرأة دخلت على شريح القاضي وعنده الشعبي تلميذه، فأسبلت دموعها، فقال الشعبي لشريح: أراها مظلومة. فقال له: يا شعبي، إن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون.

ولا شك أن هذا البكاء مرفوض، وكذلك البكاء الذي يعبِّر عن الذِّلَّة والمسكنة. فالدموع التي تُسكَب في مثل هذا النوع من البكاء دموعٌ لا قيمة لها يذرفها الخاسرون الذين لم تعرق جباههم حين كان ذلك لزامًا. يقول الشاعر التركي محمد عاكف أرصوي محذِّرًا في هذا الشأن:

اتركوا الحزن، اتركوا التأوُّه

لو كان يفيد البكاء، لنهض أبي من قبره

ما الفائدة من الدموع إذا لم يسل العرَق

إن البكاء الذي نقصده هو البكاء الذي يريده الله تعالى، لا البكاء الذي يحطُّ من قدْرنا أمام الصديق والعدو؛ هو البكاء الذي يسمو بنا ويحيي قلوبنا. ينبغي أن تحمينا دموعنا من الغرق والانزلاق، وتحملنا إلى المنزل المقصود، مثل البحر الذي يحمل القشَّ ويحميها من الغرق في الأعماق؛ دموعٌ تنبع في الأصل من القلب لا العين، وتُعرَضُ على الخالقِ لا الخلق.

وثمة مسألة هامة أخرى في هذا الأمر، وهي أن البكاء ينبغي ألا يكون بكاء شكوى، فالشكوى تعني حال عدم الرضا، وهذا ليس مقبولاً البتة؛ لأن الشكوى تحمل الإنسان إلى العصيان، وتضيع رأس ماله كله، وهذا ما يُنزِل غضب الله ﷻ. إن البكاء الذي نقصده هنا ليس لجلب غضب الله بل لإرضائه والتطهر من الذنوب والآثام.

وصفوة الكلام أنه عندما يأتي الموت، يستيقظ النائمون، أي يفتحون عيونهم ويرون الحقيقة. غير أن رؤية الحقيقة لحظة خروج الأنفاس الأخيرة- كما كان حال فرعون- لا خير منها ولا نفع.

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«يبكي العقلاء قبل الموت، أما الجهلاء فيتأسَّفون ويضربون رؤوسهم في نهاية المطاف؛ فانظر إلى نهاية الأمر في بدايته، ولا تكن من النادمين يوم القيامة».

«وليكن في حال الطائر لكَ عبرة، إذ رأى حبات القمح في فخِّ الصياد، فحارَ وذُهِل، فأكلَ حبات القمح بلا وعي، غير أنه سقط في

الفخ. فما فائدة قراءة سورة يس وسورة الأنعام في تخليص نفسه من هذه المصيبة؟ وما فائدة البكاء والأنين والتأوه إذا حلَّت النازلة؟ إن البكاء والأنين كان لزامًا قبل السقوط في الفخ».

ومثال لما ذكرنا أن سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما سمع أن قوم لوط سيهلكون لشهواتهم النفسانية التي أنزلَت عليهم غضبَ الله، أراد أن يدعو لهم بالرحمة لجهله بشدة تلك المعصية، فقالت له الملائكة: «لقد مضى وقت الدعاء».

إن الإنسان لا يعلم زمان الأجل ولا مكانه ولا هيئته؛ لذلك لا بد أن يدرك القلب معنى قول: «**موتوا قبل أن تموتوا**»، وأن يكون مستعدًا كلَّ لحظة للقاء الله عز وجل؛ وإلا كانت لحظة خروج الأنفاس الأخيرة لحظةً يفهم فيها المرء خسرانه ويقول فيها: «يا ويلاه! إلى أين المصير؟».

يقول المولى عز وجل في كتابه العزيز:

﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾[١٤٢]

لذلك فإن أعظم الأمور أهميةً للعبد إنما هو تزكية النفْس وتطهير القلب، وكل ما ذكرناه حتى الآن عن التوبة والبكاء إنما هو بابٌ لحال التزكية والتطهير. وبعد أن ندخل من هذا الباب، لا بد أن نعمل صالحًا. وبعد أداء الفروض والواجبات والسُّنَن وفقًا لآدابها،

١٤٢ ق: ١٩.

لا مناص من أداء حقوق العباد، وإرضاء الوالدين، والإنفاق لوجه الله تعالى، والعفو، والرحمة بالمخلوقات كلها. فالذي يتحلى بالعفو مثلًا هو أهلٌ للعفو الإلهي أكثر من غيره، أمَّا الذين حُرِموا من المحبة والرحمة ولم يصغوا السمع لأنَّات المظلومين والمساكين، فهُم الذين يسيرون في الأرض غافلين حيارى.

من أجل ذلك ينبغي للمرء أن يتوجَّه إلى الله تعالى في كل لحظة من عمره متحلِّيًا بفضائل الأعمال في جوٍّ من التوبة والبكاء.

فاللهم اقبلْ توبتنا، وتجاوز عن سيئاتنا، وارحمنا برحمتك فأنت أرحم الراحمين!...آمين!

الدعاء

كلما تكرر الدعاء، صار أحاسيس ثابتة في قلب المؤمن، وامتزج بشخصيته، وصار جزءًا منه؛ لذلك فإن أهل القلوب السليمة يعيشون في حال دعاء دائمًا.

الدعاء

إن الأنبياءَ الذين أُرسلوا رحمةً للعالمين وأولياءَ الله كانوا يتوجهون بقلوبهم دائمًا إلى الله تعالى في السراء والضراء، وكانوا يعيشون في جوٍّ من الرجاء والتوسل إلى الله ﷻ؛ فهم قدوةٌ لنا يعلِّموننا بأقوالهم وأفعالهم ضرورةَ أن نكون في حال مناجاة لله تعالى في أحوالنا كلها.

إن الالتجاء إلى الله تعالى قانون فطري وضرورة في العبودية، وكلُّ شيء في السموات والأرض في حال خضوع لقضاء الله صاحب القدرة المطلقة، وفي حال تضرع وابتهال له وذكرٍ بلسان حاله. وتسعى التربية الدينية الحقيقية إلى أن تغرس حال الدعاء في قلب المؤمن، لأن الدعاء هو مفتاح أعظم الأبواب للقلب.

فكلما تكرر الدعاء، صار أحاسيس ثابتة في قلب المؤمن، وامتزج بشخصيته، وصار جزءًا منه؛ لذلك فإن أهل القلوب السليمة يعيشون في حال دعاء دائمًا، لأن قلوبهم في حال خشية دائمة من التحذير الإلهي الذي يبيِّن أهمية الدعاء، والوارد في قوله تعالى:

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[١٤٣]

١٤٣ الفرقان: ٧٧.

فتحوُّل مشاعر التوسل والتضرع بالدعاء إلى حال دائمة في قلب المؤمن يؤسِّس رابطة معنوية بين الله تعالى والعبد، أما الدعاء في حال الوجد والشوق فهو لحظات تنزُّل الرحمة الإلهية إلى قلب الداعي.

إن المطلوب في الدعاء رحمةُ الله، لذلك لا بد أن يكون أول كلام يرتفع في الدعاء من القلوب إلى الله تعالى الاعترافُ بالعصيان والضعف والعجز. والدعاءُ هو أن نطأطئ الرأس بتسليم وسكينة في حضرة الله تعالى صاحب القدرة المطلقة متوجِّهين إليه بصورة تبيِّن إدراكنا لعجزنا. والحق أن بدءَ الدعاء بالاعتراف بالعجز والتقصير له تأثيرٌ عظيمٌ في جلب رحمة الله، وبذلك يُقبَل الدعاء. فحينما دعا سيدنا آدم عليه السلام وحواء اللهَ تعالى قالا:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[١٤٤]

وحينما دعا يونس عليه السلام ربَّه قال:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[١٤٥]

إن الدعاء الصادق الذي هو لغة القلب السليم وأجمل الكلام ينبع من المحبة، ويهب الأمل لليائس، ويواسي القلب المكسور.

---

١٤٤ الأعراف: ٢٣.

١٤٥ الأنبياء: ٨٧.

وإذا صاحبَ الدعاء إخلاصٌ وصدقٌ وبكاءٌ، فهو طلبٌ لرحمة الله.
وفي ثنايا الدعاء أسرارُ التسليم لله التي تُطمئِن القلب.

وأفضل مَن علّمنا الدعاءَ بأسلوب حياته إنما هو سيدنا رسول الله ﷺ. فهو الذي كان يقوم في الصلاة حتى تتورم قدماه، ويدعو الله تعالى مُقِرًّا بعجزه فيقول:

«اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[١٤٦]

وقد وصف أهمية الدعاء في أحاديث كثيرة منها قوله:

«الدعاء هو العبادة»[١٤٧]

«ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء»[١٤٨]

«مَن سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء في الرخاء»[١٤٩]

«إن ربكم تبارك وتعالى حيٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا»[١٥٠]

---

١٤٦ مسلم، الصلاة، ٢٢٢.
١٤٧ أبو داود، الوتر، ٢٣/ ١٤٧٩.
١٤٨ الترمذي، الدعوات، ١/ ٣٣٧٠.
١٤٩ الترمذي، الدعوات، ٩/ ٣٣٨٢.
١٥٠ أبو داود، الوتر، ٢٣/ ١٤٨٨.

«من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة، وما سئل الله شيئا يعني أحب إليه من أن يسأل العافية»[١٥١]

والحقُّ أنَّ دعاء الذين يزرعون البسمة في وجوه اليتامى، والذين يفرِّجون هموم المكروبين هو أكثر قبولًا من دعاء الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، ويستحقرون الضعفاء، ويعيشون بغفلة. ودعاء أهل الله الذين يذرفون الدموع الصادقة ليغفر الله ذنوبهم إنما هو الدعاء المقبول، لا دعاء المتكبرين الذين يرون أنفسهم أنقياء من الذنوب والآثام.

ويقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله في شأن قبول الدعاء: «تُب إلى الله، وادْعُ بقلب منكسر وعين نديَّة! فالزهور تتفتح في الأماكن المشمسة الرطبة!».

فنفهم من هذا الكلام أن النطق بالدعاء لا يكفي لقبوله، بل لا بد أن يكون الدعاء بين «**الخوف والرجاء**». وينبغي أن يضطرب القلب بالمعاني التي يحملها الدعاء. ولا بد للداعي من العزم على عدم ارتكاب الذنب مرة أخرى إذا كان يدعو الله ليغفر ذنوبه.

ودعاء المرء لأخيه بظهر الغيب مُستجَاب، وفي هذا يقول رسولنا الكريم ﷺ:

«ما دعوةٌ أسرعُ إجابةً من دعوة غائب لغائب»[١٥٢]

---

١٥١ الترمذي، الدعوات، ١٠١/٣٥٤٨.
١٥٢ الترمذي، البر، ٥٠.

ونجد الناس يطلبون الدعاء ممَّن يظنون أن دعاءهم مقبول، مع أن الذي يجعل الدعاء مقبولًا الإخلاصُ والصدقُ. وهذا يعني أن الدعاء الصادق الذي يدعو به المذنب لأخيه المسلم خيرٌ من دعاء الذي يظنه الناس أرفع درجةً عند الله من ذلك المذنب، إن كان دعاءً بلسانه لا بقلبه.

ولعلَّ في دعاء مولانا جلال الدين الرومي الصادر عن قلبه المليء بالرحمة والرأفة معانٍ عظيمة، إذ قال:

«يا رب، لو كان يأمل في رحمتك الصالحون فقط، فإلى مَن يلجأ المجرمون؟ ولو أنك تقبل عبادك الخواص فقط، فإلى مَن يذهب المجرمون ويتضرعون؟»

وإذا أذنبَ العبدُ، فهذا لا يعني أن الله تعالى لا يستجيب له، لذلك فإن الله تعالى وحده الذي يعلم بدعاء مَن يبلغ العبدُ مرادَه، فينبغي لكل واحد أن يدرك قيمة نيل الدعاء الصادق من أخيه المسلم مهما كان حاله.

وثمة مسألة أخرى في هذا الشأن لا بد أن نشير إليها، وهي أنه على المرء أن يحذر من أن يدعو عليه المظلومون والمنكسرة قلوبهم، مثلما يسعى لنيل دعائهم.

حينما أتمَّ السلطان السلجوقي علاءُ الدين كيقباد بناءَ إحدى القِلاع، طلبَ من بهاء الدين- والد مولانا الرومي- أن يرى القلعة وأن يبديَ رأيه فيها. فذهب بهاء الدين إلى القلعة، ورآها، ثم قال:

«تبدو القلعة جميلةً قويةً تستطيع أن تمنعك من كوارث السيل وهجمات الأعداء، ولكن ماذا صنعتَ لتواجه سهام دعوات المظلومين تحت حكمك؟ فسهام تلك الدعوات لا تدمِّرَ جدران قلعة مثل قلعتك فحسب، بل تدمِّر جدران الآلاف من القلاع، وتحيل الدنيا إلى خراب.

فحسبُكَ أن تبني أبراج قلعتك من العدالة والإحسان، وتجعل جنودك من الدعوات الصالحة، فيكونَ ذلك آمنَ لك من الأسوار، لأنك تكفل أمن الناس والحياة بأولئك الجنود».

فالنجاحات التي يحقِّقها المؤمنون والانتصارات والمكاسب إنما هي من بركة الدعاء الصادق، إضافة إلى بذل السعي والأخذ بالأسباب.

ونستطيع أن نجد أفضل الأدعية في القرآن الكريم الذي يعدُّ دليلَ هداية وسعادة أبدية لنا على قدر ما نحياه في هذه الدنيا. وقد ذكرَ ربنا I الدعاء في مواضع كثيرة في كتابه العزيز منها قوله:

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[153]

وقوله تعالى:

153 الأنعام: ٤٠-٤١.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[154]

والدعاء من أجل حسن الخاتمة من أهم الأدعية التي ما ينبغي أن ننساها البتة في هذه الحياة الدنيا التي هي بضاعة نجاتنا في الآخرة.

وطلب حُسن الخاتمة هو واحد من أهم الدعوات التي هي رأس مالنا الوحيد الذي ينجينا في الآخرة، والذي يجب ألا ننساه في تلك الحياة الفانية. يقول ربنا ﷻ في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[155]

إن المؤمن يسعى طوال عمره من أجل بلوغ حسن الخاتمة لحظةَ خروج الأنفاس الأخيرة، ذلك أنه لا أحد يأمن على نفسه في تلك اللحظة سوى الأنبياء عليهم السلام؛ وحتى أولياء الله كانوا دائمًا يحملون همَّ الأنفاس الأخيرة.

ومع أن الحال التي سيموت عليها الإنسان تظلُّ مجهولة، غير أنه لا تخفى على أحد حقيقة أن الإنسان يموت على الحال الذي عاش عليها في غالب الأحيان. لذلك علينا ألا نحيد عن الصراط المستقيم ونعيش ونحن نستغفر الله تعالى وندعوه كي نموت على الإيمان.

وكان من دعاء سيدنا يوسف عليه السلام:

---

١٥٤ الأعراف: ٥٥.

١٥٥ آل عمران: ١٠٢.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[156]

ومن دعاء الصالحين الذين أثنى الله تعالى عليهم:

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾[157]

ولنا في سحرة فرعون عِبَرٌ وعِظاتٌ كثيرة، إذ آمنوا بالله تعالى بعدما رأوا معجزة سيدنا موسى عليه السلام، ولم يهابوا عقاب فرعون وتهديده لهم، ولم يدعو الله تعالى في تلك اللحظات العصيبة أن ينجيهم مما هم فيه، بل دعوه أن يتوفَّاهم وهم مؤمنون.

وليس شرط قبول الدعاء استعمال الجمل المنمَّقة التي لا تنبع من القلب، بل تكون أداةً للرياء والتصنُّع ورفع الصوت، ولا الصيحات التي تعلو حتى عنان السماء؛ وإلا، لما قُبِل دعاء المريض الذي لا يكاد يصدر من فمِه إلا الأنَّات والآهات، ولا الضعيف الذي لا عون له ولا سند.

فتنميق القول في الدعاء والمغالات في اختيار الألفاظ يُضعِف جوهر الدعاء وروحانيته، فعن ابن سعد أنه قال: سمعني أبي وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة، ونعيمها، وبهجتها، وكذا، وكذا، وأعوذ بك من النار، وسلاسلها، وأغلالها، وكذا، وكذا، فقال: يا بني، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

---

١٥٦ يوسف: ١٠١.

١٥٧ آل عمران: ١٩٣.

«سيكون قوم يعتَدُون في الدعاء، فإياك أن تكون منهم، إنك إن أُعطيتَ الجنة أُعطيتَها وما فيها من الخير، وإن أُعِذْت من النار أُعِذْت منها، وما فيها من الشر».[١٥٨]

وقال النبي ﷺ في حديث آخر:

«إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنه معكم إنه سميع قريب»[١٥٩]

فالله تعالى لا يردُّ الدعوات الصادقة؛ وقد لا يُستجَاب لبعض الدعوات إذا لم توافق «**القدَر المطلق**». لهذا ينبغي للداعي أن يدعو دائمًا ولا يُظهِر الملل أو القنوط في أي وقت أبدًا، لأن أجر الدعاء حينها يكون قد أُخِّر ليوم الحساب.

ولا بد لصاحب القلب المتعلِّق بالدعاء أن يدرك أنه قد لجأ إلى أعظم باب، والقلوب التي تنتظر عند عتبة الرحمة تلك على أملٍ لا تسأم من الانتظار دهرًا، لأن الدعاء والبكاء رحمةٌ من الله تعالى، فهما مثل ينبوع سعادة تواسي القلوب المحزونة، وكالكوثر الذي كلما شربت منه القلوب التي تفيض بمحبة الله ﷻ، شعرت بالسرور.

وما ينبغي أن ننسى أننا لا نصل إلى شرف الإنسانية إلا إذا عفا الله تعالى عن ذنوبنا. وعلى كل مَن يبتغي الوصول إلى أسرار العفو

١٥٨ أبوداود، الوتر، ٢٣/ ١٤٨٠.

١٥٩ البخاري، الجهاد، ١٣١.

الأبدي عند الموت، ويودُّ التلذُّذ بالألطاف الإلهية، أن يسعى أولًا إلى إخراج عطر العفو من ورود حديقة الفؤاد بالدعاء الصادق.

اللهم إنا نسألك أن تُنزِل علينا شآبيب رحمتك وعفوك يا كريم! اللهم اجعل قلوبنا خزائن رحمة على مخلوقاتك لا تنفد كي ننال رضاك عنَّا، وانشر الأمن والأمان والخير والإحسان في بلاد المسلمين بدعوات عبادك الصالحين. آمين!

الدعوة إلى الحق والخير

-١-

علينا ألا ننسى الجهد الكبير الذي بذله رسولنا الكريم ﷺ – الذي تشرَّفنا بأن نكون من أمته– لكي يبلِّغ الناسَ الدعوة إلى النجاة في الآخرة. وعلينا أن نحاسب أنفسنا ونعلم كم نعيش سنَّته، وهل نحن أهلٌ لنكون شهداء الله في الأرض.

الدعوة إلى الحق والخير

-١-

إن الإنسان الذي لم تفسد فطرته وما فيها من ميّزات مثل العقل والإدراك والتفكر، إذا نظر بعين قلبه إلى هذا الكون الذي يعيش فيه، فلن يصعب عليه أن يدرك أنه لم يُخلق عبثًا. فالإنسان الذي خُلق لحِكَم وغايات لم يكن ليُترَك سدى في هذه الدنيا الفانية، ذلك أن الله تعالى يقول في القرآن الكريم:

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[١٦٠]

ويقول في موضع آخر:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[١٦١]

على الإنسان أن يفهم مجرى الحياة الذي يُعَدُّ عُمرُه جزءًا منه؛ أي يفهم الرابطة بين الإنسان والكون، والعلاقة بين المهد واللحد.

فتجليات قدرة الله تعالى ونظامه الذي يحكم هذا الكون تحمل أرباب العقول إلى الإقرار بوجود خالق مبدع حكيم؛ إلى إلى الإيمان به. وإضافة إلى ذلك أكرمَ الله تعالى البشر بإرسال الأنبياء إليهم كي يصلوا إلى أعلى درجات الإيمان.

---

١٦٠ القيامة: ٣٦.

١٦١ المؤمنون: ١١٥.

ولا ريب أن الرحمة من أعظم خصال نعمة الإيمان؛ فالرحمة كالنبع الذي لا يفتئ يفيض في قلب المؤمن، وهي أداة ثمينة تقرِّبه إلى مرضاة الله ﷻ، وهي ثمرة الإيمان التي تنقل الإنسان من الأنانية إلى الإيثار، فكلما نضج الإيمان في القلب، زادَ الإحساس بالمحرومين والإشفاق عليهم، وزادَ السعي لقضاء حوائجهم. فالمؤمن الحقيقي لا يجد الراحة ولا يكتفي بإيمانه إذا وجدَ حوله محرومًا من الهداية.

ولا شك أن الإنسان عابرُ سبيل في هذه الحياة الدنيا آيلٌ إلى الفناء، وإنكار ذلك يناقض العقل والمنطق والوجدان، كإنكار وجود الشمس بإغماض العين. فتنظيم الحياة على منهج تلك الحقيقة ضرورةٌ عقليةٌ ومنطقيةٌ ووجدانيةٌ.

ومن أعظم الواجبات الدينية والوجدانية التي تقع على عاتق المؤمن في رحلة الحياة أن يرشد المحتاجين باستعمال النعم التي بين يديه في سبيل ذلك لا حصرها بنفسه. فمن خير الأمور في الدنيا والآخرة وأعظمها ثوابًا عند الله تعالى دعوةُ الناس إلى الحق والخير والفضيلة والإيمان والأعمال الصالحة التي توصلهم إلى السعادة الأبدية، والوقوف بجانبهم لإبعادهم عن الآثام والذنوب، وبذل الجهد كي لا يقعوا في مساوئ الأخلاق ومستنقع الرذيلة وظلمات الكفر والضلال.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«من دعا إلى هُدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً. ومن دعا إلى ضَلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[١٦٢]

فما أعظم هذه البشارة النبوية التي تذكُر برَكة واجب الدعوة إلى الحق والخير، أما الذين يدعون إلى الضلالة فسينزلقون إلى وبال شديد وذنوب وآثام تتراكم يومًا بعد يوم؛ وبذلك تتضح أهمية واجب التحذير من السوء بالدعوة إلى الحق والخير.

وعلى كُلِّ مَن يريد أن يؤدِّي واجب التبليغ أن ينظر في نفسه أولًا، لأن أكثر الوسائل تأثيرًا في إرشاد الناس أن يكون الداعية مثالًا حيًّا للحق والخير والفضيلة والصدق؛ لذلك لا بد أن يكون الداعية على الصراط المستقيم، فإذا كان القلب مطمئنًا كان للتبليغ الأثر العظيم، ذلك أن أصحاب القلب المطمئن السليم حينما عاشوا مدركين حقيقة الدنيا والآخرة، ما عادوا يعبؤون بلذاذات الدنيا وزخرفها؛ لذلك تراهم يبلِّغون دين الله، لا ليصيبوا منفعة دنيوية أو غنيمة لأنفسهم، بل من أجل نيل رضا الله، وهذا من أخلاق الأنبياء والرسل.

---

١٦٢ مسلم، العلم، ١٦؛ أبو داود، السنة، ٦؛ الترمذي، العلم، ١٥.

وثمة في القرآن الكريم كثير من الآيات تشير إلى هذه الأخلاق النبوية، منها قوله تعالى:

﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[١٦٣]

ولنا هنا أن نشير إلى مصطلح «**الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر**»، فالله تعالى يقول في كتابه المبين:

﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١٦٤]

إن صوتَ الدِّين أي أوامر الله تعالى ورسوله ﷺ إنما هو القسطاس الوحيد الذي يفصل بين الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة؛ ومن أُولى واجبات المؤمن أن يُعلِي هذا الصوت.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى واجبَ التبليغ بأنه «**جهاد كبير**» إذ قال:

﴿**فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً**﴾[١٦٥]

لقد نزل الأمر بالجهاد الكبير والمسلمون في مكة لا يملكون القوة الكافية لمحاربة المشركين، أي حين عمَّ الجهل، وانتشر

١٦٣ الشعراء: ١٨٠.

١٦٤ آل عمران، ١٠٤.

١٦٥ الفرقان، ٥٢.

الفساد، وزاد الهرج والمرج، وحكَم الكفر والإلحاد؛ فكان زمن نزول هذه الآية دليلًا على أهم معاني الجهاد، ألا وهو تبليغ كتاب الله. لأن المؤمنين في ذلك العهد لم يكن لديهم القدرة على قتال الظالمين والأعداء، ولا العُدَّة للقتال. لم يكن في أيديهم أي شيء سوى كلام الله تعالى، فكان تبليغُ القرآن الكريم الوسيلة الوحيدة للجهاد الكبير المذكور في الآية الكريمة.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسَّلطهُ على هَلكَته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[١٦٦]

وأفضل صور الانشغال بالقرآن الكريم تعلُّمه، وتعليمه، والتخلق بأخلاقه، وإتيان أوامره واجتناب نواهيه، وتبليغه بقول ليِّن. وإذا أدرك المؤمن قيمةَ الانشغال بالقرآن وعظته، كان للدعوة بالقرآن أثرًا جميلًا كما ينبغي.

وخيرُ مثال لما ذكرنا حادثة إسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ خرج يريد قتل رسول الله ﷺ، فأسلمَ في دار أخته بعد أن سمع آيات القرآن تُتلَى من صميم القلب؛ ولا شك أن إسلامه كان أيضًا ببركة دعاء النبي له.

---

١٦٦ البخاري، العلم، ١٥.

لقد بذل رسولُ الله ﷺ وصحابتُه الكرام ﭫ أموالَهم وأنفسَهم في سبيل تبليغ القرآن الكريم ودين الله تعالى، فكان الصحابي من صحابة النبي يُسلِّم رسالةَ النبي عليه الصلاة والسلام التي يدعو فيها الملوكَ إلى دين الله، ويقرؤها بصوت عالٍ أمام جلّاديه بلا خوف أو وجل، فيبذل روحه في سبيل أداء واجبه في التبليغ. وإذا تذكَّرنا أن خطبة الوداع حضرها نحو مئة وعشرين ألف صحابي، ولكن مَن دُفن منهم في مكة والمدينة المنورة عددهم لم يتجاوز العشرين ألف صحابي، سندركُ جيدًا أن حبَّ التبليغ لدى الصحابة الكرام كان حبًّا عظيمًا. ذلك أن الصحابة توجَّهوا إلى إسطنبول والقوقاز وأفريقيا والصين هُداةً حيثما حلُّوا، فكان لهم الموقع المميَّز في تاريخ الدين الإسلامي، فسعوا بذلك إلى إيصال شعلة الإيمان التي اتقدت في مكة إلى كل مكان وزمان.

لقد بذلَ رسول الله ﷺ جهدًا يفوق طاقة البشر في سبيل تبليغ الرسالة الربَّانية التي تدعو الناس إلى الهداية، فبيَّنَ بذلك أهمية واجب التبليغ وعظمة هذه المسؤولية، وعلَّم المسلمين ضرورةَ أن يعيشوا حياتهم مدركين هذا الواجب العظيم.

وجعل رسول الله– الذي أرسله المولى ﷻ أسوةً لعباده– حياتَه في سبيل أداء واجب التبليغ، ولم يمنعه من ذلك تعرضه للظلم والشتم والتحقير والسخرية والإيذاء وصنوف التضييق التي زادت

بعد أن رفض عروض المشركين الدنيوية. لقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يتحلى بالعزيمة والإيمان والثبات على طريق الحق، وخير دليل لذلك جوابه التاريخي الذي ردَّ به على عروض المشركين كي يصرفوه عن دعوته، وهو في أضعف أوقات الدعوة، إذ قال:

«والله، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر- حتى يُظْهِره الله أو أهلكَ فيه- ما تركته»[١٦٧]

لقد تعرَّض رسول الله ﷺ لأنواع شتى من الإساءة التي لا يمكن لإنسان أن يتحمَّلها، إلا أنه اغتنم الفرص كلها من أجل تبليغ الإسلام، وكان القدوة الحسنة لأمته بسعيه الدائم لغرس بذور الهداية في قلوب الناس.

ففي الأعوام الأولى للدعوة كان رسول الله ﷺ يدور على القبائل كلها لا سيما في موسم الحج، وكان يشرح لهم الإسلام، وكان يتردد على الأماكن التي يجتمع فيها الناس ويلقاهم في مجالسهم بلا كلل، وكان يدعو كلَّ مَن يقابله إلى وحدانية الله تعالى أولاً دون تمييز بين حر وعبد، أو ضعيف وقوي، أو غني وفقير.

عن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموقف،فقال:

---

١٦٧ البيهقي، دلائل النبوة، ١، ص٦٦.

«ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلِّغ كلام ربي»[168]

وكان رسول الله ﷺ يذهب إلى أماكن تجمع القبائل في الأسواق التي تُقام في مكة مثل: عكاظ ومجنة وذي المجاز ويعرِّفهم بنفسه، ويدعوهم إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى وعبادته وحده.

ومع أنه تعرض للتحقير والإيذاء لا سيما في الطائف، إلا أنه كان يدعو الله تعالى أن ينجيهم. واهتدى على يديه عبدٌ واحدٌ من الطائف كلها اسمه عدَّاس، فكان ذلك كافيًا ليُدخِل الفرح والسعادة في قلبه الحزين. ولم يغضب رسول الله لما لقِيَ من الظلم والقسوة هناك، بل دعا الله تعالى أن يهديهم لعفوه عنهم ورحمته بهم.

ومع أن رسول الله ﷺ قد أحزنه ظلم أهل الطائف، إلا أنه لم يفكِّر لحظة في أن يتخلى عن مسؤوليته في تبليغ دعوة الله تعالى إلى الناس، وفي تلك الظروف القاسية لجأ إلى الله تعالى بهذا الدعاء الرقيق:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور

---

١٦٨ أبو داود، السنة، ٢٢.

وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[١٦٩].

إن القدرة على التلذذ بهذه الحياة الفانية منوطةٌ بقدرتنا على العفو والرحمة كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام. ولا بد أن نرفع الرحمة فوق المحبَّات كلها، وعلينا أن نرحم كي نكون أهلًا لرحمة الله تعالى.

فرحمة المولى ﷻ كالبحر الذي تكفي قطرة واحدة منه لتملأ القلوب رحمةً، وحينما تسقط تلك القطرة في القلب ويتلذذ بها، يكون ذلك القلب متصلًا بذلك البحر. والقلوب التي تفيض بالرحمة تنضج بالالتجاء والدعاء والتبليغ، وعندها تكون قادرة على مواساة المكلومين وسماع أنَّات المستضعفين واستغاثات الغافلين عن غاية خلقهم. وكيف للقلوب السليمة ألا ترحم وتغض الطرف عن تبليغ الحق والخير؛ إن ذلك محال كما هو محال أن يحجب الإنسان نور الشمس وحرارتها بيديه.

لا ريب أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد أُرسِل رحمةً للعالمين. ومع أن أُناسًا لم يعرفوا قيمته وكذبوه وأنكروا دعوته وأساؤوا إليه، إلا أن ذلك لم يمنع انتصار الرحمة على الغضب في

١٦٩ ابن هشام، جـ.٢، ٤٨.

قلب رسول الله، بل زاد من إشفاقه عليهم ورأفته بهم. وكان كثير من الذين يظنون السفالة سعادةً ينالون شرف الإيمان بفضل رأفة النبي وتسامحه وعفوه ورحمته.

وقد وصفَ رسول الله عليه الصلاة والسلام حاله أثناء الدعوة إلى الله بقوله:

«إنما مَثلي ومَثل الناس كمَثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزِعُهُنَّ ويغلبنه، فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحُجَزِكُم عن النار، وهم يقتحمون فيها»[170]

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[171]

فلا بد أن نأتي المعروف ونأمر به، ونبتعد عن المنكر وننهى عنه كما فعل رسول الله ﷺ لنكون ممَّن تشملهم عبارة «**خير أمة**» التي وردت في الآية الكريمة.

ويوضح الحق ﷻ في آية أخرى قيمةَ هذه المهمة العظيمة عنده فيقول:

---

١٧٠ البخاري، الرقائق، ٢٦.

١٧١ آل عمران: ١١٠.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١٧٢]

وعلينا ألا ننسى الجهد الكبير الذي بذله رسولنا الكريم ﷺ- الذي تشرَّفنا بأن نكون من أمته- لكي يبلِّغ الناسَ الدعوة إلى النجاة في الآخرة. وعلينا أن نحاسب أنفسنا ونعلم كم نعيش سنَّته هذه، فلا ريب أن رسول الله ﷺ أراد من أمته أن تستمر في أداء هذا الواجب كما أدَّاها هو طوال عمره، فقد كان ﷺ يُذكِّر أمَّته بواجب التبليغ ومسؤوليته ويحثهم على ذلك، وهو القائل:

«بلِّغوا عني ولو آية»[١٧٣]

وقال في حديث آخر:

«نضَّر الله امرأ سمع منا شيئًا فبلَّغه كما سمع، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع»[١٧٤]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«من رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[١٧٥]

---

١٧٢ فُصلت: ٣٣.

١٧٣ البخاري، الأنبياء، ٥٠.

١٧٤ الترمذي، العلم، ٧.

١٧٥ مسلم، الإيمان، ٧٨.

فكان هذا الحديث النبوي ميزانًا لإيماننا ولواجبات التبليغ والتنبيه والإرشاد كلها التي تدعو الناس للخير والجمال وتبعدهم عن الشر والسوء.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

«والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يُستجَاب لكم»[١٧٦]

اللهم إنَّا نعوذ بك من عاقبة إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

اللهم اجعلنا ممن يؤدُّون واجب الدعوة إلى الحق والخير على الوجه الأكمل متخلِّقين بأخلاق رسولك الكريم ﷺ المبعوث أسوة حسنة لنا أجمعين، واجعلنا ممن ينالون شفاعته يوم تُوضَع الموازين. آمين!

١٧٦ الترمذي، الفتن، ٩.

الدَّعوة إلى الحق والخير

-٢-

طوبى للذين جعلوا قلوبهم ملاذًا للمخلوقات في رحاب القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فقيمة الإنسان أن يعيش وقد ملأ قلبه بالإيمان، وأن يبلِّغ الناسَ الحق والخير بذلك القلب؛ إذ لا نفع في التبليغ والدعوة إن كان القلب مملوءًا بالأشواك.

الدعوة إلى الحق والخير
-٢-

لا بد أن نعشق واجب تبليغ الحق والخير وخدمة الناس كي نستطيع تطبيق كتاب الله ﷻ وسُنَّة نبيه الكريم ﷺ؛ فحياة المؤمن ينبغي أن تكون حياة تبليغ وخدمة.

ولا ريب أن من أهم الأوصاف التي تميز المؤمن عن سائر البشر الآخرين إنما هو رحمته بالناس. والدعوة إلى الحق والحث على الخير اللذان يشكِّلان مظهرًا من مظاهر الرحمة لا بد أن تتحقق أولًا في نفس المؤمن قبل غيره.

وينبغي لنا في البداية أن نعلم ماهية الحق والخير قبل أن ندعو إليهما؛ لأن دعوة الجاهل لا يمكن أن تبرأ من الأخطاء، لا من حيث الأسلوب فحسب، بل ربما من حيث المحتوى أيضًا. فأول لوازم هذا الطريق رأس المال العلمي والقلبي، لأن الإنسان يحتاج لهذين الأمرين لكي يستطيع أن يعيش حياة الإيمان والعبودية لله في توازن بين العقل والقلب.

ولا بد للمؤمن أن يعلم أسس دينه، فهي فرض عليه. أما الذين لا يعلمون فعليهم السعي ليدَّاركوا النقص العلمي والمعنوي خشية أن يفسدوا الأمر وهم يسعون للإصلاح، وعليهم أن يطبِّقوا

ما تعلموه في حياتهم، فيرتقون بالعلم إلى درجة العرفان. لأن تأثير الدعوة إلى الحق والخير يرتبط بارتقاء قلوبنا، وذلك يكون بامتلائها بالإيمان.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إياك أن تملأ الوعاء وثقبٌ في أسفله».

إن الدعوة إذا كانت بأسلوب فظ وجهل وخبط عشواء ليس فيها محبة، فلا نفع من توقع الفائدة منها، بل يستحق صاحبها وبالًا عظيمًا.

لهذا على المؤمن أن يزيِّن قلبه بجمال الإسلام ورقَّته وسماحته، وعليه أن يكون قدوةً في الدعوة إلى الحق والخير بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته، لأن حقيقة واجب الدعوة إلى الحق تكمن في طلب مرضاة الله تعالى بالمحبة. فالمحبة السامية التي كانت عند رسول الله ﷺ الذي نزل عليه الوحي أول مرة في غار حراء قد ملأت قلبه بنور التبليغ، ورفعته إلى أعلى الدرجات في المعراج. يقول المولى ﷻ في كتابه العزيز:

﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[177]

وطوبى للذين جعلوا قلوبهم ملاذًا للمخلوقات في رحاب القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فهُم الذين يتدبرون آيات القرآن ويعيشون بالإيمان، ويحفظون قلوبهم من العقول التي خضعت لوساوس النفس والشيطان. فقيمة الإنسان أن يعيش وقد ملأ قلبه بالإيمان، ويدعو الناس إلى الخير بذلك القلب؛ إذ لا نفع في التبليغ والدعوة إن كان القلب مملوءًا بالدنيويات. إن ديننا العظيم يرفض الكبر والأنانية، ويعلِّم الناسَ التواضعَ والمحبة والرحمة. فلا بد أن يكون قلب المؤمن كبستان الورود الذي يجد فيه المهموم الراحة والطمأنينة والسكينة. لهذا لا مناص من تطهير القلب من السيء من المشاعر والأفكار والأفعال لإعدادها لواجب الدعوة والتبليغ.

ولنا في قصة الحجاج مع الواعظ عِبر في هذا الشأن، إذ دخل دخل الواعظ عليه، فقال: إني سأعظك وأغلظ عليك، فقال الحجاج وكان أفقه من الواعظ: ولِمَ الغلظة؟ لقد أرسل الله مَن هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌّ مني، أرسل موسى إلى فرعون وأمره بالقول اللين.

---

١٧٧ التوبة: ٧١-٧٢.

ولم يبيِّن المولى ﷻ وجوبَ استعمال القول اللين في قصة موسى مع فرعون فحسب، بل ثمة آيات كثيرة تذكُر لنا آداب الدعوة وتذكِّرنا بأن نخاطب الناس بحكمة دون أن نؤذيهم قولًا أو فعلًا، ومنها قوله تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١٧٨]

لهذا لا بد أن نراعي الآداب التي وضعها رسول الله ﷺ الذي كان قرآنًا حيًّا، وذلك بالاقتداء بأقواله وأفعاله وأحواله كلها.

وعلى المؤمن أولًا أن يتحلى بأخلاق الإسلام، فيكون لمَن حولَه خير مثال لهذا الدين المبين.

لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[١٧٩] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي»- لبطون قريش- حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا.[١٨٠]

---

١٧٨ النحل: ١٢٥.

١٧٩ الشعراء: ٢١٤.

١٨٠ البخاري، تفسير القرآن، ٦٢.

فكان الناس يعلمون أن رسول الله ﷺ صادق أمين قبل أن يبلِّغهم دعوة الله تعالى، حتى إن رأس الكفر أبا جهل لم يكن يكذِّب رسول الله بل يكذِّب ما جاء به؛ وهذا ما جاء في قوله تعالى:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[١٨١]

وثمة آخرون صدَّقوا دعوة النبي ﷺ ما إن رأوا لسان حاله وحسن سيرته؛ فلا بد من إتيان المعروف قبل الأمر به والابتعاد عن المنكر قبل النهي عنه.

لقد فتح السلطان العثماني محمد الفاتح البوسنة بعد عشر سنوات من فتحه إسطنبول، غير أن الفتح الحقيقي- أي فتح القلوب- كان بعد إغماد السيوف التي فتحت الحصون. ذلك أنه أسكن في تلك البلاد أُسَرًا مؤمنة تقية من الأناضول، فكانوا الفاتحين الحقيقين بطيب أخلاقهم وحسن معشرهم، فدخل أهل البوسنة بعد ذلك في الإسلام أفواجًا.

والحق أن السلاح يُستعمَل من أجل ردِّ الظلم، لكن الفتح الحقيقي إنما هو فتح القلوب، وذلك يكون بالتخلق بأخلاق الإسلام وتمثيله خير تمثيل. فالدعوة تكون مؤثرة على قدْر تقوى صاحبها، وعجز الداعية عن فهم الحكمة وراء هذا النظام الإلهي

---

١٨١ الأنعام: ٣٣.

في الكون وفهم المخلوقات بلسان حالها إنما هو لنقص الفراسة والبصيرة. ولا خير للناس في الذي يلبس عباءة الشيخ وعمامته وليس في أحضانه قلب رقيق يشعر بأحوالهم.

لذلك على المرء أولًا أن يفوز في معركته مع نفسه، وقد بيَّن المولى ﷻ حالَ الفجور والتقوى في النفس، فخلاصها من الفجور وتزينها بالتقوى بضاعةُ الإنسان للفوز العظيم والسعادة الأبدية. فالذين يؤثِّرون في قلوب الناس فينجون بذلك في الآخرة إنما هم الذين ينتصرون في معركتهم مع أنفسهم ويرضخون لأمر الله تعالى بتسليم تام.

ولا بد من فهم المُخاطَب أثناء الدعوة والتبليغ، وينبغي أن يتذكر الداعية دائمًا أن المُخاطَب إنسانٌ كرَّمه الله تعالى. وإذا كان التبليغ يبدأ من الإيمان، فلا بد من النظر إلى فطرته الأصلية. أي لا بد أن يعامِل الداعية الناس بالرحمة والمسامحة والأمل بدلًا من الغلظة والغضب.

ونجد أن آيات القرآن الكريم التي تُكرِّم الإنسان ترفع من شأن تلك الفطرة الأصيلة، منها قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١٨٢]

١٨٢ الإسراء: ٧٠.

والقرآن الكريم يصف الإنسان على أنه خليفة الله في الأرض. والإيمان وما يتبعه من أعمال صالحة نتيجةٌ للشرف الأصيل في الإنسان. أما الحرمان من الإيمان والأعمال الصالحة فهو أشد الحرمان ووقوعٌ في أسفل سافلين. والمقصرون في الأعمال الصالحة يُرأَف بحالهم، وإن كان حالهم أفضل من المحرومين من الإيمان. وقد يغضب الإنسان العادي على المحرومين من الإيمان، لكن الذين ذاقوا لذة الإيمان عليهم أن يتألموا لأحوال أولئك المحرومين، فذلك نتيجة طبيعية لإيمانهم. والرأفة بحالهم تُوجِب عليهم تقديم العون، والعون الأكبر يكون بالدعوة إلى السعادة الأبدية.

إن الداعية الحقيقي قدوة يبثُّ الحياة في القلوب. والذي يُبلِّغ دعوته في كل مجال بمحبة ورحمة يغدو منبعًا للإيمان؛ فأولئك الذين يدلُّون الناس إلى طريق السعادة والطمأنينة بأقوالهم وأفعالهم وكتاباتهم وحسن معشرهم هم دائمًا في عون كل ملهوف ومحزون ومسكين، فهم يشعرون بمَن حولهم وبالمسؤولية الملقاة على عاتقهم، لذلك نراهم يسارعون إلى كلِّ مَن ينتظر شعلة الهداية.

وهم يرون في البشر أمانةَ الله تعالى، ويعاملون المخلوقات برحمة ورأفة. فترتقي بهم المسؤولية التي تنبع من ينابيع الرحمة، وتجعلهم دعاةً لبلوغ مرضاة الله سبحانه وتعالى. والذين نذروا أنفسهم للخدمة والتبليغ والإرشاد متحمِّلين الصعاب والمشقَّات

على هذا الطريق، والتحقوا بقافلة البحث عن الحق والحقيقة إنما هم إخوة لأولياء الله ﷻ.

إن المولى ﷻ سيتم نوره ولو كره الكافرون، وستظل شمس الإسلام ساطعة حتى قيام الساعة، فذلك وعده سبحانه وتعالى. لكن ينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن واجب الدعوة والتبليغ وسيلة لدوام هذا الدين المبين؛ الدين الذي هو معرفةُ الله تعالى كما يليق به وتعظيمه بالعبادات، فالله تعالى ما خلق الإنس والجن إلا ليعبدوه.

وإذا ما سرى الضَّعْفُ في تطبيق الدين في أي زمان أو مكان، وحادَ الناس عن طريق الحق وصاروا أقرب إلى طريق الضلال، فإن واجب الدعوة عندئذ يصبح أول واجب وأهمَّه بعد الإيمان بالله تعالى. وإن لم يكن هناك نجاح في أمر تبليغ الحق والخير، فإن كثيرًا من الأعمال المشروعة تفقد مشروعيتها. فإرضاع الأم لطفلها في سن الرضاعة مثلًا عملٌ مباركٌ وعظيم، لكن الأم التي تشاهد بيتها يحترق فتستمر في إرضاع الطفل تكون آثمة، لأن أي عمل تقوم به لإطفاء الحريق يكون أَولى عندئذ من إرضاع طفلها؛ فالحذرَ الحذرَ من الانشغال في زمن يضعف فيه تطبيق الدين ويقل فيه الدعاة إليه.

وعلينا ألا ننسى أن نعمة الإسلام لم تصل إلينا بعد نحو ألف وأربعمئة عام إلا بتجاوز العقبات والتحديات والمشقات، فلا بد لنا أن ننقل هذه الأمانة إلى الأجيال اللاحقة كما وصلت إلينا. وعصرنا عصرٌ يُوجِب علينا أن نبذل الجهد ونضحي بالغالي والنفيس لإعلاء

راية الدِّين. وهذا الأمر حقيقةٌ منطقيةٌ بلا شك، لأن الجهد الذي نبذله لدفع العربة مثلًا عندما تنغرس عجلاتها في الطين لا يمكن مقارنته بالجهد الذي نبذله لدفعها فوق طريق مستقيم. وثمة هنا إشارة دقيقة لا بد أن نذكرها، وهي أن العربة التي صارت عجلاتها في الطين قد تحتاج في لحظة من اللحظات إلى جهد صغير لا يزيد عن دفعة من طفل صغير، فيكون لدفعة الطفل أثرٌ عظيمٌ في سير العربة، وهذا ما يدفعنا لنفهم أن الذين يتفرجون مكتوفي الأيدي في تلك اللحظة الحاسمة يكون جرمهم عظيمًا. وهذه الأيام التي نعيش فيها أيام ضَعُفَ فيها الإيمان وحاد فيها الشباب عن الصواب وصار أكثر الناس خاضعين لأهواء النفس وشهواتها، فعلينا أن ننطلق مدركين الزمان الذي نعيش فيه، وأن للجهد الصغير أجرًا عظيمًا، وللإهمال القليل عقابًا شديدًا.

ولا ريب أن الإنسان يشعر بسعادة كبيرة إذا نجح في خدمة دينه وأمته ووطنه. لكن المهم في واجب التبليغ ليس النجاح أو الإخفاق، بل أن نبذل الجهود على قدر استطاعتنا في هذا الطريق على أمل أن ننال رضا الله ﷻ. وليس من الصواب أن ينتظر المرء نتيجة التبليغ الذي قام بها ولو استعان بالأسباب، ولا أن يحزن أو ييأس إذا لم يتحقق ما يبتغيه؛ لأن الله تعالى هو الهادي وحده، وعلى العبد أن يستمر في الدعوة بلا سأم أو ملل أو يأس أو تراخ، وأن يتوكل على الله تعالى، ويترك له النتيجة وحده. فالله تعالى قد

نبَّه نبيَّه الكريم عليه الصلاة والسلام المبعوث رحمةً للعالمين عندما حاول أن ينهك نفسه على أمل أن يهدي أكبر عدد من الناس، إذ قال سبحانه وتعالى:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[١٨٣]

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١٨٤]

لهذا علينا ألا ننسى أن الدعوة حتى لو لم تجد قبولًا، فإنها على الأقل تقلِّل من سرعة انتشار الشر، وربما تكون وسيلة للإصلاح وتعطي ثمارها على المدى الطويل. إضافة إلى أن الداعية يكون قد تخلص من مسؤولية هذا التكليف حتى لو لم يحصل على نتيجة؛ لأن المرء يكون مسؤولاً عن العمل الذي لم يلتحق به ولم يبذل جهدًا في سبيله مع قدرته على ذلك، أكثر من العمل الذي التحق به ولم يحقق نجاحًا. والذي سنُحاسَب عليه في الميزان الإلهي ما قمنا به وما لم نقم به في هذا الشأن، وليس النتائج التي تحققت.

وخير مثال لما ذكرنا أنه كان يُبعث رسولٌ إلى قومه فيؤمن به أكثرهم، ويُبعَث رسولٌ آخر إلى قومه فيؤمن به القليل؛ أي إن الهداية

١٨٣ الشعراء: ٣-٤.

١٨٤ القصص: ٥٦.

من عند الله وحده، ولكن الناس وعلى رأسهم الأنبياء مجبرون على الدعوة إلى دين الله وتبليغه.

وصفوة الكلام أنه لا بد أن تكون الدعوة خصلةً أصيلةً في فطرة كلِّ مسلم بدءًا بدعوة أولاده وأسرته. وكل مؤمن مسؤول عن البحث عن طريق للدعوة على قدر استطاعته وإيمانه ومعرفته وثقافته، وهو مسؤول أيضًا عن حثِّ الناس في هذا السبيل؛ فالله تعالى لم يكلِّف عباده فوق طاقاتهم، غير أنه كلَّفهم بأداء واجباتهم على قدر طاقاتهم.

ومما لا شك فيه أن رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام أسوتنا الحسنة في الدعوة إلى الحق والخير، ومن بعده ورثته من أهل الله، ففي أحوالهم حسنٌ وطيبٌ وعظمةٌ وجمالٌ وعبرةٌ. ومن هؤلاء الشيخ موسى أفندي رحمه الله الذي تربَّينا وتعلَّمنا على يديه، فقد كانت حياته مليئة بالخصال الحميدة، وكان يدعونا إلى الحق والخير بكل وسيلة ممكنة.

ومما قال في مرض موته:

«آه لو كان عندي قوة، فأزور المدن مدينةً مدينةً، والقرى قريةً قريةً، وأبذل جهدًا لأكون بلسمًا لهموم إخواني».

ذلك أن شعاره في الحياة كان أن يعيش صفحات عمره كلها بشعور العبودية للخالق سبحانه وتعالى. وكان يسعى بكل ما أوتي من قوة كي يكون المأوى الذي يأوي إليه كلُّ محزون ومهموم.

وعندما فُتِحَت الأبواب لآسيا الوسطى، ذهب إليها بحيوية ونشاط على كِبَر سنِّه. وسافرَ إلى أوربا وجنوب إفريقيا، وألقى هناك الدروس، وعقد المجالس المعنوية، وأقام النشاطات الاجتماعية.

والخلاصة أنه عاش حياته كلها ساعيًا كي يليق بصفة ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ**﴾[185] التي ذكرها المولى سبحانه وتعالى في كتابه العزيز.

اللهم أعنَّا على الدعوة إلى الحق والخير في زماننا هذا كي نلقاك وأنت راضٍ عنَّا يا أرحم الراحمين.

اللهم احفظنا من غفلة الركون إلى هذه الدنيا الآيلة إلى الفناء، وامنحنا رؤية الحكمة في أننا نسير على هذا التراب اليوم ونكون ترابًا غدًا. اللهم اجعل رضاك مبتغانا، وحبيبك محمد أسوتنا، ودينك الإسلام نور قلوبنا...آمين!

185 ص: ٣٠، ٤٤.

الإيثار

الرحمة ينبوع في قلب المسلم لا ينضب، والرحمة أثمن جوهرة لإنسانيتنا في هذا العالم لأنها توجِّه قلوبنا إلى طلب مرضاة الله سبحانه وتعالى، والمؤمن الرحيم إنسانٌ كريم متواضع من أهل الخدمة، وهو في الوقت نفسه طبيبُ القلوب الذي يبثُّ فيها الحياة.

الإيثار

مرَّ عبد الله بن جعفر ﷺ على بستان نخل خادمه عبد أسود. وكان بين يدي العبد ثلاثة أرغفة، فجاء كلب، فألقى العبد رغيفًا له، فأكله، ثم ألقى الثاني، فأكله، ثم ألقى الثالث، فأكله.

فقال له عبد الله بن جعفر ﷺ: ما أجرك؟

فقال العبد: الأرغفة الثلاث التي رأيتها.

فقال: ولماذا ألقيتها كلها للكلب؟

فقال: ليس ثمة كلاب في هذه الديار، وهذا الكلب جاء من بعيد، فما رضيت أن أتركه جائعًا.

فقال: وما طعامك اليوم؟

فقال: سأصبر، فقد دفعت رزقي اليوم إلى هذا المخلوق الجائع.

فقال عبد الله: سبحان الله، يصفني الناس بالجود، وهذا العبد أجود مني!

ثم اشترى عبد الله العبد والبستان، واعتق العبد ووهب البستان له.[١٨٦]

لقد ربَّى الإسلام أناسًا يتحلون بالرحمة والرأفة، وفرضَ الزكاة كي يزيل الخصومة والحسد بين الفقراء والأغنياء في النظام

---

١٨٦ الغزالي، كيمياء السعادة، ص ٤٤٠.

الاجتماعي، ويحافظَ على التوازن وينشرَ المحبة بين المسلمين. وحثَّ الإسلام على الإنفاق من أجل الارتقاء بالأخوة في الدين، وجعلَ الغنى في قلوب المؤمنين، ورفعَ من شأن الإيثار. فغاية الدين بعد الإيمان بوحدانية الله ﷻ نشر الأمان والطمأنينة في المجتمع بتنشئة إنسان صفته الطيب وحسن المعشر.

فالإنسان يرتقي حينما يشعر بالرأفة على غيره ويشارك ما عنده، لا بل يؤثر غيره على نفسه، فتراه يتخلى عن النعم التي يحتاج إليها ويقدِّمها لغيره.

الرحمة ينبوع في قلب المسلم لا ينضب، والرحمة أثمن جوهرة لإنسانيتنا في هذا العالم لأنها توجِّه قلوبنا إلى طلب مرضاة الله سبحانه وتعالى. والمؤمن الرحيم إنسانٌ كريم متواضع من أهل الخدمة، وهو في الوقت نفسه طبيبُ القلوب الذي يبثُّ فيها الحياة. والمؤمن الرحيم منبع الأمل والإيمان الذي يعرف كيف يعين الناس بمحبة ورأفة. وهو الذي يقف في الصفوف الأولى في كل أمر يمنح القلوب الطمأنينة. وهو الذي يقف بجانب كل مهموم مكروب يائس بأقواله وأفعاله وأحواله، ذلك أن الرحمة أولى ثمار الإيمان.

إن أخلاق الإنسان تكتمل بالقرآن، وعندما نفتح المصحف الشريف، نجد أن أولى الصفات الإلهية المذكورة صفتا: «**الرحمن**»

و«**الرحيم**». وربنا ﷻ قد وصف ذاته بأنه «**أرحم الراحمين**»، وأمرَ عباده أن يتخلقوا بما ينبغي لهم. فعلى المؤمن الذي يمتلئ قلبه بمحبة الله ﷻ أن يرأف بمخلوقات الله كلها، فعلامة محبة الله معاملةُ مخلوقاته بمحبة ورحمة، والمُحِبُّ يجدُ لذةً في التضحية من أجل حبيبه على قدر محبته. والإنفاق على خلق الله محبةٌ له سبحانه وتعالى.

والحق أن أنواع الإنفاق والصدقة في سبيل الله كثيرة، ويحتل الإيثار قمة هذه الأنواع، فالإيثار فضيلة تجعلك تتخلى عن حاجاتك في سبيل تلبية حاجات الآخرين.

سُئِل الحكيم الترمذي رحمه الله: «ما العطاء؟»، فقال: «العطاء أن تجد الطمأنينة مع سرور غيرك».

إن الدخول في رحاب الإيثار ديدنُ القلوب الرقيقة الخاشعة، فالإيثار الحقيقي إنما هو العطاء عطاءَ مَن لا يخشى الفقر، ولنا في حياة الأنبياء وأولياء الله خير مثال للإيثار. ولا شك أنه ليس باستطاعة كل إنسان أن يبلغ تلك الذروة، ولكننا على قدر اقترابنا منها، يكون خيرًا لنا؛ لذلك فإن أي خطوة في طريق الإيثار بضاعةٌ لنا في الآخرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: «**من يضُمُّ أو يُضِيفُ**

هذا»، فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيِّئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عَشاءً، فهيَّأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين. فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال:

«**ضحك الله الليلة، أو عَجِبَ، من فعالكما**» فأنزل الله:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١٨٧]

ولنا في حياة الشيخ المربي محمود سامي رمضان أوغلو رحمه الله مَثَل في الإيثار، فقد درس الشيخ الحقوق، غير أنه لم يشتغل في هذه المهنة خشية أن يظلم يومًا عبدًا من عباد الله، وفضَّل أن يعمل في المحاسبة في إسطنبول. وكان إذا خرج إلى العمل، لم يركب حافلة، بل مشى حتى وصل إلى عمله، وأنفق أجرة ركوب الحافلة على الفقراء والمحتاجين.

فلا بد لنا أن نقتدي بأحوال أهل الله وأخلاقهم بأن نتخلى قليلًا عن حياة الرخاء والرفاء التي نعيشها وننأى عن زخرفة البيوت وملئها بالأثاث، وعن الاستهلاك الذي لا حاجة له.

١٨٧ البخاري، مناقب الأنصار، ١٠؛ مسلم، الأشربة، ١٧٢.

والإيثار ذروة الكرم أيضًا؛ لأن **الكرم** أن يعطي المرءُ فضلَ ماله لمن يستحق، أما **الإيثار** فهو إعطاء المرء ما يحتاج إليه. وثواب الإيثار على قدر تضحية العبد، فالله تعالى قد مدح الأنصار الكرام الذين شاركوا المهاجرين أموالهم وبيوتهم وتجارتهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١٨٨]

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

«أُهدِي لرجل من أصحاب رسول ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلانًا و عياله أحوج إلى هذا منا. فبعث إليه، فلم يزل يبعث به واحدٌ إلى آخر حتى تداولها سبعة بيوت حتى رجعت إلى الأول».[١٨٩]

وقبل أن يدخل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه القدس، انتهت المدة التي يستريح فيها فوق الدابة، فنزل عنها ليركب خادمه، فأحجب الخادم عن الركوب وهما عند أسوار القدس، فأصرَّ عمر رضي الله عنه على أن يركب الخادم، ومشى هو آخذًا بزمام الدابة، فكان ذلك مظهرًا جميلًا من مظاهر الإيثار قلَّ نظيره.

---

١٨٨ الحشر: ٩.

١٨٩ الحاكم، المستدرك، ٢، ٥٢٦/ ٣٧٩٩.

فالإنفاق لا يكون بالمال فقط، بل للإنفاق وجوه كثيرة. والإيثار أعلى درجات الإنفاق إذ يقطع المرءُ شيئًا عن نفسه ويعطيه لأخيه في الدين؛ الإيثار شكلٌ من أشكال إنفاق الأنبياء والصحابة والأولياء والصالحين.

عن ابن عباس رضي الله عنه أن الحسن والحسين مرضا، فعادهما رسول الله عليه الصلاة والسلام في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت على ولدك، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برآ مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام، فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعًا، واختبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء، وأصبحوا صيامًا، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم، فآثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة، ففعلوا مثل ذلك.[١٩٠] فنزل قول الله تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾[١٩١]

١٩٠ الزمخشري، الكشاف، ٤، ٦٧٠.

١٩١ الإنسان: ٨-٩.

ومن مظاهر الإيثار ما رواه أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، إذ قال: كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**». وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البُرَّ لوصية رسول الله ﷺ.[١٩٢]

والحق أننا لا نستطيع أن نقارن أحدًا برسول الله ﷺ في سخائه وإنفاقه وإيثاره، فقد كان سخيًا بماله ونفسه وعلمه، ذلك أنه كان يبيِّن للناس دين الله تعالى ويرشدهم إلى الصراط المستقيم، وكان يطعم الجوعى، ويقضي حوائج المحتاجين، ويعظ الجاهلين ويتحمل أذاهم وجفاهم.

شهِدَ صفوان بن أمية أحد كبار المشركين -ولم يكن قد أسلم بعد- مع رسول الله ﷺ حُنينًا والطائف، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينا رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شِعْب مليءٍ نَعمًا وَشاءً ورِعاءً، فأدام إليه النظر، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: «**أبا وهب، يعجبك هذا الشعب؟**» قال: نعم. قال: «**هو لك وما فيه**». فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفسُ نبيٍّ، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. وأسلم مكانه.[١٩٣]

١٩٢ الهيثمي، جـ٦، ٨٦.

١٩٣ الواقدي، مغازي، جـ٢، ٨٥٤-٨٥٥.

والإيثار في الحقيقة أعظمُ أنواع الكرم، ولم يتوانَ رسول الله عليه الصلاة والسلام عن تلبية حاجةً كان قادرًا عليها. وعلينا أن نعلم أنه بفضل كرم رسول الله ﷺ وصحابته والعباد الصالحين لم يجد كثير من المعاندين في كفرهم بدًّا من العدل والإنصاف في بعض الأحداث، واهتدى كثيرٌ منهم إلى الإسلام، وزادت محبة المؤمنين لإخوانهم في الدين.

البِرُّ :

إن البر مثل الإيثار إنفاق عظيم، وهو ما عبَّر عنه القرآن الكريم بفضيلة إنفاق المرء مما يحب.

ومما لاشك فيه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي كان قدوةً في سائر الفضائل الأخلاقية، كان قمةً في شأن البِّر أيضًا.

ومن أمثلة فضيلة البر أنه لما نزلت:

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[١٩٤]

جاء أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: **﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾** وإن أحبَّ أموالي إليَّ بيرحاء- وكانت حديقةً كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يدخلها، ويستظل بها ويشرب من مائها- فهي إلى

١٩٤ آل عمران: ٩٢.

الله ﷻ وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام، أرجو برَّه وذُخرَه، فضعها أيْ رسول الله حيث أراكَ الله.[195]

فعندما تتجذر الأخلاق الحميدة التي تجعل من أبي طلحة وأمثاله ينفقون أحبَّ ما عندهم، فتعم الفضائل بين الناس، لا يكون من العسير تصوُّر أن يكون عصر رسول الله عليه الصلاة والسلام عصر سعادة.

وكان رسول الله ﷺ يحث على الإنفاق الناس كلهم حتى مَن لا يملك شيئًا، فكان مثلًا يدعو أبا ذر رضي الله عنه – وهو من فقراء الصحابة– للإنفاق ويحثه على البذل، فيقول له:

«يا أبا ذر إذا طبخت مَرَقةً، فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك»[196]

فعلى المؤمن أن يكون كالبدر في الليلة الظلماء، ليِّن الجانب، مُحبًّا للغير، كريمًا، رحيمًا، شوَّاقًا للإنفـاق.

والحاجة شديدة في عصرنا الحاضر للإنفاق والإيثار على قدر الاستطاعة، وعلينا ألا ننسى أنه كان من الممكن أن نكون مكان هؤلاء المحتاجين المضطرين؛ لذلك فإن إنفاقنا على المرضى والضعفاء والمُبتلين الجائعين والبؤساء إنما هو دَينُ شكر نؤديه لربنا ﷻ.

١٩٥ البخاري، الوصايا، ١٧.

١٩٦ مسلم، البر، ١٤٢.

فعلينا أن نشارك النعم التي في أيدينا مع المحتاجين لأن القلوب التي أَدخَلنا فيها السرور ستكون مصدر طاقتنا المعنوية في الدنيا، ومددنا في الآخرة، وسعادتنا في الجنة.

يا رب اجعل مظاهر الرحمة كنوزًا لقلوبنا لا تنفد، ويا ربنا يسِّر لنا الاقتداء بحياة سيد العالمين ﷺ المملوءة بالإيثار ومَن سار على نهجه من عظماء الإسلام...آمين!

الاستغناء

الاستغناء صفةٌ للقلب الصالح الصادق الذي تخلص من غلظته وبلغ الكمال، وهو أن يقنع المرء بما في يده ولا يطمع في ما ليس له. وهو الطمأنينة بغنى القلب انطلاقًا من قول:

«القناعة كنز لا يفنى».

الاستغناء

عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة المنورة، تركوا خلفهم كلَّ ما يملكون من متاع الدنيا. وآخى الرسول ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما.

فقال سعد لعبد الرحمن: «أقاسِمُكَ مالي نصفين».

فقال عبد الرحمن رضي الله عنه: «بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق».[197]

ولم تمضِ أيام كثيرة حتى أصاب مالًا كثيرًا ودخل في زمرة «الأغنياء الشاكرين».

ومرت أعوام وأدرك المؤمنون عهد قوة الإسلام وعظمته ومنعته، ويُروَى أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أُتِيَ بطعام، وكان صائمًا، فقال: «قُتِلَ مصعب بن عمير وهو خير مني، كُفِّنَ في بردة إن غُطِّيَ رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّيَ رجلاه بدا رأسه؛ وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِطَ، وأُعطِينا من الدنيا ما أُعطِينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا»، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.[198]

---

١٩٧ البخاري، البيوع، ١.

١٩٨ البخاري، المغازي، ١٧.

فما أجمل أحوال الزهد والاستغناء عند السلف الصالح التي تعكس أخلاقهم ورؤيتهم للدنيا وعبوديتهم لله ﷻ؛ **لأن الزهد** في عالمهم هو فناء كل ما سوى الحق ﷻ في القلب بحبه تعالى وخشيته، أما **الاستغناء** فهو شعور قلبي أعلى من الزهد.

والاستغناء بهذا المعنى صفة لقلوب الصالحين والصادقين الذين تخلصوا من غلظتها ووصلوا إلى الكمال، وقنعوا بما في أيديهم بغنى القلب ولم يطلبوا المزيد. وفي ذلك قال رسول الله:

«**القناعة مال لا ينفد وكنز لا يفنى**».[199]

إن وصول القلب إلى السكينة والراحة يكون في إثْرائِهِ معنويًا بتقربه إلى الحق ﷻ، لأن أي قلب ممتلئ ثراءً بالقناعة يجد السلامة من هموم الدنيا ومخاوفها؛ فالروح تدرك الخلود، غير أن شهوة الحظوظ الغائبة عند المرء تفني عمره وتستهلكه. وحياة أحبَّاء الحق تعالى- الذين أثروا قلوبهم معنويًا وعاشوا هذه الحال على أكمل وجه- مليئة بأمثلة الاستغناء:

فهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد فتح الله عليه في خلافته بلاداً مثل الشام ومصر، ودخلت أراضي فارس بكاملها ضمن حدود الدولة الإسلامية، وبدأت تتدفق على المدينة المنورة عاصمة الخلافة خزائن الروم والفرس الوافرة، وزادت حال المؤمنين رفاهية

١٩٩ الديلمي، الفردوس، ٤٦٩٩.

وغنى. لكن عمر بن الخطاب ﵁ خليفة المؤمنين كان مستغنيًا عن كل هذه المتع، ومع أن دولته كانت عظيمةً يفيض بيت مالها وفرةً، إلا أنه كان يخطب في المسلمين في ثياب مرقعة، وكان يصرُّ على أن يخشوشن في حياته، لأنه كان يفضِّل أن يأخذ من خزينة بيت مال المسلمين على قدر ما يكفيه فقط كفاف العيش حتى وإن ضاقت به الحال.

عن طاوس وعكرمة بن خالد، أن حفصة وابن مطيع وعبد الله ابن عمر كلَّموا عمر بن الخطاب ﵁، فقالوا: لو أكلتَ طعامًا طيبًا كان أقوى لك على الحق. قال: «أكلُّكم على هذا الرأي؟». قالوا: نعم. قال: «قد علمتُ أنه ليس منكم إلا ناصح، ولكن تركت صاحبيَّ على جادة فإن تركت جادتهما لم أدركهما في المنزل». قال: «وأصاب الناسَ سنة فما أكل عامئذ سمنًا ولا سمينًا حتى أحيا الناس».[٢٠٠]

ومما لاشك فيه أن فعل سيدنا عمر ﵁ هذا كان أثرًا ونتيجةً لشعور قلبي سام. وقد كانت مناقب سيدنا عمر الفاضلة لا تعد ولا تحصى، فهو الذِّي أقام العدل في الناس كلهم، وكان ﵁ قدوةً في التربية المعنوية.

والحق أن البشر يقدِّرون الفنانين والأذكياء النوابغ، ولكن لا يتوجهون لتقليد أحوالهم الشخصية.

---

٢٠٠ البيهقي، السنن الكبرى، ٩، ٧٣.

أما الأحق بالتقليد والاتباع فهم أصحاب الوقار والاستغناء والفطرة السوية. وبعد رحيل هؤلاء العظماء تصبح حياتهم للأمة مثالًا لتعليم الفضيلة وأخذ العبرة والعظة. وكان رسول الله يقول لأصحابه الذين اقتفوا أثره:

«طوبى لمن هُدِيَ إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا وقنع»[٢٠١]

لذا أدرك الصحابة أنهم لا يستطيعون أن يتَّبعوا هدى نبيهم ما لم ينظروا إلى هذه الدنيا كما ينظر إليها رسول الله ﷺ.

وهم عندما تلقوا تلك التربية والتعليم النبوي أصبحوا هُداةً للأمة يعرضون لها أنواع الفضائل المختلفة، وعلَّموا الناسَ فضيلة الإيثار وهي أن يتنازل المؤمن لأخيه المؤمن من طيب خاطر عن النعمة التي يملكها لو وجد أخاه أكثر حاجة لها. قالت عائشة رضي الله عنها:

«لو شئنا أن نشبَع شبعنا، و لكن محمداً ﷺ كان يؤثر على نفسه»[٢٠٢]

ويحكي جابر رضي الله عنه تلك القصة التي حدثت في وقت العُسرة والضيق عندما كان المسلمون يحفرون الخندق قبل غزوة الأحزاب فيقول: لما حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمَصًا [أي جوعًا] شديدًا، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصًا شديدًا، فأخرجت إلي جرابًا فيه صاع من شعير،

٢٠١ الترمذي، الزهد ٣٥.

٢٠٢ البيهقي، شعب الإيمان، ٣، ٦١.

ولنا بُهيمَةٌ داجنٌ فذبحتها، وطحنت الشعير، ففرغتْ إلى فراغي، وقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنَّا صاعًا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ فقال:

«يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع سورا، فحيَّ هلًا بِهلِّكم»

فقال رسول الله ﷺ:

«لا تُنزلُنَّ بُرمَتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء».

فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتي، فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلت، فأخرجت له عجينًا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال:

«ادع خابزة فلتخبز معي، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها»

وهم ألف، فأقسمُ بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن بُرمتنا لتغِطُّ كما هي، وإن عجيننا لَيُخبَز كما هو.[٢٠٣]

فكان هذا الفعل النبوي تبيانًا لنا أن رسول الله ﷺ لم يرضَ أن يأكل وأصحابه جوعى أو أن يأكل بعض أصحابه ويظل الآخرون جياع. لقد طلب من الصحابة أن يحضُروا معه الطعام ولم يأكل حتى أكلوا وشبعوا لأن قلبه مليء بالرحمة والشفقة وحب الخير

٢٠٣ البخاري، المغازي، ٣١؛ مسلم، الأشربة، ١٤١.

لأمته. وكان ﷺ يخدم أصحابه بنفسه، وبعد أن شبع أصحابه كلهم طلب من أهل البيت أن يوزعوا ما بقي من الطعام. وكل هذه الأفعال كانت مظاهر للرحمة والشفقة العظيمة التي كانت في قلبه؛ فهو النبي الكريم الذي لن ينسى أمته يوم القيامة بقوله: «**أمتي أمتي**» لذلك فنحن نلجأ إلى رحمته وشفقته تلك قائلين: «**الشفاعة يا رسول الله**».

وكان رسول الله ﷺ الرحمة المُهداة للعالمين لتقواه وزهده، كان يقنع بالقليل في السراء والضراء وفي السِعة والضيق، وكان يتضرع إلى الله تعالى قائلاً:

«**اللهم ارزق آل محمد قوتاً**»[٢٠٤]

وتحكي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فتقول:

«دخلتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف فدخل علي ﷺ فقال: «**ما هذا يا عائشة؟**»

قلت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت عليَّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت إلي بهذا، فقال:

«**رُدِّيه يا عائشة، فو الله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة**»[٢٠٥]

٢٠٤ البخاري، الرقاق، ١٧.

٢٠٥ البيهقي، شعب الإيمان، ٣، ٦١.

والزهد والتقوى شعار الذين يفضِّلون هذا الأسلوب النبوي في مواجهة الحياة والحوادث، ولكن قد يُساء فهم هذا الشعار، فيعتقد بعض الناس أن هذا يعني التخلي تمامًا عن نِعَم الدنيا وعن الغنى والثراء.

مع أن العبادات المالية التي تكون بالغنى لها قيمة كبيرة عند الحق ﷻ، فالقرآن الكريم قد ذكر كلمة الإنفاق في مئتي موضع. كما أن إيتاء الزكاة والحج اللذين يشكلان الركن الثاني والخامس من أركان الإسلام يتحققان بأن يكون العبد صاحب قدر من الثراء والغنى كي يستطيع الوفاء بهما.

والقاعدة الإسلامية التي تقول: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**» هي أيضًا تحث على أن يكون لك نصيب من تلك العبادات. والزهد في هذه الحال لا يمكن أن يكون مناقضًا لأمر يدعو إليه الدين.

إن الاستغناء عن نعم الدنيا خشيةَ الوقوع في الذنب والغفلة حقيقةٌ يوجبها الزهد والتقوى، لكن الاستغناء فعلٌ قلبي وليس فعلًا ظاهريًّا.

أي إن الزهد والاستغناء هما تمتع الإنسان بنعم الدنيا دون أن ينغرس حبها في القلب. فالزهد ليس فقرًا، بل هو فعل قلبي لازم لكل مؤمن أكان غنيًّا أم فقيرًا. وأيما امرئ يعيش في فقر وحاجة نتيجة المشيئة الإلهية لو انجر قلبه خلف الرغبات الدنيوية لا يمكن أن يعد من أهل الزهد والاستغناء، لأن الزهد والاستغناء

ليس القناعة بالقليل كرهًا نتيجة القدر، بل هو إرادة حفظ القلب من أَسْر للدنيا.

والقصة التالية أجمل إيضاح لهذا القانون:

كان الشيخ محمد بارسا أحد الأولياء الكبار-الذين ربوا الشيخ شاه نقشبند- في طريقه للحج، فلما بلغ بغداد رأى شابًّا يعمل في الصرافة، وكان هذا الشاب في بيع وشراء دائمين مع كثير من المشترين بلا توقف، وظن الشيخ بارسا أن هذا الشاب يمضي وقته في المشاغل الدنيوية فحزن وقال:

«وا أسفاه لقد انشغل هذا الشاب بما سوى العبودية للحق ﷻ».

لكن عندما تعمق في نظره إلى ذلك الشاب أصابته الحيرة، لأن أعضاء هذا الشاب كانت مشغولة بالدنيا، أما قلبه فكان مع ربه في ذكر دائم. فقال معجبًا به:

«ما شاء الله! اليد في الكسب والقلب مع الرب».

ولما بلغ الحجاز، رأس شيخًا أبيض اللحية يبكي وهو مُتعلق بأستار الكعبة. وعندما نظر أولاً إلى مظهر الرجل الخارجي وتضرعه إلى الله ﷻ، أخذ يغبط حاله وقال:

«ليتني ألجأ إلى الحق ﷻ باكيًا مثل هذا الرجل».

ولكن عندما تعمق في النظر إليه، وجد أن هذه الدعوات والدمعات كلها من أجل طلب دنيوي فانٍ، فحزن على حاله.

إن ما نفهمه من هذه القصة شيء مهم، وهو أنه يمكن المداومة على المشاغل الدنيوية دون إهمال الآخرة.

وهذا مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله يشبِّه الإنسان في الحياة الدنيا بسفينة تسبح في بحر الوجود فيقول:

«لو كان البحر تحت السفينة فإنه يكون سنداً لها. لكن لو بدأت موجات ذلك البحر تدخل السفينة لكان في ذلك هلاكها».

إن الخطر المعنوي المتمثل في انشغال المرء بمتع الدنيا وانقطاعه عن الله تعالى حقيقةٌ لا يمكن إنكارها، وقد نبَّه القرآن الكريم إلى هذا الخطر معبِّرًا عنه بتعبير الفتنة المتمثلة في المال والبنون؛ لهذا علينا أن نحمي القلب من الغفلة عندما يكون مشغولاً بالدنيا، لأن القلب الذي لا يُمنع عن محبة الدنيا قلبٌ ملعون مطرود من رحمة الله حتى لو بلغ ذروة الدنيا.

يقول رسولنا الكريم :

«حُلوةُ الدنيا مُرَّةُ الآخرة، ومُرَّةُ الدنيا حُلوةُ الآخرة»[٢٠٦]

ويقول في حديث آخر:

«إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا»[٢٠٧]

---

٢٠٦ الحاكم، المستدرك، جـ٤، ص٣٤٥.

٢٠٧ مسلم، الرقاق، ٩٩.

ذات يوم كنت على وشك الخروج إلى صلاة الفجر، فسمعت مواءً عاليًا، فنظرت إلى حديقة البيت فإذا بقطّين يتواجهان ويتحفز كل منهما للهجوم على الآخر، وكأن الواحد منهما نمر صغير. كان يحدق أحدهما في الآخر وكأن الشرر يتطاير من عينيهما دون أن يتحركا أو يصدرا صوتًا، وكانت مخالب القطين بارزة جاهزة للانقضاض. كانا مستعدَّين حتى لتمزيق بعضهما بعضًا في هذه المعركة. وبينما كنت أفكر متعجباً ما سبب هذا الأمر، فإذا بي أرى بينهما شيئًا تافهًا، لقد كان بينهما فأرة ميتة. ربما دخل القطان في هذا الصراع للحصول على جيفة هذه الفأرة. ربما كانت جيفة فأرة صغيرة بينهما هي سبب العراك والاستعداد لتمزيق كل منهما الآخر!

إن هذا المشهد يعرض عِبَرًا عظيمة، و يعكس النتائج الوخيمة التي يُبتَلى بها من لا يستغني عن جيفة قذرة. فالذين يطلبون الدنيا يفضِّلون أن يخسروا الآخرة في سبيل أطماعهم التافهة، وكم من غافل ضاقت نفسه وتعب وهو يسعى خلف دعوات الرئاسة، والمناصب الزائلة، والرغبات والأهواء الفانية والتي هي في الأساس جيفة قذرة، لقد حسب أمثال هؤلاء أن هذه الأشياء خالدة لن تزول، فأضاعوا الآخرة.

إن السبب الرئيس في ضياع الآخرة توجيهُ الاستغناء والرغبة إلى حيث لا ينبغي، وفي هذا يقول الحق عَزَّوَجَلَّ:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَآهُ اسْتَغْنَى. إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾[208]

إن أي إنسان متعلق قلبه بملذات الدنيا يجري وراءها، وما أن يمتلك شيئًا منها يغرق في سكرة الغفلة؛ فالتفكير في كسب المال والمقام أكثر مما ينبغي يجعل القلب عبدًا للدنيا الفانية.

وما أعظم البيان النبوي الذي يوضح هذا الأمر، إذ يقول رسول الله ﷺ :

«من جعل الهموم همًّا واحدًا، همَّ المعاد، كفاه الله همَّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أي أوديتها هلك»[209]

فالدنيا عندما تكون حاجزًا بين العبد وربه فإنها تؤدي إلى هلاك العبد معنويًا. وكلما استمرت غفلته، صار كمَن قال عنهم رسول الله ﷺ:

«يأتي على الناس زمان همتهم بطونهم وشرفهم متاعهم وقبلتهم نساؤهم ودينهم دارهم ودنانيرهم أولئك شر الخلق لا خلاق لهم عند الله».[210] فاللهم احفظنا أجمعين.

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ لأصحابه:

---

٢٠٨ العلق، ٦-٨.

٢٠٩ ابن ماجه، الزهد، ٢.

٢١٠ العجلوني، كشف الخفاء، ج٢، ص٣٩٩.

«فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم»[٢١١]

فالحذر الحذر من إيلاء هذه الدنيا الفانية أهميةً أكثر مما يجب، والحذر الحذر من انشغال القلب بها؛ فما الدنيا إلا قطرة في مُلك الله رب العالمين، وقد عبر عن ذلك رسول الله ﷺ بقوله:

«والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه- وأشار بالسبابة- **في اليم فلينظر بما يرجع»**[٢١٢]

ويقول ربنا ﷻ:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٢١٣]

فالدنيا ليست شيئًا مذكورًا في قلب الذين يعرفون هذه الحقيقة، وغاية هؤلاء الوحيدة هي مرضاة الله. وما أجمل قول يونس أَمْرَه:

لا الوجود يسعدني
ولا الفناء يؤسفني
بعشقك أستأنس وأتصبر
أنا الفقير إليك أنا المحتاج إليك

---

٢١١ البخاري، الرقاق، ٧.

٢١٢ مسلم، الجنة، ٥٥.

٢١٣ العنكبوت: ٦٤.

فالواقع أن شهوات الدنيا وأموالها- التي تُضِلُّ كثيرًا من العباد وتخدع الغافلين- لا تساوي أي قيمة عند أصحاب القلوب السليمة. فأولياء الله والمؤمنون الصالحون يضعون رضا الله تعالى نصب أعينهم دائمًا، ولا يحيدون مثقال ذرة عن طريقه، وهؤلاء في حال يقظة دائمة تجاه زخارف الدنيا وخداعها. يقول يحيى بن معاذ رحمه الله:

«العارف يضع الآخرة في يمينه والدنيا في شماله، ويحول قلبه إلى الحق ﷻ، ولا ينشغل بأي شيء آخر سوى الحق ﷻ».

ويقول مولانا جلال الدين رحمه الله:

«الدنيا هي الغفلة عن الله تعالى، فليست الدنيا أن تكون صاحب مال ونساء وأولاد ومتاع، بل الدنيا أن تنخدع وتغفل عن الحق ﷻ».

أي إن الاستغناء ليس ضد المال والملك والثروة، بل يجب أن يحذر القلب من الوجود والمشاغل كلها التي تجعل العبد يغفل عن ربه ﷻ.

وحب الرئاسة وطلب الملك من أهم المؤثرات التي تجعل القلوب تغفل عن الحق ﷻ، وصفحات التاريخ مملوءة بالظالمين الذين ارتكبوا كثيرًا من المظالم لحرصهم وطمعهم في الحكم وسعيهم للرئاسة. ولكن في تاريخ الإسلام توجد شخصيات قدوة ربطوا قلوبهم بالحق ﷻ، ولم يأسرهم هوى السلطة.

وكانوا يتنازلون عما في أيديهم من القوة والسلطة بمحض إرادتهم رغبةً في الإصلاح. وثمة نماذج فريدة في التاريخ يستحيل تكرارها، إذ تركوا خلفهم فضائل وحسن سيرة، منهم:

سيدنا الحسن رضي الله عنه حفيد رسولنا الأكرم ﷺ، فقد تنازل الحسن رضي الله عنه عن الخلافة بعد ستة أشهر حتى تتوحد الدولة الإسلامية، وترك هذا الأمر لمعاوية برضا حتى يُجَنِّب المسلمين أسباب الخلاف والشقاق السياسي، وليوقف أنهار الدماء النازفة بين المسلمين.

وأيضًا كان سيدنا سليمان عليه السلام يَعُدُّ نفسه من جملة الفقراء والمساكين لكي يخرج من قلبه حب المال والملك والسلطنة. وعندما كان ينهض في الصباح كان يذهب إلى الفقراء والمساكين ويجلس معهم في تواضع كبير، وكان يقول:

«**فقير يليق بالفقراء**».

وصفوة الكلام أن السعي كي لا تحتاج إلى أي شخص في الدنيا، واكتساب المال والملك من حلال ليس عيبًا أو نقصًا، بل صفة عظيمة لما ورد في قول رسول الله ﷺ:

«لَأَن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكفَّ الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».[٢١٤]

---

٢١٤ البخاري، الزكاة، ٥٠، ٥٣.

فالمؤمن القوي والغني ينفق أكثر، ويكفل أناساً أكثر، ويسارع أكثر في أعمال الخير؛ فيكون ممن قال عنهم رسولنا الكريم ﷺ:

«**خير الناس أنفعهم للناس**».[215]

وليس الخطأ أن يبحث المرء عن نصيبه من الدنيا، بل من يهب قلبه لها، ويهمل واجباته الدينية، ويصبح أسيرًا للدنيا بحرصه وطمعه. وينبغي ألا ننسى أن مكان المال هو الكيس وليس القلب.

ولا بد أن نراعي في هذا الأمر الأساس النبوي في قوله ﷺ:

«ازهد في الدنيا يحبكَ الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس».[216]

فاللهم اجعلنا ممن تحبهم وتُحبِّب الناس فيهم، وارزقنا استغناء نبويًّا تبعد به ما سواك عن قلوبنا، وخصِّص قلوبنا لرضاك ومحبتك وأمرك وطاعتك...آمين

أخلاق التجارة

٢١٥ السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ص٨.

٢١٦ ابن ماجه، الزهد، ١.

أخلاق التجارة

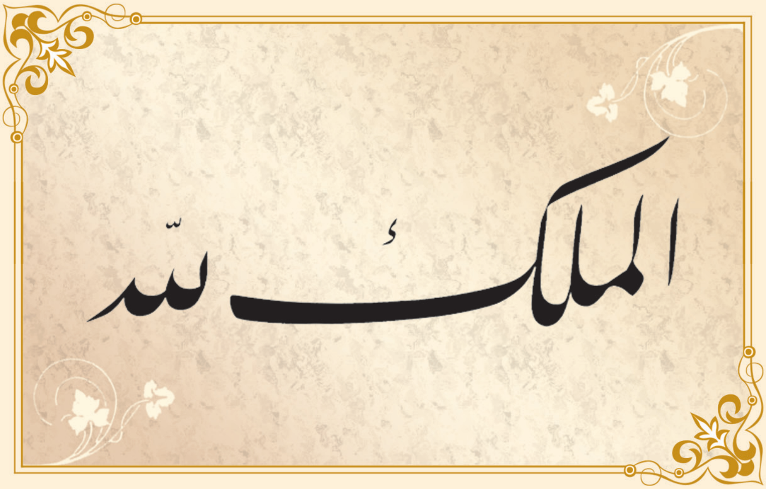

إننا مكلفون أن نكتسب المال من الحلال وننفقه في الحلال. والتاجر العارف الناصح هو الذي يداوم على تجارة الدنيا دون أن يهمل التجارة الأكبر منها وهي عمارة الآخرة، لأنها تجارة لن تبور، وهو الذي لا ينسى سعادة دار القرار فلا يحيد عن الصراط المستقيم.

ذات يوم مرَّ رسول الله ﷺ على صبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً. فقال:

«**ما هذا يا صاحب الطعام؟**»

قال: أصابته السماء يا رسول الله!. قال:

«**أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، مَن غشَّ فليس مني**».[217]

إن نظام الاقتصاد الإسلامي الذي يوضِّحه هذا الحديث الشريف قد أقام أساس التجارة على مفهوم خدمة الفرد والمجتمع بالصدق والأمانة. فالنشاط التجاري الذي يمكن أن نسميه انتقال المال من المنتج إلى المستهلك، والذي يتطلب السعي لتنمية رأس المال، والذي يواجه في الغالب احتمالاً لأضرار تصيب العمل، هو نشاط حلال بالطريقة التي تزيد فائدة المال وربحه، حتى إنه يُحَثُّ عليه ويُشجَّع مَن يقوم به. ولو قارنَّا كيف عبَّر رسول الله ﷺ عن هذا الأمر بلسانه الشريف حين قال:

«**تسعة أعشار الرزق في التجارة**»[218] لفهمنا بسهولة درجة هذا التشجيع.

ولا ننسى أن ركنين من أركان الإسلام الخمسة وهما: الحج والزكاة محصوران وخاصان بالمؤمنين الأغنياء، وهي إشارة في

---

٢١٧ مسلم، الإيمان، ١٦٤.

٢١٨ انظر: السيوطي، الجامع الصغير، جـ١، ص١١٣.

الوقت نفسه لتشجيع المؤمن على أن يكون غنيًّا من طرق مشروعة. وقد حثَّ رسول الله ﷺ على هذا الأمر إذ قال:

«اليد العليا خير من اليد السفلى»[٢١٩]

ومع ذلك يجب ألا ننسى في التجارة التي هي أهم وسيلة لاكتساب المال والثروة ذلك الحديث الشريف القائل:

«إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال»[٢٢٠]

لأن الحرص على اكتساب المال هو واحد من أخطر العوائق التي تضعف النفس. والحريص الطماع يشبه الإناء الممتلئ البطن ولكن فمه مفتوح دائمًا. مع أننا لو أردنا أن نفرغ ماء نهر في إحدى الأواني، ما الذي يستطيع أن يحمله أكثر من طاقته؟!

إن الطمع يشبه موقدًا أو مدفئة، كلما غذيته بالفحم والحطب لا يشبع ولا ينطفئ أبدًا، بل تزيد حرارته ولهيبه. وقد عبر عن ذلك رسول الله ﷺ فقال:

«لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[٢٢١]

إن الإنسان حريص دائم، لذلك فإنه لا حد للحيل والألاعيب

---

٢١٩ البخاري، الزكاة، ١٨.

٢٢٠ ابن حنبل، جـ٤، ١٦٠.

٢٢١ البخاري، الرقاق، ١٠؛ مسلم، الزكاة، ١١٦.

التي يقوم بها في التجارة، ولهذا خسر كثير من الأقوام.

وهذه الدنيا ممتلئة بكثير من أهل الغفلة الذين لا يعقلون. كما أن التاريخ لا يخلو من الغاصبين الذين يمتصون حقوق الفقراء والبؤساء والأيتام والأرامل والمحتاجين بسبب ثرواتهم الفاحشة التي لا حد لها، بدل أن يراعوا حقوقهم بالإنفاق والزكاة ومختلف أنواع الخير والحسنات.

فالدين ليس دعوة لجلب السعادة والراحة للبدن الذي هو حِمل على الروح، بل الدين دعوة لأن تصير روح الإنسان متحكمة ومسيطرة على بدنه وشهوته.

والتجارة بعد مرحلة ما يجب أن تضع اللِّجَام على أطماعنا وشهواتنا لكي لا نصاب بالخسران في الدنيا والآخرة إذا ما تجاوزت الحد. ويكون من الوهم والخيال البحث ببساطة عن التاجر في مجتمع مملوء بالمحتكرين والطماعين المتحكمين والمرتشين.

لقد أعلمنا الحق ﷻ في القرآن الكريم أن هلاك قوم مدين أصحاب الأيكة- قوم سيدنا شعيب عليه السلام - قد تحقق لفساد أخلاق التجارة إلى أقصى حد، كي يكونوا عبرة للأمم والأقوام من بعدهم إلى يوم القيامة. لذلك فإن أكل الحرام والغش في التجارة جُرمٌ وذنب عظيم حتى إنه كان سبباً في هلاك قوم عن بكرة أبيهم، وقد حذرنا رسول الله ﷺ في حديثه الشريف فقال:

«تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة، إن أعطي

رضي، وإن لم يعط لم يرض»[٢٢٢]

شهد رجل عند عمر بن الخطاب ﵁ بشهادة فقال له: «لست أعرفك ولا يضرك أن لا أعرفك، ائتِ بمن يعرفك». فقال رجل من القوم: أنا أعرفه، قال: «بأي شيء تعرفه؟» قال: بالعدالة والفضل، فقال: «فهو جارك الأدنى الذي تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجه؟» قال: لا، قال: «فمعاملك بالدينار والدرهم اللذين بهما يستدل على الورع؟» قال: لا، قال: «فرفيقك في السفر الذي يستدل على مكارم الأخلاق؟» قال: لا، قال: «لست تعرفه». ثم قال للرجل: «ائت بمن يعرفك».[٢٢٣]

إن المقياس الذي أشار إليه هنا سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ يقوم على أساس عدم الانخداع بالظاهر، والنظر إلى أفعال المرء وعلاقاته مع الناس. وهو إشارة إلى خطر التزكية من دون التعرض لامتحان المنفعة.

إن التجارة تعكس باطن المرء، أي كيفما كان باطنه، كذلك تكون تجارته.

والتاجر في الإسلام عندما يشتري شيئًا عليه ألا يبخسه عن عمد، وعندما يبيع شيئًا ينبغي ألا يستعمل عبارات تظهر الشيء أعلى من قيمته. وعليه ألا يخرج عن مستوى الأسعار القياسي مستفيدًا من

٢٢٢ البخاري، الرقاق، ١؛ ابن ماجه، الزهد، ٨.
٢٢٣ البيهقي، السنن الكبرى، جـ١٠، ص٢١٣.

ضعف المشتري، وألا يدخل في الغبن الفاحش، وألا يغش في الميزان والمقياس، وألا يتعامل بالسوق السوداء والربا. وينبغي له تجنب الحلف والقسم وألا يبيع أو يشتري الأشياء الحرام التي تضر بالمجتمع.

وما أجمل قواعد التجارة التي وضعها رسول الله ﷺ في حديثه الشريف عندما قال:

«إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارًا، إلا من اتقى الله، وبر، وصدق»[٢٢٤]

وفي قوله:

«الحلف مُنفِّقَةٌ للسلعة، ممحِقةٌ للبركة»[٢٢٥]

أي يجب إعلام البائع الذي لا يعرف قيمة ما يملكه بقيمة ما يملكه، فالغبن هو الاستفادة من عدم معرفة البائع وخبرته وسذاجته أما الذين كانت غايتهم اكتساب رضا الحق تعالى وملأت الخشية منه قلوبهم فإنهم يكونون دقيقين حريصين في هذا الشأن. وقد سأل الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان المرأةَ عن ثمن لباس مصنوع من الحرير أراد أن يشتريه لنفسه. فقالت المرأة: بمئة درهم يا إمام. فقال لها: لا، بل هو أغلى من ذلك. فزادت المرأة مئة درهم أخرى وهي متعجبة. ومرة أخرى لم يقبل الإمام، فزادت المرأة مئة درهم أخرى

٢٢٤ الترمذي، البيوع، ٤.

٢٢٥ البخاري، البيوع، ٢٦.

ثم مئة أخرى.

وعندما قال الإمام أبو حنيفة: «يا أمة الله لا؛ إنه يساوى أكثر من أربعمئة درهم» فلم تستطع تلك المرأة أن تمنع نفسها من أن تقول: «أتسخر مني يا إمام؟»

وعند ذلك نادى الإمام على واحد ممن يفهمون هذا العمل ليُعلِم المرأة السعر الحقيقي لما تملكه. وجاء هذا الرجل وثمَّن الثياب بخمسمئة درهم، وعندئذ اشترى الإمام بهذا السعر.

ذلك لأنه كان يعرف أن الابتعاد عن الصدق وإخفاء عيوب الأشياء وعدم مراعاة الدقة في المكيال والميزان تصيب الإنسان بعواقب وخيمة.

وقد تربى المجتمع في العصر العثماني بهذه الأخلاق، فاستطاع أن يؤمِّن سعادة الناس وسكينتهم حتى دهش أهل الكفر وحاروا. وهذه الحادثة لراهبَين بعد فتح مدينة إسطنبول عندما كانا يدوران من أجل مراقبة التجار العثمانيين تعد أجمل نموذج يعكس تلك الحال. فقد نهض الراهبان في ساعات الصباح المبكرة وذهبَا إلى بقَّال وطلبَا أن يشتريا عدة أشياء. فقال لهما البقال: لقد استفتحت، خذا من جاري الذي لم يستفتح. وعند ذلك ذهبا إلى بقال آخر فقال لهما مثلما قال الأول. فذهب الراهبان إلى بقال آخر فأُجيبَا بالجواب نفسه. وفي النهاية اشتريا من أول بقال ذهبا إليه.

وهكذا فإن الناس في ذلك العصر قد تربوا ونشأوا في محضن

أخلاقي يجعل الإنسان معطاءً ومُحبًّا للغير على هذا النحو. وفي هذا المحضن الأخلاقي الذي هو من أخلاق الإسلام كان كل فرد يفكر في الآخر. لذا فإن الغش جرم عظيم عند أي مسلم، فالمسلم لا يكذب ولا يغش. أما الانخداع والسفه فهو علامة حمقٍ، وذلك لا يليق بأي مسلم. فالرسل والأنبياء هداة البشر كانوا يتحلون بالصدق والفطنة. والمسلم الذي يسير على هديهم عليه أن يكون فطنًا يقظًا. وقد أشار الحق ﷻ في هذا الشأن إلى عدم الانخداع بالمخادعين، فقال:

﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفا﴾[226]

وقد ذكرهم رسول الله ﷺ في حديثه الشريف مهدداً فقال:

«**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**». فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال أبو ذر رضي الله عنه خابوا وخسروا. من هم يا رسول الله؟ قال:

«**المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»[227]

والمحتكرون الذين يحتكرون السلع ويبيعونها في السوق السوداء بسعر غالٍ مذمومون في نظام الإسلام الاقتصادي.

وهؤلاء قد دعا عليهم رسول الله ﷺ في حديثه الشريف فقَالَ:

---

٢٢٦ النساء: ٥.

٢٢٧ مسلم، الإيمان ١٧١.

«الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون» [228]

فالإسلام يوضح القواعد المتعلقة بالتجارة في كيفية الربح وكيفية الإنفاق، لذا حرم الله تعالى المعاملات التي تتم بعيداً عن التراضي والموافقة بين الطرفين فقال في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ [229]

لقد احتوت عبارة [ولا تقتلوا أنفسكم] على معنى مهم ودقيق، وفيها تحذير من أن نمحو الحياة الروحية وأن نكون من أهل جهنم. وهي تلفت الانتباه إلى أن بعضًا من الدعاوى والجنايات يستند في الأصل على الحرص على الكسب، وأكل المال بغير حق.

فمَن أراد الوقاية من هذه المهلكات فلا بد له أن يبقى داخل قواعد التجارة التي وضعها الإسلام وعيَّنها، وخاصة تجنب الربا، وهو أهم مسألة في هذا الأمر.

فالربا استثمار يتجنب المخاطرة والتنافس في استعمال رأس المال، وهو ببساطة يكون سببًا لكي يصير الغني أكثر ثراء، ويصبح المحتاج أكثر احتياجًا.

قال النبي ﷺ محذرًا من الربا في خطبة الوداع ليحرم كل أنواع الربا:

---

٢٢٨ ابن ماجه، التجارات، ٦.

٢٢٩ النساء: ٢٩.

«ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم، لا تظلِمون، ولا تُظلَمون».[٢٣٠]

كما أن الآيات الكريمة قد حملت تهديدًا إلهيًّا لمن يأكلون الربا حين قال الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[٢٣١]

وما أخوف التهديد في الآية الكريمة التي توضح أن القهر الإلهي يتجلى ويظهر بسبب الربا حين يقول ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَ لَا تُظْلَمُونَ﴾[٢٣٢]

فَمَن مِنَ المخلوقات يُحارب الخالق ﷻ ورسوله ﷺ أشرف

٢٣٠ أبو داود، البيوع، ٥/ ٣٣٣٤.

٢٣١ البقرة: ٢٧٥-٢٧٦.

٢٣٢ البقرة، ٢٧٨-٢٧٩.

الخلق ويخرج منتصرًا؟

ولو تعامل أي مؤمن بالربا فإنه يخسر ماله ويُضعِف إيمانه. أما الفاسق فإن ماله يزداد، لأنه عندما ذهب في طريق الخطأ استحق العقاب أكثر؛ أي أن هذا الطريق يجعله يكسب أكثر في الدنيا. ومثل هؤلاء ينالون مهلة حتى تأتي لحظة العقاب التي لا مفر منها، وذلك لأن الحق ﷻ يمهل ولا يهمل.

يقول جابر رضي الله عنه: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومُوكله وكاتبه وشاهديه وقال: «**هم سواء**».[٢٣٣]

وما أجمل حال أبي حنيفة النعمان ذلك الإمام الكبير الذي لم يستفد حتى من ظل شجرة الدائن لأن ذلك يشبه الربا والفائدة.

وتوجد حِكَم وأسباب كثيرة مؤكدة لمنع الربا، ويأتي على رأسها أمور مثل أنه زيادة بلا عمل، ويفتح الطريق لزيادة السعر التقليدي، ويضعف الصفات الإنسانية والأخلاقية مثل التعاون والمساندة والحب والرحمة والشفقة، ويشعل الأنانية، ويلهب الحرص والطمع في اكتساب المال والنفوذ.

والإسلام الذي حرَّمَ الربا في مواجهة كل هذه الأسباب قد حثَّ على القرض الحسن في سبيل الله تعالى، وعدَّ ذلك القرض الذي يُعطَى لشخص أكثر فضلاً من الصدقة حتى وإن قل. ورغم

٢٣٣ مسلم، المساقاة، ١٠٦.

هذه الأحوال كلها فإن أصحاب العمل الشرفاء والتجار الصادقين والأمناء ظلوا قلة من حيث العدد، وربما من أجل ذلك فقد أخبر رسول الله ﷺ التجار الأمناء الصادقين عن المكافأة الكبيرة التي تنتظرهم فقال في حديثه الشريف:

«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء»[٢٣٤]

وكان الإمام أبو حنيفة رجلاً غنيًا صاحب ثروة ضخمة وكان يشتغل بالتجارة. ولكنه لانشغاله بالعلم كان يسيِّر أعماله التجارية عن طريق وكيل له، وكان يفتش بنفسه على التجارة التي يقوم بها هذا الوكيل لتكون دائمًا في دائرة الحلال، وكان دقيقًا في هذا الشأن، حتى إنه في إحدى المرات أرسل حفص بن عبد الرحمن ليبيع قماشاً له، وقال له:

«يا حفص، إن في هذا القماش عيوب كذا وكذا. فأخبر المشتري بهذه العيوب وبِع القماش بسعر رخيص».

فباع حفص القماش بالسعر الذي طلبه الإمام، ولكنه نسي أن يوضِّح العيوب التي فيه للمشتري كما قال له الإمام. وعندما علم الإمام أبو حنيفة بهذا الأمر قال لحفص: «هل تعرف من اشترى منك ذلك القماش؟» فلما أخبره حفص أنه لا يعرف من اشتراه، وزَّع الإمام المال كله صدقة على الفقراء، لأنه كان يعيش ويتحرك ضمن

٢٣٤ الترمذي، البيوع، ٤؛ ابن ماجه، التجارة، ١.

مقاييس التقوى في شأن الحلال والحرام، تلك المقاييس التي بيَّنها رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص عندما قال له:

«**نعم المال الصالح للرجل الصالح**».[٢٣٥]

لأن مراعاة الحلال والحرام ضرورة لتطهير المال الذي هو أمانة في الدنيا يُحاسَب عليها المرء في الآخرة.

وكان والدي موسى أفندي رحمه الله يؤكد على أهمية اللقمة الحلال وبركة هذا الأمر في مواجهة الحرام في التجارة، فقال:

«كان لي جار أرمني أسلمَ بفضل الله تعالى. وذات يوم عندما سألته عن سبب إسلامه قال: أسلمت بسبب أخلاق التجارة الجميلة للأستاذ ربيع جاري في الحقل في منطقة آجي بادم. كان الأستاذ ربيع يبيع الحليب ليؤمن معيشته. وذات مساء جاء إلي وقال: تفضل، هذا الحليب لك. فقلت: كيف ذلك؟ أنا لم أطلب الحليب! فقال: لقد رأيت واحدة من الأبقار تدخل إلى حديقتك، وأخذَتْ ترعى هناك، فهذا الحليب هو ملك لك. وسأظل أحضر لك الحليب حتى لا يبقى أثر من العشب الذي أكلته تلك البقرة من حديقتك. ومع أنني قلت له: يا جاري هل تهذي؟ لقد سامحتك في العشب الذي أكلته البقرة، إلا أن الأستاذ ربيع الجار المسلم قال: لا، ذلك لا يكون أبدًا، ذلك الحليب حقك. وظل يحضر لي الحليب حتى

٢٣٥ أحمد، المسند، ٤، ١٩٧.

انتهى العشب الذي أكلته البقرة من جسمها. فكان لهذا السلوك من ذلك الإنسان المبارك أثر كبير في نفسي، ورفع أستار الغفلة عن بصيرتي، وسطعت شمس الهداية في داخلي، وقلت لنفسي: إن دين إنسان ذي أخلاق سامية كتلك الأخلاق لهوَ أفضل دين. ولا شك في صدق الدين الذي يربي بشرًا طاهرين وأتقياء حافظين للحقوق كهذا الرجل. وعندها نطقت كلمة الشهادة وأصبحت مسلمًا».

فما أتعس حياة الغافلين الذين وصفهم رسول الله ﷺ في حديثه الشريف عندما قال:

«يأتي على الناس زمان، لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام»[٢٣٦]

والحق أن العقوبات التي تنشأ من الإخلال بالقواعد التي وضعها الدين في تجنب أكل المال الحرام لا تكون قاصرة على من ارتكب هذا الذنب في الآخرة فقط، بل إن البلاء الذي ينشأ من هذا الأمر يشمل الأجيال والأحفاد الذين لم يكن لديهم دخل في اكتساب هذا المال الحرام في الدنيا أيضًا.

ولا تكون مرارة هذا الفعل في الآخرة فقط، بل تظهر في الدنيا أيضاً. وأكثر الذين ورثوا ثرواتهم من مال حرام لم يستطيعوا أن يسلكوا طريق الصواب، لأن هناك سرًّا في المال، وهو أنه يذهب

---

٢٣٦ البخاري، البيوع، ٧.

من الطريق الذي جاء منه، فلو أن المال جاء من طريق حرام لأنفقه الورثة بعد ذلك في طُرق سيئة.

فالمال يشبه الحية، فكما أن الحية تدخل في الثقب الذي خرجت منه، فإن محل إنفاق المال يكون مرتبطاً بصفة تحصيله واكتسابه.

وما أعظم الدعاء الذي جاء على لسان موسى عليه السلام، ذلك الدعاء الذي يبيِّن أن المال الذي لا يستعمل في طريق الإيمان والتقوى يجر صاحبه إلى الفسق والكفار؛ يقول الحق على لسان موسى:

﴿**وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ**﴾[٢٣٧]

فعجبًا للذين يرفضون التجارة الصادقة بحجة أنهم لن يستطيعوا أن يحصلوا على ربح، فهؤلاء غافلون تعمى أبصارهم عن الحقيقة وينكرون نظام الأرزاق الإلهي. ويدُلُّ على التفكير الخاطئ لهؤلاء أن أبا بكر رضي الله عنه الذي بذل ماله عدة مرات في سبيل الله تعالى ورسوله، والذي أنفق ماله كله، ولم يتخل عن التجارة الصادقة طرفة عين، ما كان يومًا بين فقراء الصحابة رضي الله عنهم. فمن الثابت أن أبا بكر رضي الله عنه ظل على الدوام من أغنى الصحابة وأكثرهم ثراء. ومع أنه أنفق كل شيء في سبيل الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم عدة مرات، إلا أنه كان يعود مرة

٢٣٧ يونس: ٨٨.

أخرى صاحب مال وثروة لحصوله على البركات من عند الله ﷻ.

فنحن مأمورون أن نكتسب المال من طرق حلال وننفقه في طرق حلال. والتاجر العارف الناصح هو الذي يداوم على تجارة الدنيا دون أن يهمل التجارة الأكبر منها وهي عمارة الآخرة، لأنها تجارة لن تبور ولا تنفصل عن السعادة الأبدية. والآية الكريمة التالية تعكس في أجمل صورة الحياة لمثل هؤلاء فيقول ربنا ﷻ عنهم:

﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾[٢٣٨]

إن أهل التجارة بهذا الشكل هم الذين يعيشون سر التجارة التي (لَنْ تَبُورَ) التي ذُكِرَت في آية كريمة أخرى، أي الذين يأخذون نصيبهم من التجارة الحقيقية. وقد وصفهم الحق ﷻ في كتابه الكريم فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراًّ وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ. لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٢٣٩]

فيا رب اجعلنا نعيشُ في سر هذه الآية الكريمة، واجعلنا نقرأ

---

٢٣٨ النور: ٣٧.

٢٣٩ فاطر: ٢٩-٣٠.

الكتاب الإلهي بعيون قلوبنا، واجعل كسبنا من الحلال، واجعلنا ننفق ما أنعمت به علينا في حلال دون إسراف يا رب العالمين.

ويا رب اجعل إخواننا- أهل التجارة- أفرادًا صالحين لبلادنا وأمتنا، وسلِّم المؤمنين من ألسنتهم وأيديهم، ويسِّر لهم الأعمال الصالحة التي تكون وسيلة للرحمة والبركة في الدارين...آمين.

القرض الحسن والإنفاق في سبيل الله

إن الروح والبدن والمال وغيرها من الأشياء أمانة لن تبقى إلى الأبد في أيدينا، فلا شك أننا ذات يوم سنودِّعها كلها، وسيعود كل شيء إلى صاحب الملك الحقيقي، ألا وهو الله عز وجل. إن هذه الأمانات من نعم الدنيا التي أنعم الله بها علينا لا بد أن تُوضَع في أماكنها في سبيل الله تعالى حتى نستطيع أن ننال الفوز العظيم.

إن هذا الكون الذي خُلِقَ بيد القدرة الإلهية إنما هو مكان إقامة فانٍ. وعلى المرء أن يتفكر ويتدبر في هذه الأيام التي يقضيها في هذه الدنيا التي هي دار امتحان، لأن النعم التي ستبقى معنا هي الأعمال الصالحة التي تنتقل معنا إلى الحياة الأبدية. لذلك فإن الله ﷻ الذي أراد أن يتزيَّن عباده بهذه النعم قد وضَّح في كثير من المواضع في القرآن الكريم الثواب العظيم للأعمال الصالحة التي تكون في سبيل رضاه ﷻ.

فالله تعالى قد حثَّ على الصدقة والإنفاق وغيرهما من الأعمال التي تجلب اللطف والكرم والإحسان. وأمر الحق ﷻ أصحاب الثروة في كل حال ووقت بالعبادات المالية مثل الزكاة والعشر والأضاحي. وإلى جانب هذه المساعدات المفروضة والواجبة، فإنه توجد فضائل ترتبط بالمروءة وشعور الإيمان، والقرض الحسن من تلك الفضائل.

إن الله ﷻ يقبل كل أنواع الصدقة والإنفاق التي تبذل من أجل رضاه ويعدها قرضًا حسنًا أعطي لذاته العلية. ومقابل هذا القرض فإن الله تعالى قد وعد أن يرده أضعافًا كثيرة. لذا قال الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[240]

لهذا علينا أن نسعى في هذا الشأن لبذل الصدقات، وإسعاد المحتاج ليصبح هذا ضمانًا لنا لحظة خروج الأنفاس الأخيرة لمواجهة الموت الذي سيأتينا فجأة.

ويجب أن نعلم أن السعادة أو التعاسة في هذه الدنيا ترتبط بقدَر الله تعالى. والمؤمنون الحقيقيون كلما أعطاهم الحق تعالى نعمة من النعم لم يتكبروا أو يطغوا في الأرض، ولم يكونوا من الغافلين الذين لا ينفقون النعم التي أنعم الله بها عليهم في مرضاته. وهؤلاء المؤمنون قد فهموا القرض الحسن وطبقوه في معنيَين هما:

١- أنهم يعطون القرض للعباد أصحاب الحاجات.

٢- أنهم أيضًا يقرضون الله تعالى عن طريق الإنفاق.

نعم إن أحد معاني القرض الحسن هو إقراض الله تعالى بالشكل الذي ذكره القرآن الكريم، وهذا أيضًا يتم عن طريق الإنفاق على أصحاب الحاجات وبذل الخدمة والعمل عليهم في سبيل الله تعالى، لأن الحق ﷻ قد أوضح أن هذا القرض كأنه قرض له ﷻ وذلك للحث عليه وبيان ثوابه العظيم؛ أي إن الله تعالى قد طلب بنفسه القرض من عباده. وقد قال الحق ﷻ في كتابه:

٢٤٠ الحديد: ١١.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[241]

وقد أكرم الحق ﷻ بني آدم بإحسان لا مثيل له إذ جعل الإنفاق على عباده رغبة وطمعًا في رضاه العظيم كأنه قرض حسن. ولا بد أن يكون إعطاء هذا القرض من قبيل الإنفاق في سبيل الله دون سواه بنية خالصة دون انتظار أية منفعة شخصية في هذه الدنيا ودون رياء أو سمعة ودون انتظار لشكر من أحد.

وقد بيَّن الحق ﷻ في كتابه الكريم ما قام به سيدنا علي والسيدة فاطمة الزهراء ﵄ من الإنفاق في سبيله فقال:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً. إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً. فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[242]

وهذه هي النقاط المتعلقة بالإنفاق والتي وردت في الآيات الكريمة:

---

٢٤١ المزمل: ٢٠.

٢٤٢ الإنسان: ٨-١١.

١. الإيثار، أي يفضل المؤمن أخاه على نفسه.
٢. الإنفاق، يجب أن يكون في سبيل الله تعالى وليس لغايات دنيوية فانية.
٣. الوقاية بالإنفاق من هول القيامة وشدتها.
٤. الذين أنفقوا في سبيل الله تعالى بنية خالصة سيقبلهم الله تعالى وتبيض وجوههم يوم القيامة.
٥. المطلوب من المؤمنين أن يعملوا هذا النوع من الأعمال الصالحة.

فالحق ﷻ سيمنحهم مقابل هذا الدَّين الذي أقرضوه إياه أضعافًا كثيرة. ويبيِّن الحق ﷻ فضائل القرض الذي يُعطى له ﷻ فيقول:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[٢٤٣]

وعن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: **﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَه﴾** قال أبو الدحداح الأنصاري:

٢٤٣ المائدة: ١٢.

وإن الله ليريد منا القرض؟

فقال رسول الله ﷺ: «**نعم يا أبا الدحداح**».

قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله رسول الله ﷺ يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي. وكان حائطه له فيه ستمئة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها.

فجاء أبو الدحداح فنادى: يا أم الدحداح، قالت: لبيك!

قال: اُخرجي من الحائط فقد أقرضته ربي ﷻ

فقالت زوجته: ربح البيع أبا الدحداح! وبعد ذلك عمدت إلى صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم.[٢٤٤]

وهكذا عاش مجتمع المؤمنين في سعادة وهدوء وسكينة دائمة، وحافظوا على دنياهم وآخرتهم في عصر بلغ فيه هذا الشعور والفضيلة الذروة.

والحادثة التالية صورة لافتة للنظر توضح تلك الحقيقة:

يَحكي إيليا قدوري في نهاية كتابه حول سياسة إنجلترا في الشرق الأوسط في نهاية العهد العثماني أن شرق الأناضول في نهاية القرن التاسع عشر قد أصابه قحط شديد مخيف. وعند ذلك أرسل الإنجليز جاسوسًا إلى هناك لإثارة التمرد على العثمانيين في

---

٢٤٤ انظر: القرطبي، التفسير، البقرة، ٥٤٢؛ الطبري، التفسير جـ.٢، ٨٠٣؛ الحاكم المستدرك، جـ.٢، ٢٤.

المنطقة التي أصابها القحط. والحقيقة التي أدهشت الجاسوس نتيجة الدراسة التي أجراها عبَّر عنها في تقريره بقوله:

«نعم يوجد قحط هنا، ولكن ليست هناك مجاعة. فكل فَرْد يرعى الآخر ويهتم به ويساعده، ولهذا فإن القحط لم يتحول إلى مجاعة. فلا يمكن إثارة أي عصيان بسبب القحط في بنية اجتماعية كهذه».

ولا شك أن هذا المستوى الراقي للأفراد هو مكافأة دنيوية وبركة للذين استطاعوا أن يعيشوا في إطار الآيات الكريمة مراعين الآخرين بالإنفاق عليهم في أزمنة الشدة والضيق وفي اللحظات التي وصلت فيها الحاجة والفاقة إلى مستوى شديد.

والله تعالى ينبه عباده ألا يظهروا الغفلة والضعف والرخاوة في هذا الشأن قائلًا لهم:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٢٤٥]

أي إن الحق ﷻ يطلب التضحية من عباده في أوقات الضيق التي يتعرض له الإسلام والمسلمين. وقد سمى الحق تضحيات عباده

٢٤٥ الحديد: ١٠.

تلك بـ «**القرض الحسن**» في التعبير القرآني.

إن الروح والبدن والمال وغيرها من الأشياء أمانة لن تبقى إلى الأبد في أيدينا، فلا شك أننا ذات يوم سنودِّعها كلها، وسيعود كل شيء إلى صاحب الملك الحقيقي، ألا وهو الله ﷻ. فلا بد أن تُنفَق هذه الأمانات في سبيل رضا الله لأنه سبحانه وتعالى سيستلمها منا في كل الأحوال.

فعندما ننفق فإن الحق سبحانه وتعالى الذي له خزائن السموات والأرض يقبل هذا الإنفاق ويعده كأنه قرضًا له ا، ويعوضنا عنه أضعافًا كثيرة.

أما عندما لا ننفق مما أعطانا الله تعالى، فإننا لا نفقد أي شيء مما في أيدينا ولكننا سنتحمل وزر هذا المال. لهذا فإن رسول الله ﷺ ينبه الذين يقضون عمرهم وهم بعيدون عن الإنفاق في سبيل الله في حديثه الشريف الذي رواه مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ألهاكم التكاثر، قال:

«**يقول ابن آدم: مالي، مالي. قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟**»[٢٤٦]

وما أجمل قول مولانا جلال الدين رحمه الله في هذا إذ يقول: «عندما يقبض ملك الموت روح الغني الغافل ويوقظه من حلم

٢٤٦ مسلم، الزهد، ٣.

الحياة، يضحك هذا الغني حتى من نفسه ندامةً لأنه ضيَّع حياته من أجل مال لم يكن يملكه في الحقيقة».

عن عائشة ﵂: أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها**»؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: «**بقي كلها غير كتفها**»[247]

أي تصدقوا بها إلا كتفها، فقال ﷺ: بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها.

والحق أن رأس مال الإنسان في الأساس هو الإدخار من حسنات الخير من أجل الحياة الأبدية.

إن القدرة على البقاء بعيدًا عن العوالق الفانية والشهوانية التي تفسد توازن القلب والتي يسببها تعلقه بمتاع الدنيا تكون ممكنة فقط بنور الكرم وحب الآخرين.

وقد ذكر الحق ﷻ الصدقة بين العبادات التي يتحسر عليها الإنسان لحظة فراقه الدنيا، والحال الروحية التي سيعيشها من أهمل أداء تلك العبادة عندما يحين موته، فقال في كتابه الكريم:

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[248]

ولهذا فإن الإنسان بسبب الطمع وحب الدنيا يبتعد عن الإنفاق في سبيل الله، ولا يفكر أنه ذات يوم سيترك كل ما يملكه لمن

---

٢٤٧ الترمذي، القيامة، ٣٣.

٢٤٨ المنافقون: ١٠.

يخلفه، وسوف يكون مفلسًا في الآخرة عليه وزر وعذاب كل ذلك؛ لأن أول الأسئلة يوم الحساب الكبير في الآخرة هي عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ لذلك قال رسول الله ﷺ:

«**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**»[٢٤٩]

وقد أدرك العثمانيون هذه الحقيقة، فكانوا يتسابقون دائمًا في فعل الخير، وكانت المؤسسات التي تلبي كل أنواع الحاجات في هذا السباق هي الأوقاف. وإلى جانب هذه المؤسسات كانت تشتهر «**أحجار الصدقة**» التي توضع في بعض الأحياء ومداخل مساجد إسطنبول القديمة حتى لا يُترَك سكان هذه الأحياء والمصلين في هذه المساجد في ضيق وحاجة وعوز، وحتى لا تتأذى مشاعر هؤلاء السكان الذين لا يطلبون أي شيء من أحد لتعففهم.

وكانت هذه الأحجار شاهدة على التسابق في الخير، وعلى أكبر خدمة في كل الأوقات. وكان الناس في وقتها يتركون أكياس نقودهم في الحفرة التي قمّتها حجر الصدقة، وذلك في ظلمة الليل حتى يكون لهم في الإنفاق فضيلة «**لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**».

وبعد ذلك كان يأتي فقراء الحي الفضلاء ويأخذون على قدر

٢٤٩ الترمذي، صفة القيامة، ١.

حاجتهم، ولا يتعرضون لما زاد عن حاجتهم. ويأتي أيضًا الذين لا يسألون الناس رغم حاجتهم ليأخذوا النقود في ساعات الليل المتأخرة، ولا يأخذون إلا على قدر حاجاتهم.

وقد كتب أحد السياح الفرنسيين عن إسطنبول في القرن السابع عشر فقال:

«راقبت طوال أسبوع أحد الأحجار التي توضع بها النقود، ولكني لم أرَ أحدًا يأتي ليأخذ الصدقة منها».

لذا يجب أن يوضع أمام أعيننا هذا الدستور القرآني الخالد:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[250]

﴿وَفِي أموالهم حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [251]

ويجب أن نتسابق دائمًا لفعل الخير الذي يمتد من أحجار الصدقة حتى الأوقاف، لأننا يجب أن نحمي شعور المحتاجين المتعففين. ويجب أن نحافظ على الإخلاص والتجرد الذي كان في الأيدي التي كانت تمتد إلى حجر الصدقة لتعطى أحيانًا، ولتأخذ أحيانًا أخرى كما كان الحال في الأمس.

وعلينا أن نسجد سجدة شكر لربنا ﷻ الرزاق إحسانًا منه وكرماً.

---

٢٥٠ المعارج: ٢٤-٢٥.

٢٥١ الذاريات: ١٩.

ويجب أن يكون مقياسنا الدنيوي والأخروي هو قول النبي ﷺ:

«**خير الناس أنفعهم للناس**».[252]

موقنون بتلك الحقيقة الخالدة التي عبرت عنها الآية الكريمة في قوله سبحانه:

﴿**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾[253]

أي إن الحق ﷻ قد أكرمنا بأن جعل الخير والحسنات التي سنقابلها بالنعم التي أنعمها علينا كأنها قرض اقترضه منا لنفسه. وهذا التجلي هو من ناحية أخرى تتويج لنعم الله ﷻ بنعم الله ﷻ.

أي إن الله تعالى هو الذي أعطى نعمًا لا تُحصى ولا تُعد في الحقيقة، ولكن الذين يأخذونها هم العباد، والذين يستفدون منها هم العباد، لذلك فإن الإنسان هو المدين الحقيقي والحق ﷻ هو الدائن.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«كل الذين في السموات والأرض يطلبون كل شيء منه، لأن الجميع يدين بوجوده له».

والمسلم مدين للحق ﷻ أمام هذا الكرم والعطاء الجزيل الذي

---

٢٥٢ السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ٨.

٢٥٣ سبأ: ٣٩.

لا يعد ولا يُحصى، لأنه نال صفة أن يكون أشرف المخلوقات، ونال إحسانًا وعطفًا بأن يكون في دين الإسلام بعد ذلك، وأن يكون من أمة سيدنا محمد ﷺ . كما أن كلَّ مسلم مدينٌ لسيدنا محمد ﷺ الذي هو وسيلة النجاة ومرشد الهداية الوحيد في الطريق نحو الخلود. وهو مدين أيضًا للصحابة الكرام وعظماء الإسلام الكبار الذين عكسوا عباداته ﷺ ومعاملاته، وكمال تصرفاته، وسلوكياته الظاهرة والباطنة على الإنسانية كلها مثل الأقمار التي تعكس أشعة الشمس. وهو مدين لوالديه ومدين لأسرته.

أما أداء هذه الديون فيمكن أن يتحقق بأن يعيش الواحد منا كأنه قرآن حي، وذلك عن طريق التخلق بصفات الله ﷻ، وبأخلاق رسوله ﷺ. وشكر الله تعالى وحمده دَينٌ في رقبة كل عبد من العباد.

ويجب أن نعلم أن القلوب لو ظلت بعيدة عن رضا الحق ﷻ، وضاعت في الشهوة الفانية أمام هذا القدر من النعم والعطايا، تكون قد بدأت في فقد شرفها وخاصيتها الإنسانية. وعلى هذا النحو فإن الذين يعيشون خارج أوامر الله تعالى ونواهيه، وتعظم في عيونهم تلك الجماليات المؤقتة، فإنهم ينقادون دائمًا للدناءة والانحطاط والصغائر. والذين ينسون سر «**أحسن تقويم**» ينحطون إلى مكانة الأذلاء الذين يقبلون القرض والعطاء من مخلوقات أقل كثيرًا منهم وأفقر منهم وأكثر احتياجًا وعجزًا.

وصفوة الكلام أن الذين لم يستطيعوا أن يدركوا الفرق يضيعون

جوهرهم الحقيقي الأصيل. وقد تحير مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله من حال أمثال هؤلاء فقال: «ما هذا الشيء المُحير؟ هل تطلب الشمس قرضًا من ذرة، وهل يطلب نجم الزهرة الصهباء من كوكب صغير؟ وا أسفاه عليك لأن روحك لم تعرف ما قيمتك، ولأن روحك لا تعرف الأوصاف بمعناها الكامل. لقد سُجنت في عالم السببيات والصفات، أنت شمس ولكنك ظللت مربوطًا مغلول الأيدي».

إن مولانا في هذه الأبيات يشبه الإنسان بشمس معنوية، ومع هذا فإن الإنسان يهرع خلف المتع الفانية ويبحث عن السعادة في الدنيا دون أن يفكر أن يأخذ النور والفيض من الله تعالى مثل الشمس التي تطلب القرض من الذرة. فكيف تكون الشمس شمسًا وتكون محتاجة إلى الذرة؟

إن روح الإنسان أيضًا نور رباني تحمل سرَّ قوله تعالى:

﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾[٢٥٤]

ولكن أكثر الناس يعيشون غافلين عن تلك الحقيقة لا يعلمون سمو تلك الروح وقيمتها، وهؤلاء يضحون بتلك النعمة الغالية والمقدسة والأمانة الإلهية التي وُهبت لهم مقابل متع مادية فانية، ويعشقون الحياة في هيكل البدن فقط. ويسقطون في دهاليز الغضب

٢٥٤ ص: ٧٢.

والشهوة والشهرة والمتع الجسدية. وقد فني هؤلاء بمتع النفس وتلبية رغباتها.

وكل عبد في هذا الموقف عليه أن يعلم قدر نفسه، وأن يعرف نعم الله عليه التي لا تحصى وبخاصة سر «**أحسن تقويم**»!

وعليه ألا يسقط أسيرًا في قبضة المتعة الدنيوية المؤقتة التي لا أمان لأي منها! وألا يبحث عن السعادة في الرغبات الشهوانية، والمحبات الفانية. ولكن عليه أن يبحث عن كل شيء في نفسه وفي قلبه هو. فعلينا أن نكون على استعداد دائم لتأدية أمانة الإيمان والخروج إلى رحلة الآخرة بإرادتنا بإذن ربنا قبل أن نخرج من هذه الدنيا رغم أنوفنا مجبرين.

فيا ربِّ! اجعل لقلوبنا نصيبًا من بحر كرمك الذي لا ساحل له. ومُنَّ علينا بفضيلة القرض الحسن وعبادة الإنفاق التي طلبتها من عبادك لذاتك العلية. ويسِّر لنا جميعا أداء مسؤولياتنا وديوننا كلها المادية والمعنوية.

وأنعم علينا بآذان تستطيع أن تسمع آهات الأيتام والمحتاجين والبؤساء وأنَّاتهم، وقلبًا يستطيع أن يشعر ويحس بهم. آمين!

الدَّين والاستدانة

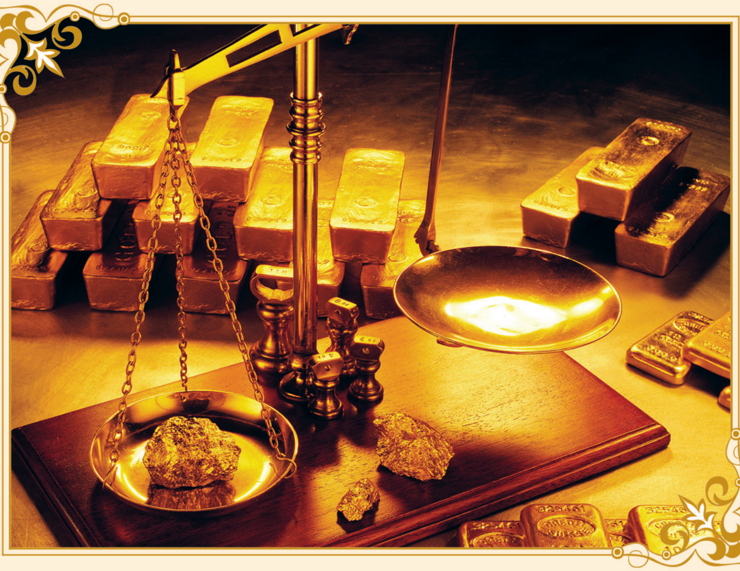

علينا أن نحيي عبادة الإقراض مثل الفضائل الإسلامية الأخرى. وعندما ننتقل غدًا إلى دار البقاء فلن تبقى فرصة كهذه في يد الغني ولن تبقى حاجة كهذه في يد المحتاج أيضًا. ومَن يكون في مثل هذه الحال، عليه ألا يترك عبادة الإقراض بمجموعة من الأعذار، وعلى الذي يقترض ألا يهمل أداء الدَّين متعللًا بالحجج، وألا يفسد هذه العبادة الاجتماعية الفاضلة.

الدَّين والاستدانة

مهما كان العمل جميلاً فإن الجمال الحقيقي يظهر عند تطبيقه بالإخلاص والإحسان.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[255]

لذلك فإن كل فعل أو قول أو عبادة يجب أن يعكس الجمال الذي فيه على الحياة، ويجب أن يصدر كلها عن القلب فقط. فكل الأفعال والعبادات التي نظن أنها أجمل ما يمكن قد تتمزق وتتوه في دهاليز النفس ويمكن أن ينتج عنها الضرر والخسران.

ومما لاشك فيه أن المقاييس الدقيقة في شأن القرض والاستدانة هي واحدة من أهم الأمور والمسائل، لأن استمرار عبادة الإقراض يرتبط بمراعاة قواعد إجبارية تخص كلا الطرفين معطي القرض وآخذه، فهذا يثير منابع الفضيلة التي في القلوب ويجمع كثيرًا من القلوب الجافة في بحار المحبة والكرم وحب الخير أكثر للآخرين.

---

٢٥٥ البقرة: ١٩٥.

وهكذا نصل إلى منظومة السلوكيات التي ستكون وسيلة لاكتساب رضا الخالق ﷻ، أو على أقل تقدير إلى أخلاق سامية رفيعة. وذلك الحديث الذي نقله سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله ﷺ يعكس تلك الحقيقة على أجمل صورة:

«أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدًا، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلًا، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجَّج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلَّفت فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلت: كفى بالله كفيلًا، فرضي بك، وسألني شهيدًا، فقلت: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده. فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة. ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهدًا في

طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنتَ بعثتَ إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشدًا».[٢٥٦]

هذا الحديث الشريف يعرض حقيقة كيف أن الحق ﷻ قد قبِل الكلمة التي أعطيت باسمه، وحافظ على وعد الرجل وأتمه. وهذا يظهر أيضًا أن مسألة الأخذ والعطاء يجب أن تتم بين طرفين لديهما إخلاص وعدل وتفاهم، وأن الله تعالى قد عامل كِلا الطرفين بالرحمة عندما لم يُدخِلا سوء القصد والنية في عملهما.

والقصة التالية التي نعرضها عليكم تعكس هذه الحقيقة:

في وقت الإفطار جاء رجل عليه سيماء الأصالة ويبدو أنه كان عزيزاً ذات يوم إلى باب أحد الأفران واقترب إليه. وبعد أن انفض الزحام قال للخبَّاز:

يا ولدي لم يعد عندي اليوم ما أنفقه، وليس عندي ما أتقوى به. فهلا أعطيتني ربع رغيف أدفع ثمنه غدا إذا لم يحن الأجل! وقال: الرجل تلك الكلمات وقد ارتعش صوته واحمر وجهه.

فقال له الخباز: ماذا تقول يا عم؟ سأعطيك رغيفًا كاملاً وليس ربع رغيف. وهذا حلال لك لا أريد ثمنه.

٢٥٦ البخاري، الكفالة، ١، البيوع، ١٠.

ولكن ذلك الرجل الغريب رفض هذا الأمر وقال: لا يا ولدي، يكفي ربع رغيف! ربما يأتي بعد ذلك ثلاثة فقراء يحتاجونه. ولقد تحملت أن يحمر وجهي في ربع رغيف فقط. لكني لا أستطيع أن أتحمل أكثر. شَرطي أن آخذ ربع رغيف وأدفع لك ثمنه غدًا.

فتحير الخبَّاز من هذا الأمر وأعطاه ما طلب، وعندما أخذ ذلك الرجل الخبزَ قبَّلَه وغادر. ثم ظهر أمامه كلب خرج من إحدى الزوايا. ونظر إلى ذلك الرجل الشيخ بعيون متوسلة يملؤها الجوع. وعند ذلك أعطى ذلك الكلب نصف ما معه من الخبز قائلًا: ليكن نصفه لك! وعقب ذلك سار الرجل نحو المسجد، وأفطر الرجل على لقمة الخبز التي بقيت معه وعلى جرعات من الماء، وشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

وفي اليوم التالي جاء صاحب دكان وقال:

يا عمي املأ لنا هذه القربة من عين الماء التي أمامك. واحمل تلك الأشياء التي جاءت إلينا إلى الداخل! وفي مقابل هذا العمل أعطاه ليرة.

وعلى الفور هرع صاحبنا إلى الفرن وقدم للخبَّاز ثمن الخبز الذي أخذه أمس. ومع أن صاحب الفرن لم يُرِد أن يأخذ تلك النقود، إلا أنه لم يستطع إلا أن يرضخ أمام إصرار الرجل ذي الوجه النوراني، واضطر أن يقبل ثمن الخبز وقد امتلأت عيناه بالدموع.

فنرى في هذا المثال أن الله تعالى ييسر الأداء والعطاء لمن أخذ قرضاً بنية خالصة للسداد. وعلى قدر سعي المدين لأداء دينه بإخلاص دون تفكير في تأخيره أو تسويف أو سوء استعمال، يكون عطاء الله تعالى له وإحسانه عليه بالتيسير في الأداء.

ومن كان عنده شيء في عهدته يملكه يكون مسؤولاً إذا لم يبعه ويؤدِ ما عليه من دين. أي أن المدين عندما لا يجد أي وسيلة أخرى، عليه أن يبيع ما يملكه ولا يدخره ويسعى لأداء ما عليه من دين. وأيما رجل عليه دين واستمر يعيش حياته في رفاهية وإسراف ولم يستطع أن يؤدي ما عليه من دين، فهو في تلك الحال آثم ومسؤول.

فالمدين عليه أن يقلل في نفقاته وعليه أن يتجنب النفقات الكبيرة الضخمة، وعليه أن يرعى حق الدائن عند أداء الدين أكثر من رعايته لنفسه. وإذا لم يكن هكذا ودخلت حسابات النفس والشهوة في العمل تُرفَع الرحمة الإلهية من بينهم، لأن إهمال حق العباد هو أمر لا يعفو الله تعالى عنه أيضًا.

أي إن الله تعالى الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات صاحب الرحمة الواسعة لا يقبل أن يعفو عن حق العباد. ومن ناحية أخرى فإن الطعام الذي يؤخِّر أداء الدين يكون في حكم الحرام.

أما مَن يأخذ دَيناً وفي نيته عدم السداد، فهذه مصيبة كبيرة وهلاك في الآخرة. والذين يرتكبون هذا الجرم عليهم أن يفكروا أنهم

داخلون في هذا الهلاك الذي وضحه رسولنا الكريم ﷺ في حديثه الشريف عندما قال:

«أيما رجل يَدين دينًا وهو مجمع أن لا يوفيه إياه لقي الله سارقاً»[257]

وفي قوله:

«مَن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله»[258]

وعن جابر ﷺ أنه قال: غزوت مع النبي ﷺ على ناضح لنا، فأزحف الجمل، فتخلف عليَّ، فوكزه النبي ﷺ من خلفه، قال: «**بعنيه ولك ظهره إلى المدينة**» ... ثم قال: «**ائتِ أهلكَ**»، فقدمت، فأخبرت خالي ببيع الجمل، فلامني، فأخبرته بإعياء الجمل، وبالذي كان من النبي ﷺ ووكزه إياه، فلما قدم النبي ﷺ غدوت إليه بالجمل، فأعطاني ثمن الجمل والجمل، وسهمي مع القوم.[259]

وقد قال جابر أيضًا:

«فمررت برجل من اليهود فأخبرته فجعل يعجب، فقال: اشترى منك البعير ودفع إليك الثمن ووهبه لك؟ قلت: نعم»[260]

---

٢٥٧ ابن ماجه، الصدقات، ١١.

٢٥٨ البخاري، الإستقراض، ٢.

٢٥٩ البخاري، الاستقراض، ١٨.

٢٦٠ أحمد، ٣، ٣٠٣.

والحاصل أنه في إطار هذه الأخلاق الجميلة والسامية يلزم:

- على المدين أن يبيع ما يملك من أشياء في يده ليؤدي دينه.

- يجب مساعدة المدين الذي يقابل هذا الموقف.

- يجب الاستغفار والدعاء للمدين.

وقد ذكر في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال»[٢٦١]

وقد سأل رسول الله ﷺ أصحابه ذات يوم، فقال لهم:

«أتدرون ما المفلس؟».

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال:

«إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته. فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرِحَت عليه، ثم طُرِحَ في النار».[٢٦٢]

٢٦١ المنذري، الترغيب، ٤/ ١٧٠.

٢٦٢ مسلم، البر، ٥٩.

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:

«**مَن مات وعليه دينار أو درهم قضي من حسناته، ليس ثم دينار ولا درهم**»[٢٦٣]

ومن أجل ذلك أمرَ النبي ﷺ الذين لديهم حقوق للعباد وعلى رأسها الدَّين أن يقضوا ما عليهم ويتحللوا من هذه الديون وهم في الدنيا فقال:

«من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».[٢٦٤]

ولا شك أن هذا الإبراء في جوهره هو مراعاة حقوق الدائن وتأديتها في الدنيا، وعدم ترك هذا الدَّين للآخرة. وقد طبق رسول الله ﷺ هذا الأمر بنفسه، فعندما جاءت إليه إحدى الجنازات وكان الميت عليه دين رفض أن يصلي عليه، ولم يتقدم ليصلي عليه إلا عندما تعهد أحد الصحابة بأن يؤدي ما على الميت من ديون.

فعن أبي قتادة ؓ أن النبي ﷺ أُتِيَ برجل ليصلي عليه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**صلوا على صاحبكم، فإن عليه دينا**»، قال

٢٦٣ ابن ماجه، صدقات، ١٢.

٢٦٤ البخاري، المظالم، ١٠.

أبو قتادة: هو عليَّ، فقال رسول الله ﷺ: «**بالوفاء**»، قال: بالوفاء، فصلى عليه.[٢٦٥]

وقد بيَّن رسول الله ﷺ المقاييس الدقيقة لهذا الأمر وهو أمر الدَّين فقال:

«**إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التي نهى الله عنها، أن يموت رجل وعليه دين، لا يدع له قضاء**»[٢٦٦]

لو أردنا أن نلخص الأمور التي يجب مراعاتها عند أخذ الدَّين وإعطائه، فيمكن أن نضعها في قسمَين:

فالذي ينبغي للمعطي:

١. أن تكون غايته رفع كربة أخيه المؤمن رغبة في رضا الله تعالى وحده. وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:

«**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة، فرَّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن سترَ مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»[٢٦٧]

٢. ألا يفسد الدَّين بأي منفعة.

٢٦٥ الترمذي، الجنائز، ٩٦؛ النسائي، الجنائز، ٧٦.

٢٦٦ أبو داود، البيوع، ٩.

٢٦٧ البخاري، المظالم، ٣؛ مسلم، البر، ٥٨.

٣. أن يظهر سماحةً وليناً عند المطالبة بالدَّين، ولو لم يستطع المدين أن يؤدي دينه رغم سعيه لتأديته، فعلى الدائن أن يعطيه مهلة من الوقت ليستطيع أن يدفع دينه. وفي ذلك قال النبي ﷺ:

«من أنظر معسرًا كان له بكل يوم صدقة، ومن أنظره بعد حله كان له مثله، في كل يوم صدقة»[٢٦٨]

وقال ﷺ في حديث آخر:

«تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، قالوا: أعملت من الخير شيئًا؟ قال: كنت آمر فتياني أن يُنظِرُوا ويتجاوزوا عن الموسِر، قال: قال: فتجاوزوا عنه»[٢٦٩]

٤. لو لم يتغير حال المدين مع الوقت وكان فقيرًا جدًّا، فيجب اعتبار هذا الدَّين كأنه صدقة.

٥. يجب عدم إيذاء المدين وفي هذا يقول رسول الله ﷺ:

«مَن طلب حقًّا فليطلبه في عفاف واف أو غير واف»[٢٧٠]

وعلينا أن نقتدي بالسلوك الجميل الذي يعرضه هذا الحديث:

«غفر الله لرجل كان قبلكم، كان سهلًا إذا باع، سهلًا إذا اشترى، سهلًا إذا اقتضى»[٢٧١]

---

٢٦٨ ابن ماجه، الصدقات، ٢١/ ٢٤١٨.

٢٦٩ البخاري، البيوع، ١٧-١٨؛ مسلم، مساقات، ٢٦-٣١.

٢٧٠ ابن ماجه، الصدقات، ١٥.

٢٧١ الترمذي، البيوع، ٧٦.

أما المدين فينبغي له:

١. ألا يقترض ما لم تكن هناك ضرورة قصوى.

٢. يكون الاقتراض بمقدار بسيط يكفي لمواجهة ضروريات الحياة فقط.

٣. عدم الإنفاق في إسراف ورفاهية.

٤. أن تكون لديه النية والعزيمة والسعي الأكيد لأداء هذا الدين.

٥. على المدين ألا يسيء استعمال النية الطيبة والسلوك الحسن للدائن، لأن تصرفات كهذه تسبب الضرر للآخرين وتمنع أصحاب الحاجة الحقيقيين من الحصول على قرض لهم.

٦. عدم الاقتراض بشكل يفتح الطريق ليفقد القرض الذي تم الحصول عليه قيمته، لا سيما في القروض طويلة الأجل يجب الإقراض بشكل لا يفقد تلك القروض قيمتها، إلا إذا كان الدائن قد أذِن بذلك للمدين.

٧. عدم تأخير وقت السداد والأداء. فإذا ما توفرت للمدين الظروف التي تساعده على السداد فعليه أن يقوم بالسداد في الوقت تمامًا. أما إذا لم تساعده الظروف فعليه الاعتذار وطلب مهلة. وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «**مَطْلُ الغنيِّ ظلم**».[272]

٨. عدم ترك الدَّين للآخرة.

---

٢٧٢ البخاري، الإستقراض، ١٢؛ مسلم، مساقات، ٣٣.

فإذا ما روعيت هذه الأمور كلها، فإن الحق ﷻ قد تكفل في مواضع ثلاثة بأداء الدين عن صاحبه الذي انتقل إلى رحاب ربه، ولم يستطع أن يؤدي ما عليه من ديون. وفي هذا يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«إن الدَّين يُقضَى من صاحبه يوم القيامة إذا مات، إلا من تدين في ثلاث خلال: الرجل تضعف قوته في سبيل الله فيستدين يتقوى به لعدو الله وعدوه، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد ما يكفنه ويواريه إلا بدين، ورجل خاف الله على نفسه العزبة، فينكح خشية على دينه، فإن الله يقضي عن هؤلاء يوم القيامة »[٢٧٣]

ومما لاشك فيه أن أداء الله ﷻ لهذا الدَّين يوم القيامة يكون بمضاعفة الثواب للدائن أضعافًا كثيرة. وهذا بكرم الله في الآخرة يكون مكافأةً قيِّمة للدائن من خزائن الله التي لا تنفد.

ولا ريب أن دخول المدين أو عدم دخوله في هذه الأصناف التي ذكرها الحديث الشريف هو أهم عامل في هذا الشأن.

فمهما كانت الأسباب والأعذار فعلى المقترض أن يأخذ بمقدار الكفاية ويكتفي بذلك، ويسعى جاهداً لأداء هذا الدين. وعلى الدائن أن يضيف إلى نفسه فضيلة جديدة وهي فضيلة المسامحة والإمهال في طلب الدين.

٢٧٣ ابن ماجه، الصدقات، ٢١.

وفي أمر الدَّين يجب الأخذ بالحسبان وضع الدائن والمدين، لأن حماية حق الدائن معطي الدين هي أهم مؤثر يدعم استمرار هذا السلوك الجميل؛ سلوك الإقراض.

فعن أبي هريرة ﵁ أن رجلًا تقاضى رسول الله ﷺ، فأغلظ له، فهَمَّ به أصحابه، فقال: «**دعوه، فإن لصاحب الحق مقالا**»[٢٧٤]

وعن أبي سعيد الخدري، قال:

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه دَينًا كان عليه، فاشتد عليه، حتى قال له: أُحَرِّجُ عليك إلا قضيتني، فانتهره أصحابه، وقالوا: ويحك تدري من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي، فقال النبي ﷺ: «**هلَّا مع صاحب الحق كنتم؟**» ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها: «**إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمرنا فنقضيك**»

فقالت: نعم، بأبي أنت يا رسول الله، قال: فأقرضته، فقضى الأعرابي وأطعمه، فقال: أوفيتَ، أوفى الله لك، فقال:

«**أولئك خيار الناس، إنه لا قُدِّسَت أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير مُتَعتع**»[٢٧٥]

فرسول الله ﷺ كان يلتمس العذر لمن يطلب دينه حتى لو طلبه قبل موعده. وربما لن نستطيع أن نجد أي قائد في تاريخ البشرية

---

٢٧٤ البخاري، الاستقراض، ٧.

٢٧٥ ابن ماجه، الصدقات،١٧.

يعرض لنا فضيلة أداء الحق والحقوق مثل رسول الله ﷺ. فرسول الله ﷺ قد أعطى درساً لأصحابه الذين أرادوا أن ينصروه قائلًا لهم:

«**هلَّا مع صاحب الحق كنتم**».

وهو درسٌ في حقوق الإنسان يفتح عيونهم على الحقيقة، ويزرع العدل في قلوبهم. وكثيرة هي الأمثلة التي يعرضها رسول الله ﷺ لتشكل نموذجاً لأمته، ربما لأن هذا الأمر سيكون واحدًا من أكبر العقبات والعوائق التي ستظهر وتأتي من بعده.

وعن الصحابي الجليل عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه قال:

إن الله تبارك وتعالى لما أراد هدي زيد بن سعنة وهو من علماء اليهود يقول: بحثت عن علامات في التوراة تطابق رسول الله ﷺ فما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا شيئين لم أخبرهما منه، هل يسبق حلمه جهله ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً؟! فكنت ألطف به لأن أخالطه فأعرف حلمه. قال زيد بن سعنة: فخرج رسول الله ﷺ يومًا من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله إن بُصرى قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً. وقد أصابتهم سَنَة وشدة وقحوط من الغيث فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً، فإن رأيت أن ترسل إليهم

بشيء تعينهم به فعلتُ. فنظر إليَّ رجل إلى جانبه أراه علياً ﵁ فقال : يا رسول ما بقي منه شيء قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه فقلت: يا محمد هل لك أن تبيعني تمراً معلومًا من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا. فقال: «لا يا يهودي ولكن أبيعك تمراً معلومًا إلى أجل كذا وكذا ولا أسمي حائط بني فلان»، فقلت: نعم، فبايعني. فأطلقت هِمياني فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا فأعطاها الرجل، فقال: «اعدل عليهم وأعنهم بها». فقال زيد بن سعنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ فقلت له: ألا تقضيني يا محمد حقي فو الله ما علمتم يا بني عبد المطلب سيء القضاء مطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم، ونظرت إلى عمر فإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ثم رماني ببصره فقال: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتصنع به ما أرى؟ فو الله الذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر قوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم ثم قال: «يا عمر أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة. اذهب به يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعًا من تمر». فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟، قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما نقمتُكَ قلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا؛ من أنت؟ قلت: زيد

بن سعنة قال: الحبر؟ قلت: الحبر. قال: فما دعاك أن فعلت برسول الله عليه الصلاة والسلام ما فعلت وقلتَ له ما قلت له؟ قال: يا عمر لم يكن له من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه ما عدا اثنتين لم أخبُرْهما منه: هل يسبق حلمه جهله؟ ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً؟! وقد أختبرتهما فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا وأشهدك أن شطر مالي- فإني أكثرهم مالًا- صدقة على أمة محمد ﷺ، فقال عمر رضي الله عنه: أو على بعضهم فإنك لا تسعهم قلت: أو على بعضهم، فرجع زيد إلى رسول الله ﷺ فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وآمن به وصدقه وبايعه، وشهد معه مشاهد كثيرة، ثم توفي زيد في غزوة تبوك مقبلًا غير مدبر ورحم الله زيدًا.[٢٧٦]

وهذه الأحاديث الشريفة أمثلة نبوية للبركات الإلهية التي تتجلى بسبب الدقة التي يبديها المدين من أجل الله تعالى، والمراقبة الدقيقة لحق الدائن.

والحكمة من أن رسول الله ﷺ كان يقترض أحياناً هي يكون نموذجاً في هذا الشأن لأمته، ويعرض جمال السلوك تجاه الدائن الذي يعطي القرض.

٢٧٦ الحاكم، المستدرك، جـ ٣/ ٧٠٠، ٦٥٤٧.

وبناءً على ما فهمنا من هذه الأمثلة كلها فإن مسألة الإقراض والاستدانة هي مسألة دقيقة، فعلى الذين يتعاملون فيما بينهم أن يراعوا تلك المجموعة من المقاييس لكي لا يحرموا من النور والبركة التي في هذه العبادة.

ومع الأسف فإن عبادة فاضلة مثل الإقراض قد بدأت تقل بالتدريج، وتبدو تقريباً بالنسبة للدائن كأنها ضرر ولم يعد كثيرٌ من الناس يقتربون من هذه العبادة الخيرية، وكل ما سبق ينبع من عدم مراعاة تلك المقاييس والأصول التي عددناها.

أي إن إلغاء الأمانة في البيع والشراء وانتشار الكذب وعدم الوفاء بالعهد وتحول عدم أداء الدَّين في وقته إلى أمر طبيعي جعل هذه العبادة الجميلة تتحول تقريباً إلى عبادة منسية.

ويجب تجاوز هذه المعوقات والعقبات عندما ننظر إلى أصول المسألة وقواعدها فقط. أي إن الذين يواجهون هذا الموقف يجب عليهم ألا يتركوا عبادة الإقراض متعللين بمجموعة من الأعذار، ومقابل ذلك على من يقترضون ألا يهملوا في أداء دينهم متعللين هم أيضًا بالأزمات والضائقات المتنوعة، وألا يتسببوا نتيجة هذا في إلحاق الضرر والفساد بتلك العبادة الاجتماعية الفاضلة.

وعلى النقيض من ذلك فإن الغني عندما لا يفِي بشكر النعم التي أعطاها له الحق ﷻ أمانةً، فإن المحتاج لا يستطيع أن يجد من يقرضه بسبب المقاييس والأصول التي لم تراع، حتى إنه يضطر من

شدة الحاجة إلى اللجوء إلى الربا ولا يستطيع الخلاص من السقوط في هذا المستنقع.

وإعطاء القرض فضيلة ثابتة في كثير جدًّا من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة. وعلى الذين يمتنعون عن الاقتراب والمشاركة بهذه الفضيلة الكبيرة بسبب السلوكيات الخاطئة وعدم مراعاة أصولها أن يحملوا وبالاً كبيرًا فوق أكتافهم؛ لأن القروض التي تُمنَح مراعاةً للأصول والآداب تكون رأس مال أخروي بالنسبة للمؤمن.

فعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ:

«رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوبًا: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، فقلتُ: يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة».[277]

ومما لاشك فيه أن إعطاء الصدقة عبادة يحث عليها الإسلام، ولكن يعد القرض الذي يُعطَى للمحتاج بدلًا من الصدقة مقبولًا أكثر، لأنه لا يجرح حياء وعزة نفس ذلك المحتاج.

وفي هذا الشأن كان بعض المؤمنين الصالحين بمقتضى هذه الدعوات الإلهية والنبوية عندما يستردون القروض التي أعطوها لا يمسونها مطلقًا، ويجعلونها عندهم ليعطوها مرة أخرى لمن

---

٢٧٧ ابن ماجه، الصدقات، ١٩/ ٢٤٣١.

يحتاجها من الناس، ويفعلون هذا الأمر مرارًا وتكرارًا. أي أنهم كانوا يخصصون عندهم صندوقاً «للقرض الحسن».

فعن قيس بن رومي، قال: كان سليمان بن أذنان يقرض علقمة ألف درهم إلى عطائه، فلما خرج عطاؤه تقاضاها منه واشتد عليه، فقضاه، فكأن علقمة غضب، فمكث أشهرًا ثم أتاه، فقال: أقرضني ألف درهم إلى عطائي، قال: نعم، وكرامةً، يا أم عتبة هلمي تلك الخريطة المختومة التي عندك، فجاءت بها، فقال: أما والله إنها لدراهمك التي قضيتني، ما حركت منها درهما واحدا، قال: فلله أبوك ما حملك على ما فعلت بي؟ قال: ما سمعت منك، قال: ما سمعت مني؟ قال: سمعتك تذكر عن ابن مسعود، أن النبي ﷺ، قال: «**ما من مسلم يقرض مسلمًا قرضًا مرتين إلا كان كصدقتها مرة**»، قال: كذلك أنبأني ابن مسعود.[٢٧٨]

وقد طبَّق والدي العزيز موسى أفندي رحمه الله الذي تخلق بأخلاق عظماء الإسلام هذه الأخلاق الجميلة على أفضل شكل وأتمه. فقد كانت عنده ميزانية خاصة «**للقرض الحسن**»، وكان يقدم منها لمن يحتاج.

وكان يعد هذا القرض صدقة لمن لم يستطع أن يؤديه. وكان لا ينفق هذا المبلغ من المال عند إعادته، بل يستعمله للغاية نفسها.

٢٧٨ ابن ماجه، الصدقات، ١٩/ ٢٤٣٠.

وكان هذا القرض الحسن الذي وهبه لله ﷻ يدور هكذا دائمًا ولا يتوقف. وهذا النوع من الأعمال الصالحة هو من مظاهر جماليات السلوك الاستثنائية الخاصة بأخلاق الإسلام.

والقرض كما هو فضيلة ذات قيمة عظيمة لمن يعطي، فهو أمر يُحَث عليه بالنسبة لمن يأخذ. وعكس هذا الحال أي إذا لم يستطع المحتاج أن يقترض لو تعرض لأزمة شديدة للغاية، فثمة احتمال أن يلجأ إلى طرق خاطئة ويرتكب إثماً للحصول على المال.

وأصحاب الحاجات الذين يسقطون في مستنقعات مثل الربا لأنهم لم يجدوا من يساعدهم عندما تعرضوا لضيق شديد ليسوا بالعدد القليل.

وهكذا فإن رسول الله ﷺ في حديثه الشريف في معرض تحفيز الناس على الاقتراض بدلًا من ارتكاب الإثم قال:

«إن الله مع الدائن حتى يقضي دينه، ما لم يكن فيما يكره الله»[٢٧٩]

والخلاصة أننا مجبورون على إحياء عبادة الإقراض في أيامنا هذه مع مراعاة دقائق الأمور فيها، كما هو الحال في الفضائل الإسلامية الأخرى. ومن أجل استمرار هذه الفضيلة الإسلامية بشكل حي لا بد من إدراك مقاييسها، وأحوالها، والتعمق فيها وتطبيقها.

٢٧٩ ابن ماجه، الصدقات، ١٠.

وعلينا ألا ننسى أن هذه الفضيلة الجميلة عندما ننتقل غدًا إلى دار البقاء الأبدية لن تبقى هناك فرصة في يد الغني ليطبقها، ولن تبقى حاجة في يد المحتاج.

فهذا العالم الفاني الذي جئنا إليه هو عالم الفرص ودار تطبيق الأعمال الصالحة الجميلة، لا سيما في شهر رمضان الكريم وأيام الأعياد التي هي لحظات لطف وإحسان استثنائية أكرمنا بها ربنا وهي فرص لتعويض خسائرنا وأداء كفارة ذنوبنا وأخطائنا.

يا ربِّ! أكرمنا في هذا العالم الفاني الذي نعيش فيه بفرص نستفيد منها لنيل رضاك. وأدخلنا في زمرة السعداء الذين ينجون من كرب الآخرة برفعهم كرب إخوانهم المؤمنين وآلامهم في الدنيا.

آمين!

الصداقة

أيها السالك في طريق الحقيقة، اعقد صداقة مع ربك الذي هو سلطان الحقيقة الأبدية قبل أن يأتي يوم القيامة، فهو الذي سيمسك بيدك في يوم الكرب العظيم، لأنه في ذلك اليوم ليس هناك أحد سيمسك بيدك دون إذنه. وفي ذلك اليوم سيفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وأهله وأولاده، فافهم الصداقة مع الحق جيدًا، واعلم أن الصداقة هي بذرة الأنفاس الأخيرة.

مولانا جلال الدين الرومي

الصداقة

لقد نزل قول الله تعالى:

﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ﴾[٢٨٠] في سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، لقربه وصدقه وصداقته مع رسول الله.

فالمسألة كلها تنحصر في تقوية علاقات القلب بأصدق روابط المحبة التي تجعل الحق عز وجل يرضى عنا ويضعنا على صراطه المستقيم. وهكذا يمكن أن نحصل على نصيب من لذة رضا الله تعالى.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«مَن جلس مع الأحباب حتى لو كان في أتون اللهب لظن أنه يجلس في بستان ورود. أيها الأحباب، لو تجاوزتم الشكل والصورة، ولو دخلتم عالم المعنويات، فسترون هناك أن حدائق الجنة مزينة وجميلة أكثر من حدائق الزهور».

إن الصداقة تنبع من الاشتراك والمشاركة في الصفات الإيجابية أو السلبية. أما الصداقة الحقيقية فإنها تُحفَظ في القلوب الصادقة فقط. وعندما يتصادق شخصان، فإنهما يعيشان المشاعر نفسها

٢٨٠ التوبة: ٤٠.

في أي حادثة، لأن المحبة الحقيقية والصداقة الحقيقة تيَّار يجري بين قلبين.

وكل حال للمحبوب يسري إلى الحبيب مع هذا التيار أي تيار المحبة، وتبدأ أنهار العشق التي في القلب في الفيضان وتبدأ شموس المحبة في البزوغ والإشراق.

فمثلاً عندما كان حضرة مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله مدرِّسًا كبيرًا في المدرسة السلجوقية، أصابه شيء من نور درويش مجذوب اسمه شمس مملوء قلبه بالمحبة.

فرأى أن كتب العلوم الظاهرية قد أفنت عمره، فصار الكون كله كتابًا له. وبعد مدى كتب كتابه المشهور (المثنوي) الذي كان رسالة موضِّحة للأسرار التي في الإنسان والكون والقرآن.

فالمرء يستطيع أن يكون حبيبًا للحق إذا تشبَّه بأحوال أولياء الله، ولكن على قدر المحبة التي في جوهر المؤمن والاستعداد لها يكون نصيبه من الاستقامة على طريق رضا الحق ﷻ.

وقد يكون المرء في الظاهر سعيدًا، إلا أنه يشعر بالنيران تلتهب في باطنه لبعده عن الحبيب. فلا توجد علاقة بين المحبة والقرابة كالأخوة والمصاهرة، لأن أبا لهب كان عم الرسول ولكنه كان أبعد الناس عنه.

إن أسرار عالم الروح لا تنتهي، وهي لا تدخل في قوالب البدن والمجتمع. فالصداقة إلهام يأتي من أعماق الروح، والمحبة التي

كانت عند النبي ﷺ الذي التقى بالوحي لأول مرة في غار حراء قد رفعته بعد ذلك إلى الطمأنينة في حادثة المعراج.

إن الصداقة لطف إلهي ينقذ الإنسان من الوحدة. فبعد أن نزل آدم وحواء إلى الدنيا أُجبِرا على العيش منفردين منفصلين لأربعين سنة، وأذيقا شوق المحبة وحسرتها. وكأن المحبة والصداقة انقسام روح واحدة لاثنين.

وقد وضح النبي ﷺ هذا الأمر في الحديث الشريف فقال:

«**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[٢٨١]

وحسبنا البيان النبوي في الصداقات والذي يؤثر في الإنسان أبلغ تأثير إذ قال رسول الله ﷺ:

«**المرء مع من أحب**»[٢٨٢]

وقد وضَّحت الأحاديث الشريفة أنه عندما يكون شخص مع مَن يحبه يتشارك معه الشعور والإحساس والحياة والتفكير، ويتفق معه في الكلمة والجوهر والسلوك وتنعكس محبته عليه كأنما يوجدان في معية واحدة فلا فرق بينهما.

وما أعجب مَن يدَّعي محبةَ الوردة؛ وجوهُره وكلامُه وسلوكُه وشعُوره وأحاسيسُه كلها دائمًا مع الأشواك. ومثل هؤلاء الذين

---

٢٨١ أحمد بن حنبل، المسند، جـ. ٢، ٣٠٣، ٣٣٤.

٢٨٢ البخاري، الأدب ٩٦.

لا يمكنهم أن يكونوا مع الله تعالى ورسوله الأكرم ﷺ بمشاعرهم وتفكيرهم وأعمالهم لا يُعدون من أهل المحبة الحقيقية.

والحذر الحذر من أن يعيش المرء حياة غافلة مردداً بلسانه فقط دون قلبه «إنني أحب الله ورسوله» فلا ينال حينها البشارة التي وردت في الحديث الشريف.

ومعلوم أن معية المحبة تتحقق فقط عندما تتحقق معية الحال. ولعل حال أبي بكر الصديق رضي الله عنه مملوء بكثير جدًّا من الحكم. فهو في محبة رسول الله ﷺ وصحبته كان يعيش حالاً من الوجد حتى إن تلك المحبة والشوق كانت تزداد أكثر في المكان الذي يُعتقد أنها ستهدأ فيه.

فذات يوم تحدث رسول الله ﷺ عن أبي بكر رضي الله عنه الذي أنفق كل ثروته في سبيل الله تعالى بكلمات مملوءة بالمحبة والثناء والمودة. ولكن أبا بكر رضي الله عنه انقبض عندما سمع هذه الكلمات واغتم مع أن ظاهر الكلمات كان الثناء والمحبة، إلا أنه رأى ملامح الفراق تلوح في هذه الكلمات.

فشعر في أعماق روحه باضطراب حارق يشبه نيران الفرقة والبعد، فقال بلسان روحه من أعماق قلبه كلمات لا تنبع من قلب يتحدث عن الغير: «وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله».[٢٨٣]

٢٨٣ ابن ماجه، المقدمة، ١١.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«على الذي يريد أن يكون في معية الله تعالى وأن يأنس به سبحانه أن يجلس في حضرة الأولياء الذين هم أحباء الله تعالى. لأن الحبيب عندما يجلس مع حبيبه تُقرأ مئات آلاف من الأسرار التي في القلب».

وقال الشيخ سعدي مطهِّراً نفسه من الرغبات الدنيوية بالمعنى الكامل:

«إن رؤية وجه الأحبَّاء والأصدقاء هي مثل الدواء لأهل القلوب».

وقد عرف الحق ﷻ الأحباب الذين يدخلون في هذه الزمرة فقال في كتابه العزيز:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢٨٤]

فطوبى للذي يخلِّص نفسه من مصيدة الأحباب والأصدقاء الفانين، ويجد وهو في هذه الدنيا الصديق الأبدي والمحبوب الحقيقي الذي هو الله ﷻ، وأن ترتبط القلوب والأرواح بسيدنا رسول الله ﷺ وتكون معمورة بأهل الإيمان.

وينادي مولانا جلال الدين على القلوب المحرومة من هذا السر الذي في المحبة فيقول:

٢٨٤ المائدة: ٥٥.

«اعلم ذلك جيدًا أن الأحباب الأغيار الزائلين والأحباب المزيفين في هذه الدنيا سيصبح كلهم عدواً لك في النهاية. ومن يحني لك الرأس اليوم فسيظهر العداوة غدًا. وإذا كان المال هكذا فلتفزع إلى الله تعالى قائلاً في استغاثة متضرعة باكية: يا ربِّ لا تتركني وحيدًا».

إن القدرة على فهم الحكم والأسرار في صفحات الكون بالمعنى الحقيقي هو عمل أهل القلوب الذين استطاعوا أن يعيشوا محبة حقيقية ونجحوا في ذلك.

فإبراهيم ﷺ على الرغم من أنه كان في حال صعبة لأنه كان خليلاً للرحمن، إلا أنه ظل في حال تسليم وتوكل كبيرين شرطًا لتلك المحبة ولم يشعر قلبه بغمّ ٍ ولا همّ ٍ طرفة عين. وعندما أُلقِي في النار قال للملائكة التي جاءت لعونه:

«لا تدخلوا بين الحبيب وخليله. ما يحبه ربي فأنا راض به. لو نجوتُ فبإحسانه وكرمه، ولو احترقت فبذنبي. وإن شاء الله تعالى أكون صابرًا».

وقال أيضًا:

«هو عالم بحالي، النار تحرق بأمر مَن؟ والإحراق فعلُ مَن؟»

وفي نهاية المطاف أنقذه ربه ﷻ وأصبحت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ﷺ بأمر منه تعالى. وهذه الواقعة تعرض لنا المحبة الإلهية في أعظم شكل وأجمله.

لذا فإن الحق ﷻ قال عن إبراهيم في كتابه الكريم بسبب هذه الصداقة والمحبة الحقيقية:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[285]

فهذه الصداقة والوفاء اللذين ينعكسان على كل فرد وعلى كل شيء- من رعاية البشر لمقاييس الصداقة أحدهم تجاه الآخر- يرتبطان أيضًا بهذه الحال، فالذين ينالون صفات الصداقة القلبية عندهم سمات سامية متميزة. تروي كتب التاريخ أن رجلًا اسمه (بياله) كان صديقًا مخلصًا ووفيًّا للأمير قورقود الذي قُتل بسبب تمرده على السلطان سليم الأول، . وعندما علم السلطان بهذا الوفاء استدعاه وسأله قائلاً:

«عليك أن تحدد المقام الذي تريده مكافأةً لصداقة الأمير قورقود حتى لو طلبت أن تكون وزيري».

فشكره بياله وقال مؤكداً على صداقته للأمير:

«أيها السلطان، وظيفتي بعد هذا أن أخدم قبر الأمير قورقود».

إن حال بياله هذه تشكل ذروة مفهوم الصداقة، وهي نموذج مجسَّد لآداب الصداقة، وهي علامة معبرة وأمارة مؤثرة من ناحية الحكم على الأصدقاء والصداقات كلها.

وقد قال أبو عثمان الحيري:

---

٢٨٥ النجم: ٣٧.

«إن المحبة لله تعالى تتحقق بالأدب الجميل والمراقبة الدائمة، ومحبة رسول الله ﷺ تُنسَج باتباع سنته والطاعة والتسليم له، ومحبة الأولياء تكون باحترامهم وخدمتهم، والصداقة مع الأحباب تكون بإظهار التبسم الدائم لهم، ولقائهم بوجه طلق بشرط ألا يكون ذلك في حرام، ومحبة الأهل تكون بالأخلاق الجميلة، ومحبة الجاهلين تكون بالدعاء لهم والتوسل إلى الله تعالى أن ينالهم برحمته».

إن كل صداقة لها أسلوب وحال خاص بها، لأن الصداقة تستمر على قدر مراعاة هذه الأحوال. والمحبة التي في القلوب لن تُصرع، ولكن إذا لم تُراعَ آداب الصداقة والمحبة فإن علاقة المحبة من كل نوع تتحول إلى عقدة ورباط عداء. فيجب التحرك بحيطة ودقة شديدة عندما نتحدث مع الأصدقاء، لأن الكلمة مثل السيف البتار تقطع الصداقة والمحبة وتقتلهما، وتفتح جروحاً في القلب لا تندمل.

وعلى العكس من ذلك فإن الصداقة المزيفة التي يُعتقَد أنها صداقة لا يمكن أن تبدو صداقة حقيقية، لأن الصداقات التي تكون باللامبالاة تشبه حبلًا رفيعًا على حد سكين قاطع. ومما لاشك فيه أن صداقات ومحبات كتلك ليس لها فائدة لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة، بل إنها تضر أصحابها في كلتا الدارين الدنيا والآخرة. ومن أجل ذلك فإن الشرط اللازم للمحافظة على هذه الصداقة هو أن تكون صديقاً ومحباً لمن يليق بها.

إن المحبة التي في القلوب لو استطاعت أن تحيط بالمخلوقات كلها فإنها تجعل صاحبها مؤمنًا كاملاً، وبتعبير آخر عاشقًا حقيقيًا أي حبيبًا للحق ﷻ. وعلى الرغم من أن العشق قد بدأ بمحبات ومحبوبات فانية معينة مثل زهرة تتفتح، فإنه يتحول ليكون «**عشقًا إلهيًا**» في اللحظة التي يصل فيها إلى المخلوقات كلها بشمولية سابغة من الخالق ﷻ.

ولكن الذي يَبْقى بعيدًا عن الإيثار لا يمكن أن يصل إلى هذه الحال، لأن العبد يمكن أن يأخذ من المحبة والصداقة على قدر تخطيه عقبات بعده عن الإيثار.

ويحكي السيد النخشبي حكاية فيقول:

«ذات يوم جاء شاب إلى باب بنت السلطان وقال إني عاشق لبنت السلطان. ولما وصل الخبر إلى بنت السلطان جاءت إلى باب السلطان وقالت للشاب: خذ هذه الألف درهم ولا تقل شيئًا هكذا مرة أخرى فإنه يسبب الضرر لي ولك. وعندما لم ينصرف الشاب عرضت عليه مرة أن يأخذ ألفي درهم وينصرف. وفي النهاية عندما وصلت المساومة إلى اثني عشر ألف درهم عندها قبل الشاب وانصرف.

وعندما رأت بنت السلطان هذا الموقف قالت: كيف تحبني وعيناك قد غشيت بفلس من المال؟ هل تعرف ما جزاء من يفضل عليَّ أحدًا؟ يكون عقابه أن يُضرَب عنقه. وبسبب عشقه الزائف أبعدته بنت السلطان عن نفسها».

وعندما سمع أحد العارفين هذه الحال سقط مغشيًّا عليه. وعندما عاد إلى رشده قال: «أيها الناس! انظروا ما الذي تجلبه المحبات الزائفة في الدنيا! إنها لن تنفع في الآخرة من يدَّعون محبة الحق ﷻ ويتوجهون إلى غيره!»

إن عظمة المحبة يقاس بالتضحية التي يقدمها الحبيب في سبيل المحبوب عند الضرورة. إن من يحب كثيرًا لا يشعر بأنه يضحي عندما يعطي روحه فداءً لمن يحب لو طلب منه ذلك. أما الذي لم يعرف معنى العشق والصداقة ولم يستطع أن يكون له نصيب من المحبة والعشق، فيمكن القول إنه يعيش بهواه ورغباته، ولم يستطع أن يلج الطريق الموصل إلى الكمال، لأن قلب مَن لم يستطع أن يعرف الحب هو مثل الأرض الخراب. أما المعرفة فهي الحب، لأن سبب الوجود هو المحبة. ومن أجل ذلك فإن الذين ينالون محبة الحق ﷻ يشاهدون وجه الصداقة والمحبة ليس في الإنسان فقط، بل في النباتات والحيوانات كلها التي تنتشر حية في الدنيا.

وقد قصَّ علينا والدي موسى أفندي رحمه الله حكاية في أمر المحبة مع المخلوقات فقال:

استأجرت منزلاً في المدينة المنورة مع شيخي الفاضل سامي أفندي رحمه الله منذ أربعين سنة تقريباً. وعندما دخلنا الغرفة التي أعدت لاستراحته ونومه، رأينا ثعبانًا ملفوفًا حول نفسه في زاوية المنزل ففزعنا. أما هو فقد ظل ساكناً هادئًا، وقال: «اتركوا مخلوق

الله هذا في حاله ولا تلمسوه». وفي النهاية بعد مدة من الزمن اختفى هذا الحيوان من بيتنا.

فهذا يوضح أن الذين يصلون في الله تعالى ورسوله ﷺ إلى منبع الصداقة والمحبة يصبحون أصدقاء للمخلوقات كلها.

فالقلوب التي لا تستطيع أن ترى وجه المحبة المخفي في الطبيعة قلوب عمياء. وأرواح البشر التي لا تستطيع أن تتحدث مع الطبيعة أرواح خرساء. والقلوب التي تبحث عن الحبيب لو لم تجده في الوجود الإنساني يمكن أن تجده في الطبيعة. فالمياه الجارية والأماكن المخضرة، والجبال والزهور والبساتين تهمس بكثير من أشعار الحب والصداقة إلى القلوب التي تبحث عن المحبة.

إن القلوب التي عُجنت بهذه الترنمات تشعر بعظمة صنعة الله ﷻ، وتتكلم معها بلسان الحال. وهكذا تتفتح كثير من الأسرار الإلهية في أعماق القلوب المملوءة بأحاسيس العشق والمحبة.

إن تجليات القدرة في الطبيعة ترفع أحاسيس القلب ليكون صديقًا مع الأسرار والمخفيات، وتشكل أرضاً مباركة طيبة نورانية لتكون صديقاً محبًّا للرب ﷻ. لأن آلاف الزينات التي في الطبيعة والمخلوقات هي سلم يوصل إلى الحبيب الكبير الذي هو أحب المحبوبات، أي يوصل إلى خالق هذه الجماليات كلها ﷻ. فضلاً عن ذلك فإن المؤمن في هذا المقام هو في معية الله تعالى في كل مكان، ودائمًا يتلألأ نور المعية الإلهية هذا في وجهه. وهكذا فإن

هذه الرموز النورانية السعيدة تكون منبع البركة والرحمة المعنوية والمادية للأمة والعالمين.

يقول مالك بن دينار رحمه الله:

«عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كان الرعاة في الجبال يقولون: تولى رجل صالح حكم الناس. فسألوهم: من أين عرفتم ذلك الأمر؟ فقالوا: حتى الحيوانات تعيش في راحة وسكون وهدوء».

ويقول محمد بن عُيينة رحمه الله:

«كنت أرعى الغنم في كيرمان وكان عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين. كنت أرى الأغنام ترعى مع الذئاب لعدالته. وذات ليلة افترس ذئب أحد الأغنام. فتحيرت وقلت لنفسي كأن الدنيا قد فقدت سكونها وهدوءها كله. ومن المرجح أن ذلك الخليفة العادل حبيب الحق قد مات. ولما بحثت وسألت علمت أن عمر بن عبد العزيز قد توفي في تلك الليلة».

فأي إنسان يريد أن يخلط قلبه بشخصيات قدوة كتلك التي امتلأت بصفات الكمالات البشرية، عليه النظر بتدبر بعيون أحباب الحق البصيرة إلى الشمس التي تملأ الأفق وهي تغيب في أوقات الشفق.

وعند مشاهدة الألوان المختلفة واللوحات المتنوعة التي ترسمها في السموات، نتحير ونندهش للوحة ذلك الفنان المبدع والصانع

الماهر، ونبارك ونعظم تلك الرسومات التي قدمها لنا. وهكذا عندما نشاهد ونتأمل بهذه الأحاسيس، فإن النقوش والزينات المختلفة الألوان، وفرشاة القدرة التي تتحرك أمام عيوننا على لوحة الكون التي رسمها الله ﷻ المصور والمناظر كلها تكون معبرة أيما تعبير.

انظروا إلى زهرة بنفسج أو إلى أي زهرة، وسلوا أنفسكم: من أين جاءت الأرض السوداء بهذه الألوان؟ في هذا العالم توجد كثير من الجماليات، وتجليات القدرة، وخوارق الصنعة والفن، والرقة التي لا يحدها الحصر والعد. والكون بالنسبة للقلب الذي يستطيع أن يرى هو معرض للخوارق والمعجزات. لأن هذه الجماليات كلها هي مظاهر من حسن جمال الحق ﷻ. ومن أجل ذلك فإن العيون والقلوب التي تسعى لمشاهدة الكون بنظر الاعتبار والتفكر ترجع بنظر الدهشة والحيرة.

ولكن العقل والمنطق مع الأسف يتعرفان في أحيان كثيرة على هذه المعجزات والخوارق دون أن يكون لهما نصيب من الاعتبار، مثلهم في ذلك مثل الصخور الصلدة التي لا تستطيع أن تحصل على شيء من أي قطرة من المطر الذي يسقط عليها.

فيا ربنا أنعم على قلوبنا بعمق الإحساس والتفكر في تجليات القدرة والعظمة والصنعة الإلهية التي في هذا الكون.

وعندما نفكر في حالنا ونحاسب أنفسنا بشكل جدّي، نرى أنه رغم إحاطة تجليات القدرة بنا في كل لحظة، فإن القلوب عندما

تكون مغطاة بعوائق الشهوة، فإنها تحرم من العشق والمحبة الإلهية.
وفي هذا الشأن يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«أيها السالك في طريق الحقيقة، اعقد صداقة مع ربك الذي هو سلطان الحقيقة الأبدية قبل أن يأتي يوم القيامة، فهو الذي سيمسك بيدك في يوم الكرب العظيم، لأنه في ذلك اليوم ليس هناك أحد سيمسك بيدك دون إذنه. وفي ذلك اليوم سيفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وأهله وأولاده، فافهم الصداقة مع الحق جيدًا، واعلم أن الصداقة هي بذرة الأنفاس الأخيرة».

وقد تدفقت هذه الدعوة من الفم الطاهر فم سيدنا رسول الله ﷺ في لحظة الوفاة عندما قال معبرًا عن المحبة والعشق لربه:

«**بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى**».

إن القلوب التي أخذت نصيبها من هذا الفيض على قدرها قد وصلت إلى ذروة المحبة الإلهية، وفي رحلتها الأبدية تكون مظهراً لسر الوعد الإلهي:

﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[٢٨٦]

فيا ربِّ أشغل قلوبنا بمحبة توصلنا إلى رضاك العظيم، وأسعدنا واجعلنا من الطيِّبين وأحبَّنا يا رب العالمين. آمين.

---

٢٨٦ يونس، ٦٢.

الوفاء

إن الوفاء للحق ﷻ يكون فقط باتباع أوامره، وهذا الوفاء هو ذروة الأحاسيس والأفعال المرتبطة به تعالى، لأن الخالق والمحيي والواحد الصمد هو الله عز وجل، فحياتنا وموتنا بيده سبحانه. والمحبة التي تكون له ﷻ والشعور أن تكون مرتبطًا به في كل نَفَس هو أعظم أشكال العبودية، وهو الوفاء عينه.

الوفاء

دعا الشاعر التركي محمد عاكف أحدَ أصدقائه المقربين واسمه علي شوقي أفندي البوسنوي إلى عقد قران ابنته، فتأخر قليلاً عن تلبية الدعوة لكبر سنِّه، فقال علي شوقي أفندي متحدثًا عن سبب تأخره: «إنه انعدام الوفاء». فأراد محمد عاكف أن يطيب خاطره، فقال متبسمًا:

«أيُّ انعدام وفاء تتحدث عنه يا سيدي؟ إن الجيل الحالي قد احتكر ذلك الأمر منذ زمن بعيد».

إن هذه الحقيقة التي عبر عنها الشاعر عاكف بحزن وكأنها نفثة مكلوم هي خصلة لا يمكن الاستغناء عنها يحتاج إليها الإنسان أشد ما يكون الاحتياج. فالشاعر عاكف الذي ألمح إلى ازدياد ظهور وتفشي انعدام الوفاء في عصره لو رأى مجتمعنا اليوم، فمن يعرف كيف كان سيصرخ ويستغيث ويتأوه. فاليوم البشر لا يتذكرون حتى الطيبات، وعلى الأرجح فإن كلمة وفاء لم تعد إلا اسمًا يُذكَر.

مع أن الوفاء يعد واحدًا من الشعارات الإسلامية وربما من أهم مبادئ الإسلام وأسسه. فالحقيقة أن أساس الأسس في نظر الإسلام هو الإيمان، ولكن من المؤكد أن الوفاء في الوقت نفسه هو تجل للإيمان وظهور وتجسيد له، لأن الوفاء هو رعاية العهد. والإيمان

هو تصديق الرب بالقلب، والإقرار بإظهار الصداقة والمحبة له في هذه الدنيا، أي بمعنى آخر هو الوفاء.

ومع ذلك فإن الوفاء ليس رعاية العهد فقط، بل هو الإخلاص لله ﷻ وعدم تغير حال القلب، وهو تحقق ترابط القلب بشدة، والامتنان الذي يجبرنا على إقامة علاقة جميلة حسنة بصورة فعلية تمتد من الأقارب البعيدين والقريبين، ومن إخواننا في الدين إلى آبائنا وأمهاتنا، ومن العلماء والصالحين حتى الأنبياء الذين قضوا عمرهم يجهادون لتوصيل نعمة الإيمان إلينا. وهذه الحال ليست حال موسمية بل لابد أن تستمر دائمة طوال العمر.

إن كل حركة وفعل توجب الإيمان مثلما أنها تحمل معنى الوفاء في الوقت نفسه، فإن عكس هذه الحركات والأفعال تعد من الغدر وعدم الوفاء.

فالوفاء صفة معنوية تتوج في أعلى مستوى الحياة البشرية وصفًا خاصًا بالأنبياء والأولياء وأصحاب الفضائل.

وعلى هذا النحو فقد عرَّف بعض المفسرين الإسلام بأنه: إقرار باللسان، وتصديق بالجنان، وتسليم لله تعالى ووفاء له في قضائه وقدره. وإن من أخذت قلوبهم نصيبًا من منبع الوفاء قد جعلوا من نفوسهم التي كانت مثل النار حدائقَ مزهرة مليئة بالورود. حدائق غناء لأن فيها ورود الذكر، وبلابل التسبيح، ومروج الإيمان والعرفان، وأزهار الإحسان الإلهي، وأنهار العمل الصالح. وهكذا

فإن مكافأة قلب ما تكون مناسبة لحالته نفسها، لأن تلك المكافأة هي الجنات العلا وجمال الله تعالى. وهكذا فإن النيران أمام قلوب كتلك يتغير وصفها فتصبح حدائق غناء. فمثلاً في تلك اللحظة التي أمر فيها نمرود بإلقاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في النار التي كانت مثل الجبال تبدلت حال النار بأمر الله تعالى:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[287]

واستحالت بستانًا نديًا، لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام قبل أن يُقذَف في النار أطفأ لهيب الشهوة والنفس بماء الوفاء، وكان نبيًّا تجسدت فيه الصدق مع الحق عز وجل ومحبته في كل نواحيها.

وكانت حياة رسولنا الأعظم ﷺ مثالاً ومعرضًا للوفاء من بدايتها حتى نهايتها. فقد أمره الله تعالى أن يفتح مكة ذلك المكان المبارك والمقدس الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ونشأ بين ربوعه، وبعد الفتح مكث نورُ الوجود ﷺ خمسة عشر يومًا في مكة فاغتم بعض الأنصار وحزنوا لذلك، وظنوا أن رسول الله ﷺ لن يعود معهم إلى المدينة مرة أخرى وبدأوا يتحدثون عن ذلك الأمر فيما بينهم. وعندما شعر رسول الله ﷺ بهذا القلق والهم الذي أصاب الأنصار جمع الأنصار وسألهم: «**ماذا تقولون؟**» وبعد أن علم ماذا أقلقهم وأحزنهم أراد أن يعطيهم درسًا فيا لوفاء فقال:

---

٢٨٧ الأنبياء، ٦٩.

«إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم».[٢٨٨]

وقد كرر رسول الله ﷺ هذا الوفاء مرة أخرى عندما ارتقى منبر المسجد للمرة الأخيرة في مرض الوفاة عندما خاطب المهاجرين موصيًا بحق الأنصار فقال:

«أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[٢٨٩]

ومن المعلوم أن الأنبياء كلهم هم المرشدون الذين علموا البشرية معنى الوفاء خير تعليم. ولكي نصبح عبادًا ننال محبة الله تعالى يجب أن نربي قلوبنا على تلك المقاييس والمعايير التي وضعها رسول الله ﷺ مرشدنا وهادينا ونجعلها دستوراً في أمر الوفاء.

ويمكن أن نعدد هذه المعايير على النحو التالي:

١-الوفاء لله رب العالمين:

إن أول والوفاء يكون لله ﷻ، لأن الله تعالى قد أخذ الإقرار على الأرواح التي خلقها في الأزل **«يوم الذر»** فقال لها:

٢٨٨ مسلم، الجهاد، ٨٦؛ أحمد بن حنبل، مسند، جـ.١١، ٥٣٨.

٢٨٩ البخاري، مناقب الأنصار، ١١.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[290]

وشأن هذا الإقرار أنه عهد يفيد ألوهية الخالق ﷻ، وقبول عبودية الناس له. ومَن قبِلَ هذا الأمر يكون عليه إظهار الصدق في هذا الإقرار، وإظهار الإخلاص، وجعل تلك العبودية تدوم وتستمر في أجمل شكل طوال العمر.

لأن الإقرار لا يكفي فقط لهذا الإخلاص والوفاء. بل توجد مجموعة من التكاليف التي تنشأ عن هذا القبول، وهذه التكاليف هي القيام بما أمر الله تعالى به وتجنب ما نهى الله عنه.

فالوفاء للحق ﷻ يكون فقط باتباع أوامره، وهذا الوفاء هو ذروة الأحاسيس والأفعال المرتبطة به تعالى، لأن الخالق والمحيي والواحد الصمد هو الله ﷻ، فحياتنا وموتنا بيده سبحانه.

والمحبة التي تكون له ﷻ والشعور أن تكون مرتبطًا به في كل نَفَس هو أعظم أشكال العبودية، وهو الوفاء عينه.

فالسحرة الذين صلبهم فرعون في جذوع النخل، وقطَّع أرجلهم وأيديهم من خلاف لأنهم آمنوا، لم يقولوا: ربنا نجنا وخلصنا من

٢٩٠ الأعراف: ١٧٢.

هذا البلاء، واكتب لنا الراحة والنجاة. بل ما أعظم وفاء العبودية الذي نطقت به ألسنتهم عندما قالوا:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٢٩١]

لذا كان رد الخالق الكريم على العباد الذين يمثلون وفاءً وصداقة كتلك أن قال لهم:

﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[٢٩٢]

أما في الآية الكريمة الأخرى فقد أثنى على المؤمنين الذين هم أهل الوفاء بأن قال عنهم:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[٢٩٣]

لذلك فإن مولانا جلال الدين ينادي على سالكي طريق العرفان والوجدان متحدثًا بطريق المجاز عن الوفاء للحق ﷻ والصبر على الامتحانات والابتلاءات التي في هذه الدنيا الفانية فيقول:

«أيها البلبل، إلى متى تستغيث من الزمهرير وشدة البرد؟ أيها البلبل، هل يليق أن تتحدث عن الجفاء دون توقف؟ لو أن قلبك

٢٩١ الأعراف: ١٢٦.
٢٩٢ الأحزاب: ٢٤.
٢٩٣ الأحزاب: ٢٣.

ارتبط حقًّا وبصدق بحبيبه، فافتح عيونك واشكره أيضًا وتحدث عن الوفاء. اترك الشوك وتحدث عن الورد. لا تلتفت لصفات وردتك الخاصة بالساق والجذر، وانظر إلى ذات الورد نفسها فلماذا أنت مشغول بهذا العالم الفاني؟! أليس المكان الذي تريد أن تصله وراء هذا العالم؟»

فمولانا جلال الدين رحمه الله يبيِّن أن نتيجة الغفلة وعدم الوفاء والسعي وراء المحبات الفانية والمؤقتة هو الخسران المبين.

والحق ﷻ يحذر عباده من الوقوع في هذه الغفلة فيقول لهم:

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[٢٩٤]

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى﴾[٢٩٥]

وهكذا فإن مَن يُظهر الوفاء لله رب العالمين في هذه الدنيا الفانية سيظهر الوفاء أيضًا في الآخرة، لأن أعظم الوفاء وذروته خاص بالله تعالى ذاته، والخطاب الإلهي يوضح هذا الأمر فيقول:

---

٢٩٤ الحشر: ١٩.

٢٩٥ طه: ١٢٤-١٢٦.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢٩٦]

ومع أن الحال يجب أن يكون هكذا، إلا أن هناك مَن يفعلون عكس ذلك فيغرقون في الغفلة في الدنيا وينسون ربهم. ولكنهم يوم القيامة العظيم المروع الذي يحتاج فيه المرء لأصغر حسنة وأي مساعدة سيدفعون ثمن عدم الوفاء هذا بشكل مرير للغاية.

لأن الوفاء صفةٌ يُبحث عنها وتُطلَب في الأمور كلها وعلى رأسها العبودية لله ﷻ، لأن مقابل الوفاء هو الوفاء فقط.

وما أجمل المعنى الدقيق الذي عبر عنه مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله حين قال:

«إن جميع الأمور مثل العشق والمحبة والصداقة مرتبطة كلها بالوفاء؛ فلتبحث دائمًا عن الشخص الوفي، ولا تقترب أبدًا من قلب غادر لا يعرف الوفاء والإخلاص».

«وكتب القلم: الوفاء جزاؤه الوفاء، والجفاء جزاؤه الجفاء، ثم جف مداده».

«وأي سلطان سيسرع بفصل رأس أي شخص يخونه عن جسده حتى لو كان ابنه. لكن لو أظهر عبد هندي الوفاء للسلطان لصفقت يده لذلك العبد. ولا يمكن أن ينال مئات الوزراء ذلك الاحترام الذي أبداه ذلك السلطان للعبد».

---

٢٩٦ التوبة: ١١.

«والكلب الوفي حين يقف عند باب سيده، يشعر سيده بالامتنان والرضا تجاه ذلك الكلب، ويداعبه بمحبة ويرأف به».

٢-الوفاء لسيدنا رسول الله ﷺ :

إن أعلى وأوجب وفاء بعد الوفاء لله ﷻ هو الوفاء لسيد العالمين رسول الله ﷺ. هذا الوفاء يكون لرسول الله ﷺ الذي كانت أمته أهمَّ ما لديه، وكان يتضرع إلى الله ﷻ ويدعوه قائلاً: «**أمتي، أمتي**».

هذا الوفاء يبدأ بالتعمق في محبة رسول الله ﷺ ويكون ممكنًا إذا استطاع المرء أن يعتصم بسُنَّته السنية. ذلك أن النبي العظيم ﷺ نبراس لا مثيل له يرشدنا في مواجهة الحياة والموت، ويختار لنا طرق السعادة الأبدية. وكم هي معبرة تلك الأحاديث التي توضح الوفاء له ومكافأته ﷺ لهذا الوفاء.

فعندما انقلب الحال في غزوة أحد كان المشركون يهجمون بكل قوتهم على رسول الله ﷺ يقصدون قتله. وأثناء ذلك كسرت الأسنان المباركة لسيد الأنبياء ﷺ. وفي تلك المعركة العظيمة كان حول رسول الله ﷺ صحابة كرام قدَّمَ كل واحد منهم أسطورة في الفداء والتضحية التي لا يمكن وصفها أو الوصول إلى أصغر شيء منها، فبعضهم كان يجعل من جسده ترسًا يحمي رسول الله ﷺ، وبعضهم كان يصد السهام عن رسول الله ﷺ بيده، وبعضهم كان يهجم على العدو ويسعى لتفريقه. وفي ذلك اليوم كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي يُروَى أنه رمى ألف سهم على المشركين بجانب

رسول الله ﷺ يقدم أسمى آيات التضحية والفداء. حتى إن رسول الله ﷺ كان يصيح عليه ممتنًا شاكرًا قائلاً:

«اِرمِ يا سعد، فداك أبي وأمي».

وكان علي رضي الله عنه يقول:

«ما رأيت النبي ﷺ يفدي رجلاً بعد سعد سمعته يقول: «**ارم فداك أبي وأمي**»[٢٩٧]

وعندما أرسل رسول الله ﷺ سيدَنا عثمان رضي الله عنه يوم الحديبية سفيراً إلى مكة. وأخبر سيدُنا عثمان رضي الله عنه المشركين أن نية المسلمين قضاء العمرة والعودة. لكن المشركين لم يأذنوا لهم ذلك العام. وقال المشركون لسيدنا عثمان: لو أردت أن تطوف بالبيت الآن فافعل!.

ولكن عثمان رضي الله عنه الذي كان من الذين باعوا أنفسهم لله تعالى ولرسوله ﷺ قال: ما كنت لأفعل ورسول الله ﷺ لم يطف بالبيت. فكان في هذا إخبار للمشركين بمحبته وإخلاصه لرسول الله ﷺ.

وفي هذه الأثناء قبل رسول الله ﷺ بيعة أصحابه بناء على الأحداث التي تطورت. وفي نهاية البيعة وبسبب عدم وجود عثمان رضي الله عنه بها فقد ضرب رسول الله ﷺ بيده على يده وقال:

«هذه يد عثمان، اللهم هذه بيعة عثمان» [٢٩٨]

---

٢٩٧ البخاري، الجهاد، ٨٠؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٤١.

٢٩٨ أحمد، جـ ٤، ٤٢٣؛ ابن سعد، جـ ٢، ٧٩، الواقدي، جـ ٢، ٢٠٠-٢٠٦؛ البخاري، أصحاب النبي، ٧.

وهذا العطف النبوي الذي أظهره رسول الله ﷺ لسيدنا عثمان رضي الله عنه يشمل الأمة كلها، بشرط أن يزينها إخلاص ومحبة ووفاء كالذي كان عند عثمان رضي الله عنه. ونحن من الممكن أن نشترك بالقلب مع الصحابة الذين كانوا في بيعة الرضوان بالوفاء الذي في قلوبنا، ويمكننا أن ننال البشرى التي كانت في الآيات الكريمة التي تقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيما﴾[٢٩٩]

فعلينا أن نحبه ﷺ كما يليق به ونكون أوفياء له على الدوام، فالله تعالى يقول:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً﴾[٣٠٠]

وفي إطار تلك الآيات الكريمة- التي عبرت عن معنى الوفاء لرسول الله ﷺ- جعل أحباب النبي ﷺ من كل أمانات الرسول ﷺ بداية من تلك الشعيرات المباركة التي تبقت من لحية الرسول ﷺ

---

٢٩٩ الفتح: ١٠.

٣٠٠ الأحزاب: ٦.

وشعره الشريف حتى آثار أقدامه المباركة تاجًا على رؤوسهم. وقد استمرت الأمانات كلها التي جاءت حتى يومنا الحاضر من بردته الشريفة وعصاه، ومن سيفه وقوسه وخاتمه الشريف محاطة بهذا الإحساس والشعور بالوفاء.

وتلقت الأمة كل شيء يخص رسول الله ﷺ على أنه «**أمانة مقدسة**». وفي هذا الميدان كانت العناية والاحترام والوفاء الذي أظهرته الدولة العثمانية أسطورة تتناقلها الألسنة. حتى أن بعض المفكرين قد ربطوا بين بقاء الدولة العثمانية عظيمة مهيبة طوال ستة قرون وبين احترامهم للأمانات المقدسة[٣٠١] والتي بقيت كل واحدة منها ذكرى سامية للأمة من رسول الله ﷺ، فضلاً عن اتباع الدولة للقرآن والسنة النبوية المطهرة.

٣-الوفاء لعظماء الإسلام:

إن كل مؤمن عليه أن يمتلئ بشعور الوفاء تجاه عظماء الإسلام، فهم الذين حملوا إلينا أوامر رسول الله ﷺ، ونواهيه، وأخلاقه الجميلة، وكانوا المشاعل التي تضيء دنيانا وآخرتنا. والمجتمعات الإسلامية يجب أن تحذو حذوهم وتنهج نهجهم بتعاليمهم

٣٠١ هذه الأمانات المقدسة محفوظة في رعاية خاصة في متحف طوب قابي بإسطنبول من أكثر من أربعمئة سنة والحفَّاظ يتلون هناك القرءان بالتناوب وبدون انقطاع ليلاً ونهاراً.

وإرشادهم. لذلك قالوا: «موت العلماء موت للأمم». وقد قال الحق في كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٣٠٢]

وقد فسر بعض المفسرين كلمة الصادقين التي وردت في الآية الكريمة بأنهم أهل الوفاء وأصحابه. والآية تأمرنا أن نكون مع أصحاب الوفاء في طريق الإيمان والإسلام لكي ننال الخلاص والنجاة في الدنيا والآخرة.

٤-الوفاء للوالدين والأقارب:

إن حق الوالدين من الأمور التي يجب الوقوف عندها كثيرًا، لأن خدمتهم وإكرامهم والتحدث إليهم بالكلام الطيب هو أكبر دَين للوفاء يقدمه الأبناء للوالدين وخاصة عند الكبر والشيخوخة. لذا ذكر القرآن الكريم حبَّ الوالدين وخدمتهما بعد الإيمان بالله وعبادته فقد قال الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[٣٠٣]

---

٣٠٢ التوبة: ١١٩.

٣٠٣ الإسراء: ٢٣-٢٤.

وحياة النبي ﷺ قد امتلأت بكثير من نماذج الوفاء، فعندما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي رضي الله عنها- وكانت ترعى رسول الله ﷺ في شبابه كأنها أمه- دخل عليها رسول الله ﷺ، وجلس عند رأسها وقال:

«رحمك الله يا أمي، كنتِ أمي بعد أمي تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيبًا وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة».

ثم أمر أن تُغسَل ثلاثاً، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكبه رسول الله ﷺ بيده، ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إياها وكفنها ببرد فوقه. ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون، فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده وأخرج ترابه بيده. فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه فقال:

«الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين».

وكبّر عليها أربعاً، وأدخلوها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق رضي الله عنهم.[٣٠٤]

٣٠٤ الطبراني، المعجم الكبير، جـ.٢٤، ٣٥١-٣٥٢.

وفي حياة الرسول ﷺ كثير من أمثلة الوفاء، وسيظل كل مثال منها درسًا في الفضيلة لا مثيل له للإنسانية كلها. فعقب غزوة حنين جاء وفد من قبيلة هوازن إلى النبي ﷺ- وكانوا قد أسلموا- وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يحرر أسراهم وقام خطيبهم فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك.

وعند ذلك قال رسول الله ﷺ بحس يملأه الوفاء الكبير:

«أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم».

فقال الصحابة الكرام مقتدين بالأسوة في الوفاء: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.[305]

فأُطلِقَ في ذلك اليوم ست آلاف أسير دون أي مقابل دنيوي. وقد دخلت قبيلة هوازن بكاملها في الإسلام نتيجة تلك الفضيلة التي لا نظير لها.

ومع الوالدين تأتي محبة الأقارب والأصهار والوفاء لهم. والقرابة نوعان: أولهما قرابة الإيمان والفضيلة بالمعنى العام، وثانيها القرابة الخاصة وهي قرابة الدم والنسب. وقد سُمّي الأقارب بـ«أولوا الأرحام» بالتعبير القرآني، وأطلق على زيارتهم «صلة الرحم». وقطع العلاقة مع الأقارب سلوك سيء وقبيح وذنب كبير، لذا قيل: «لا تنزل الرحمة على مجلس فيه قاطع رحم»

305 انظر: احمد، جـ. ٢، ٤٨١.

وقد أمر ديننا الحنيف بمراعاة حقوق الأقارب على أكمل وجه قريبهم وبعيدهم وبذل كل خير لهم، وجعل ذلك واجبًا علينا.

إن مظاهر المصاهرة وبناء الأسر من تجليات الله تعالى العجيبة والغريبة. ذلك أن الغرباء الذين يتقاربون أحدهم مع الآخر في ظل النكاح، والروابط ومعاشرة الأقارب التي تتشابك مثل فروع المحبة داخل القرابة هي من جملة إحسان وعطف ربنا علينا، وقطع روابط القرابة هو غدر قبيح جدًّا. فالبشر مهما تفاوتوا في الظاهر فإنهم يتجمعون عند والدي البشرية آدم وحواء ومن المؤكد أن إحساس الوفاء مع أفراح التقوى وفضائلهما يشكلان قرابة ونسباً.

إن سعادة الدنيا تقوى وتشتد برباط قرابة ووشائج أسرية إسلامية. والإخلاص في هذه الدنيا وشعور الوفاء- الذي يجعل هذا الإخلاص يستمر- هما السعادة في الآخرة. وليس الذين يستحقون الوفاء هم من عددناهم فقط، بل يجب أن نوطن الوفاء في القلب للأصدقاء والإخوان في الدين. ومن ناحية أخرى فإن الوفاء للأجداد وللأحياء والأموات وللوطن، والوفاء للأمانات كلها التي في المجتمع هي من أوصاف الذين وصلوا إلى درجة كبيرة من العلم والمعرفة والأخلاق.

ومن المعلوم أن شعور الوفاء وإحساس التقوى لدى العبد لا يجتمعان مع الإخلال بالحدود الإلهية وتخريب قلعة المحبة. وعلى

العكس من ذلك فإن النفس والشهوة يجران القلب الذي يتخبط في طرقات النفاق والغفلة من مستنقع إلى آخر ومن هاوية إلى أخرى.

فمثلاً كان سبب هلاك كثير من الأقوام هو عدم وفائهم دائمًا بالكلمة التي أعطوها للحق ﷻ.

وبينما كان يلزم على هؤلاء الوفاء والإخلاص في العهد وأداء دَين الإنسانية تجاه الله ﷻ، لم يستطيعوا أن يصلوا إلى هذا أبدًا. وهكذا فإن العلم يكون سببًا للهلاك لو ظل محرومًا من المعرفة والإذعان. وهذا الدرس المعبر للذين يرون حالهم وللذين يأتون بعدهم قد جُعل وسيلة نصح وإرشاد للمتقين، يقول المولى ﷻ:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[306]

وما أجمل تلك القصة للشاعر فريد الدين العطار التي تعكس حال من نسوا النعم التي أعطاها الله لهم، وأظهروا الغدر وعدم الوفاء، يقول:

«كان لدى السلطان كلب صيد يحيطه السلطان بالرعاية، وكان ذلك الكلب ماهرًا وحاذقًا في الصيد. وكان السلطان يعزه إلى أقصى درجة. وكان في كل مرة يخرج فيها إلى الصيد يصطحب هذا الكلب معه، وقد زين السلطان طوق الكلب بالمجوهرات وعلق على قدميه أسوار مصنوعة من الذهب والفضة.

---

٣٠٦ الأعراف: ١٠٢.

وذات يوم خرج السلطان للصيد مع أركان دولته واصطحب معه ذلك الكلب، وكان السلطان يسير بشكل وقور على حصانه ممسكاً في يديه طوق الكلب بحبل من الحرير وكان السلطان سعيداً للغاية، ولكنه رأى شيئًا فجأة جعل تلك السعادة تزول سريعاً. لقد كان الكلب الذي يحبه جدًا في حال نسي فيها السلطان وانشغل بشيء آخر.

وعندما أراد السلطان حزينًا أن يجر الكلب رفض الكلب بعناد شديد، واستمر يقضم قطعة عظم كانت أمامه. وأمام تلك الحال صاح السلطان وسط مشاعر الحيرة والغضب: كيف تنساني وأنت معي وتنشغل بشيء آخر كيف يكون هذا ؟

وحزن السلطان وأصابه الغم وأثر فيه بشدة غدر الكلب وعدم وفائه وإحساسه. ولم يلتمس له السلطان العذر، ولم يجد في نفسه الرغبة أن يعفو عنه. فليس نسيان السلطان الذي أكرمه وأحسن إليه وأعزه للغاية فجأة مقابل عَظْمة صغيرة بالأمر الذي يمكن تجاوزه أو العفو عنه لأن تصرف هذا الكلب جرح قلب السلطان وكان مخالفًا للوفاء.

فقال السلطان بغضب: أفسحوا الطريق لعديم الأخلاق هذا. وفهم الكلب معنى هذه الحيرة، لكن لم يكن في مقدوره أن يفعل أي شيء. ولم يكن هناك شيء ليعمله. ونظر الذين حول السلطان إلى السلطان قائلين: يا سلطاننا لنأخذ ما عليه من مجوهرات وذهبٍ وفضةٍ ثم لندعه يذهب ويمضي. فرد عليهم السلطان قائلاً:

لا اتركوه وليذهب على تلك الحال. وأضاف بعد ذلك قائلاً مرة أخرى: اتركوه وليذهب هكذا ليبقى غريبًا جائعًا عطشان في الصحراء الخالية الخربة الحارة. ولينظر إلى ذلك الذهب وتلك المجوهرات وليعش مرارة الإكرام والإحسان الذي فقده».

فما أجمل العِبَر التي تحملها هذه القصة التي تعكس حال الأشخاص غير الأوفياء وأهل الغدر الذين لم يستطيعوا أن يعرفوا قدر وقيمة نعم الله ﷻ التي لا تحصى ولا تعد، وتعلقوا بمنافع بسيطة تافهة دنيئة كان فيها هلاكهم. فالذي هوى إلى تلك الحال يرى كل هذه المتعلقات الفانية فارغة تافهة لكن كل شيء يكون قد انتهى.

يقول مولانا جلال الدين رحمه الله: «إذا كان الغدر هو مسبة وعيب حتى في حق الكلاب فكيف ترضى كإنسان أن تظهر هذا الغدر وعدم الوفاء».

وعلى هذا النحو فإن الأكابر كانوا يقولون:

«خذ العبرة على قدر ما تستطيع من أحوال الغافلين، و أحوال الصالحين أيضًا. وتطلع لأن تكون عبدًا وفياً لله ﷻ».

نعم هذه هي كل المسألة: «أن تقدر أن تكون عبدًا وفيًا فقط».

فلنشكر الله تعالى شكرًا لا ينقطع أن أعطانا شرف وبركة أن نكون لسنوات عدة قريبين للغاية من عبد وفي. ذلك العبد هو والدنا

المحترم موسى أفندي رحمه الله، هذه الشخصية الفريدة التي انتقلت إلى رحمة الحق ﷻ في اليوم السادس عشر من شهر تموز/ يوليو عام ١٩٩٩م ودفن في مقبرة «الصحراء الجديدة» بإسطنبول.

كان والدنا وأستاذنا ممثلاً كاملاً في زماننا لسيدنا أبي بكر الصديق ﷺ من ناحية الطبيعة والوفاء والخُلق، وكان معروفًا بين محبيه بأنه «**صاحب الوفاء**». هذا التعبير بلاشك لم يطلق على شخص كبير كهذا عبثًا وبلا سبب، لأن حبيب الحق هذا عاش طوال عمره تجسيدًا ورمزًا استثنائيًّا للوفاء والصداقة، وكان محيطًا بقلبه وشمسًا لأيامنا وقمرًا لليالينا وقطبًا للاستقامة وسلطانًا للعارفين.

فقد جمع في قلبه مظاهر الوفاء كلها التي ذكرناها حتى الآن. وكان يستحق لقب «**صاحب الوفاء**». ورغم مرور الكثير من الوقت بعد وفاته، إلا أن الزمن لم يستطع أن يضمد حتى جرحًا من جروح الفراق التي في قلوبنا. على العكس من ذلك كانت تشتد أكثر فأكثر، لأن قلبه الذي تحلى بوفاءٍ لا يُوصَف كان ارتباطًا دائمًا بنا، ومكانًا فريدًا للمحبة.

وعندما يقدِّر الله ﷻ خدمةً شريفة لعبد من عباده، ينعم عليه بأن يجعله لائقًا لهذا العمل. وهكذا عندما يُنظَر من هذا الجانب نجد أن الكمالات الظاهرية والباطنية قد تمثلت في شخصية موسى طوبّاش أفندي في كل نواحيها. وكان يمكنه توضيح المواقف والأحداث الصعبة للغاية بفراسة ودراية عميقة حتى أدق التفاصيل.

كانت أحواله مثل الصداقة مع الحق ﷻ والتدثر بالكتاب والسنة المطهرة، وحماية أمانات الأجداد بالنفقات التي كان يقوم بها، والمعاملة الطيبة التي كان يبديها للأقارب والأحباب والأصدقاء وحتى أصدقاء الأصدقاء، وجهوده في خدمات الوقف؛ كل هذا كان بالنسبة لنا تجسيدًا حقيقيًا لمعنى الوفاء.

ويمكن لنا أن نعدد مجموعة من مشاعر الوفاء التي لا تحصى ولا تعد لموسى أفندي رحمه الله، من ذلك أنه كان يشعر بحال البائسين وكبار السن في المجتمع الذين تُرِكُوا للوحدة ويعانون من الألم والفقر والعوز والحاجة نتيجة عدم الوفاء. وكان يقول لنا: «علينا أن نأوي هؤلاء البؤساء في بيوتنا في الأساس، لكن هذا ليس في مقدورنا. وفي هذه الحال يجب أن نؤسس بيتًا هادئًا لهم».

وقد نجح مع عدد من المقربين له في تحويل هذه الفكرة الجميلة إلى واقع ملموس. وكان أحيانًا يزور هؤلاء الغرباء البؤساء ويتعرف عن قرب على احتياجاتهم ومتطلباتهم.

وكان قلبه يمتد ليسع حتى القطط التي في الحديقة وكان يسميها بصفاتها وكان يعامل كل واحد منها بالمحبة والرحمة التي كان يعامل بها أولاده.

حتى إنه جعلني شخصيًّا أبحث بعد خمسة وخمسين عامًا عن الممرضة الذي كانت تقوم على رعايتي عندما كنت رضيعًا وأخيرًا وبعد جهد وجدتها فأكرمها وبذل لها الود.

أما وفاؤه لأستاذه سامي أفندي رحمه الله فكان أسطورة على الألسنة. فقد كان منزل سامي أفندي هو أول مكان يزوره في أيام الأعياد، وكان يذبح أول أضاحيه من أجله.

وكان يتوسل بقراءة الختمات الشريفة لروحه الطاهرة بشكل خاص. وكل عام كان أكثر ما يسعد قلبه الوفي هو آلاف الختمات الشريفة التي يتلوها محبوه على روح أستاذه.

والخلاصة أنه كان بالنسبة لنا مدرسة للمحبة والود مثل أبي بكر الصديق ﵁ في حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله في موضوع الوفاء.

فاللهم أحسنْ علينا أجمعين، وأدخِلنا في زمرة الصالحين وأحسِن على قلوبنا بأحوال «صاحب الوفاء» الجميلة، ومُنَّ على أعمالنا بالصدق والإخلاص واجعلنا أجمعين من ورثة جنة النعيم.

واجعل من أولادنا وذريتنا أئمةً وتاجاً على رؤوس المتقين. واجعلنا أجمعين أوفياء لك ولرسولك وللوالدين والأقربين ولأهل الإيمان كلهم وللوطن والأمة وللأمانات الأخرى كلها. واجعلنا نعيش في رحاب رضاك الشريف في الدارين في الدنيا والآخرة.

آمين!

الاقتداء بأهل الإيمان

إن أولياء الحق ﷻ قد قضوا على ميولهم الشهوانية داخل نفوسهم، لأنهم كانوا في أنوار محبة الله تعالى. وهكذا فإن البشر ينجذبون إليهم بغير إرادة للأنوار الربانية التي تشع منهم.

الاقتداء بأهل الإيمان

إن الله تعالى قد أعان عباده للوصول إلى السعادة عن طريق تكليف بشر صالحين وشخصيات استثنائية ذوي فطر سليمة مرشدين يأخذون بأيديهم من أجل إيصالهم إلى الهداية.

فالإنسان فطريًّا يتأثر بالقدوة الحسنة؛ أي ثمة حاجة كبيرة لنموذج فعلي يوجه الإنسان إلى الحق والحقيقة ويؤثر في تربيته الروحية وفي قلبه وعقله. ومن أجل ذلك فإن الله تعالى لم ينزل الكتب فقط، بل أرسل أشخاصًا أصحاب خلق وشخصية سامية من أجل إرشاد البشر ليتركوا تأثيرات عميقة في كل نواحيهم وهؤلاء الأشخاص هم الأنبياء. والله تعالى قد أحسن علينا بالأولياء الذين ساروا على نهج هؤلاء الأنبياء والرسل.

فالأنبياء والأولياء لم يستطع حتى أعداؤهم أن يصفوهم بوصف قبيح، ونتيجة هذا فإن كثيرًا من البشر عرفوا الحق والحقيقة وتشرفوا بالإيمان.

فالصحابة الكرام مثلًا قد دُهشوا أمام شخصية الرسول ﷺ وأخلاقه إذ أنه كان كأنه قرآن حي. وزال من الوجود البشر أشباه الوحوش الذين كانوا يدفنون بناتهم أحياء، وتحولوا إلى شخصيات سامية في التاريخ الإسلامي.

وعلى هذا النحو فإن أهم صفة لأهل الإيمان الذين يسيرون في طريق الإيمان والإخلاص والتقوى هي بناء شخصية موافقة ومطابقة لشخصية النبي ﷺ. وهكذا فإن المؤمنين أصحاب كل خصلة وخلق جميل يصبح كل واحد منهم كأنه نبع هداية.

أما المحرومون من هذا فقد ملوا حتى من إدراك ما في هدايتهم من معان، ووجدوا راحة نفوسهم في الابتعاد عن هذا الطريق والخروج عنه. وقد قص مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله قصة ليعبر بها عن تلك الحقيقة فقال:

«في زمن حضرة أبي يزيد البسطامي كان هناك شخص يعبد النار، وذات يوم قال له شخص مسلم بغلظة: ماذا يضيرك لو أصبحت مسلماً لتنجو وتنال الشرف والعلو؟!.

فرد عليه ذلك الشخص عابد النار: أيا من تريد إرشادي إلى طريق النجاة إنني أُوْمِن بشكل خفي بإيمان أبي يزيد البسطامي، إلا أني لم أُعلن إيماني صراحة ومازال لساني معقودًا كأن عليه ختم قوي يمنعني من نطق كلمة الحق. ذلك أني أرى في ذلك الرجل نورًا يسطع، ورغم أني حتى الآن لم أعطِ قلبي بشكل كامل لدينه وإسلامه، إلا أنني متحير لسمو إيمانه ورقيه. فهو إنسان يختلف عن باقي الناس ذلك أنه روحاني نوراني قدوة.

ولو كان الإيمان الذي تدعو إليه هو إيمانكم ولم يكن هناك غيره فلا فائدة لي في هذا الإيمان. لذا لا أرغب ولا أميل إلى الإيمان

الذي عندكم، لأنه لو كان لدى المرء مئات الدوافع للإيمان في قلبه فإن هذا الإيمان بسبب غلظتك وقساوتك سيذبل ويخبو وينقطع الطريق إليه. وسيضعف هذا الإيمان في قلبه، لأن الإيمان لديكم قد تحول إلى اسم لا يحمل معنى اسم الإسلام، وأصبح ظاهرًا يكاد يفقد الروح. وهذه الحال بلا معنى، كمن ينظر إلى الصحراء الجافة بعين أرض منبتة مخضرة تخرج الورود والفواكه والثمار.

أما نورانية الإيمان كلها فقد رأيتها- على قدر ما استطعت أن أرى- في إيمان أبي يزيد البسطامي. فذرة من إيمانه، أو قطرة منه تتحول إلى بحر. أما إيمانك فقد دخل في أسر الظاهر والرياء بسبب أنه ظل عند القشور. وإيمان لا جذور له هو مؤذن قبيح الصوت يؤذن في الناس بلا روح، بدل أن يُحَبِّب إلى الناس في الصلاة سوف يبعدهم عنها. أي إن إيمانكم لو دخل حديقة الورود لأصبح شوكًا لهذه الورود يجب التخلص منه.

ولكن شمس إيمان حضرة الشيخ أبي يزيد البسطامي تشرق من سماء روحه المباركة المنيرة، ولو تلألأت في هذا العالم فسوف تجعل من تلك الدنيا- التي بلا قيمة أو ثمن- أغلى زمردة في أعماق الأرض وتحولها إلى جنة. فقلوب المؤمنين هي منبع ذلك النور. من أجل ذلك فإن إيمان أبا يزيد وصدقه يثير شوقاً لا يمكن وصفه للإيمان في قلبي وروحي.

وهكذا فإن شخصية أبي يزيد البسطامي السامية كانت تؤثر حتى في عابد النار وكانت لوحة معبرة للذين يتلقون هذا الدين. فبأي شيء

كان لولي الله هذا تلك الشخصية؟ إنه بلاشك قد أسسها بالارتباط بالله تعالى ورسوله ﷺ ومحبتهما والنظر إلى مخلوقات الله تعالى بعين الخالق؛ أي أصبح مظهرًا لتجليات الشفقة لخلق الله».

وكم هي معبرة تلك الأمثلة التي تعكس العالم القلبي والوجداني لأبي يزيد البسطامي حبيب الحق تعالى ومنها:

أنه جلس تحت ظل شجرة يستريح في إحدى رحلاته. وبعد أن استراح مضى في رحلته، وفي الطريق رأى مجموعة من النمل قد علقت بالكيس الذي يحمل فيه متاعه عندما جلس في ذلك المكان ليستريح. فعاد من جديد إلى ذلك المكان وترك النمل في مكانه القديم من أجل ألا يحرمهم من وطنهم ويجعلهم يذوقون حياة الغربة.

والواقع أن تلك الرقة وهذا الإحساس البالغ قد جاء من المحبة الإلهية، لذا كان ذلك الرجل حبيب الحق يشعر ويحس بالضيق والعذاب في صدر كل واحد من مخلوقات الله تعالى بفضل الخالق عَزَّ وَجَلَّ.

وهذه الحال هي انعكاس تلك الأخلاق الجميلة لرسول الله ﷺ، فذات مرة دخل رسول الله ﷺ حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه فأتاه النبي ﷺ فمسح عيناه فسكت فقال:

«**مَن رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟**» فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يارسول الله، فقال:

«أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكى إلي أنك تجيعه وتدئبه [أي تكده وتتعِبُه] ».[307]

إن أمثال حضرة أبي يزيد البسطامي الذين تحلوا بهذا الخلق وما شابهه من أخلاق الرسول الكريم ﷺ قد ساروا على هدي الرسول ﷺ في كل أحواله، لأن قلوبهم السامية قد وصلت إلى حال «**القلب السليم**».

ولهذا فإنهم ومن سار على هديهم كان كل واحد منهم نموذجاً لأهل الإيمان، فكانت ابتساماتهم مثل فصل الربيع تعطي الهدوء والسكينة للقلوب. وكانت نظرتهم نسمةً منعشة عليلة تهب على الأرواح. وكانت وجوههم النورانية تذكِّر الناس دائمًا بالله تعالى، لأنهم أخذوا الفيض والنور دائمًا من رسول الله ﷺ. والمثال التالي يوضِّح ما نذكره هنا:

عُيِّن زوجُ السيدة غورجو مُريدة مولانا جلال الدين الرومي واليًا على مدينة قايسري، فأرسلت هذه السيدةُ الرسَّامَ (عينَ الدولة) الذي كان أشهرَ رسَّام في القصر السلجوقي إلى مولانا جلال الدين كي يرسم لها صورته سرًّا ويحضرها إليها، فلما أتى الرسامُ مولانا جلال الدين في حال من الغفلة أخبره الخبر، فتبسَّم مولانا وقال:

«نفِّذ ما أُمِرت به!».

---

٣٠٧ أبو داود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٤٩.

فابتدرَ الرسَّام لرسمِه، غير أنه وجدَ أن اللوحة التي رسمها لا علاقة لها بوجه من يقف أمامه لا من قريب ولا من بعيد، وكأنها لرجل آخر. فبدأ يرسم مرة أخرى، فكانت النتيجة نفسها، فأعاد الرسمَ ٢٠ مرة، وكان في كل مرة يرى مولانا جلال الدين بصورة مختلفة، ثم أدرك في نهاية المطاف عجزَه، فترك هذا العمل، وانكبَّ على يدي مولانا جلال الدين الرومي، إذ ضاع فنُّه بين خطوط رسوماته.

فأحيَت هذه الحادثة قلبَ الرسَّام، وجعلته يتعمق في التفكر والتدبر بِحيرَة ودهشة وخوف ووجل، وجعلته يتأمَّل ويتبصَّر في نفسه، ثم قال وهو في هذه الحال:

«إن كان وليُّ هذا الدِّينِ على هذه الحال، فكيف بنبيِّه؟».

وانحنى على يد مولانا يقبلها وتاب على يديه.

ومن الأمثلة أيضًا أننا كنا عائدين ذات يوم مع والدي موسى أفندي رحمه الله من بورصا إلى إسطنبول في رفقة السيد سامي أفندي رحمه الله. وفي مدينة «يالوفا» وقفنا في الصف بسيارتنا من أجل أن نركب العبَّارة التي تنقل السيارات. وكان هناك رجل مهمته تنظيم السيارات في صفوف حتى لا يكون ذلك الأمر محلًّا للنزاع.

وعندما جهز ذلك الرجل مكانًا لسيارتنا رأى فجأة سامي أفندي وموسى أفندي- اللذين كانا يجلسان في القسم الخلفي من

السيارة- فتوقف بشكل فيه كثير من التعجب، واقترب من السيارة ونظر بتمعن من زجاج السيارة إلى داخلها وتأوه بحزن عميق وقال:

«الله... الله ما أعجب الدنيا! فيها وجوه مثل الملائكة ووجوه مثل وجه نمرود».

وهذه الحال بلاشك هي أجمل مظاهر الدعوة إلى الله تعالى التي تكون حتى بالوجه فقط دونما كلمة أو حرف. فيمكن أن نبني شخصيتنا ونقويها بأن نستفيض من أنوار قلوب الصالحين الذين نلتقي بهم.

ولا بد أن ننتبه إلى الذين يكونون في مقدمة الناس أي أصحاب الشخصية والأخلاق السامية الذين يمكن أن يكونوا منبع هداية للناس، لأن البشر يدورون مثل العجلة الخلفية التي تتبع العجلة الأمامية في السيارات ويعيشون تبعًا للنماذج التي يرونها أمامهم.

إن الصالحين هم شموس الرحمة التي تطلع في آفاق السعادة والسكينة، أما الغافلون فهم آبار الظلمة والظلام. وهذه الحقيقة قد عكسها أحمد جودت باشا في كتابه بوضوح إذ قال:

«كان الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي مغرماً بالمباني والمزارع الجديدة، فشغف الناس بالبناء والزراعة، وكانوا في مجالسهم ونواديهم يتحدثون عن الإنشاءات والمزارع. أما سليمان بن عبد الملك فكان مغرماً بالطعام والميل إلى السفاهة، فاهتم الناس في عهده بالزينة والولائم العظيمة والسفاهات وأصبحت

التسلية هي شعار عهده. وعندما تولى عمر بن عبد العزيز ﵁ أمر الخلافة كان أحد الخلفاء العظماء وكان خليفة عابدًا زاهدًا. وفي عهده دخل الناس في طريق العبادة والطاعة. وكان يسأل دائمًا في مجالسه عن أحوال الطاعات والعبادات فيقول:

«ماذا كانت أورادك هذه الليلة؟ كم حفظت من القرآن الكريم؟ كم يومًا صمته في هذا الشهر؟ كم غريبًا محتاجًا أطعمته وآويته؟»[٣٠٨].

ومن المؤكد أن التأثيرات والفيوض الإيجابية التي لهؤلاء القدوة على البشر تأتي من أن قلوبهم قد امتلأت حتى نهايتها بمحبة المولى ﷻ. وعلى هذا النحو كان المولى عَينُهم التي ترى وآذانهم التي تسمع.

أي إن أهل الحق ﷻ قد قضوا على ميولهم الشهوانية داخل نفوسهم بشكل كامل لأنهم عاشوا في أنوار محبة الله تعالى. وهكذا فإن البشر ينجذبون إليهم بغير إرادة للأنوار الربانية التي تشع منهم.

ولأن هؤلاء قد استطاعوا أن يخلصوا أنفسهم من العوارض الفانية فقد عاشوا في حرص على ألا يسقطوا أبدًا في غياهب الصفات المذمومة مثل الغرور والكبر والعجب.

وكانت أهدافهم وغاياتهم كلها هي نيل رضا الحق ﷻ وعلى هذا النحو لم يكن هناك فرق عندهم بين القلة والكثرة، والبرودة والحر،

---

٣٠٨ أحمد جودت، قصص الأنبياء وتواريخ الخلفاء، جـ.١، ص٧١٧.

والغنى والفقر؛ كل الرتب الفانية والظروف الحادثة والطارئة كانت سواء لأن كل واحد منها كان مجرد ظل زائل.

وهؤلاء الأخيار كانوا في تسبيح واستغفار دائم، ووضعوا أنفسهم تحت مراقبة دائمة، وغضوا أعينهم عن عيوب الآخرين وسيئاتهم ونقائصهم. وقد عاش هؤلاء حياتهم لا تلتفت قلوبهم لزخرف الدنيا الزائل واستغنوا عما بها من متاع حتى لو تعرضوا للأذى من بعض الجهلاء حالهم كما تقول الآية الكريمة:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾[٣٠٩]

والدنيا قد أُمرت أن تخدم مثل هؤلاء الصالحين وأن تطيعهم فيما يطلبون وفي ذلك يقول الحديث الشريف:

«من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّقَ عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له».[٣١٠]

والشخصيات الكبيرة لها أخلاق وطبيعة كاملة إلى حد بعيد، لأنهم لا يؤذون أحدًا، ولا يتألمون من أي أحد، إلا أن يكون في سبيل الله تعالى. فهم قد عاشوا سر البيان الإلهي:

---

٣٠٩ الفرقان: ٦٣.

٣١٠ الترمذي، صفة القيامة، ٣٠.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[311]

وقد عاش سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه هذه الآية الكريمة مع خادمه الذي كان يقدم له الطعام فعفا عنه، وأحسن إليه فأعتقه.

والحسن البصري أيضًا كان يعفو عمن اغتابه ويربيهم بأن يحسن إليهم ويرسل إليهم بالهدايا. ومن أجمل ما قاله الشاعر التركي يونس أمره الذي انعكست عليه أحوال عظماء الإسلام الجميلة:

بالصوم والصلاة والحج

لا تظن أنهيت عمل الزاهد

فالعرفان أمر لازم

لكي تصبح إنسانًا كاملا

وصفوة الكلام أن العباد الصالحين الذين كانوا أهل إيمان قدوة للبشر كلهم، كانوا في أحوالهم مركزًا للرأفة والخير، وكانوا يتضرعون بعبادة خفية للخالق ويسبحونه مع كل نفَس من أنفاسهم.

والذين صاحبوهم عاشوا لذات ما عرفوها قط، لأن قلوب هؤلاء الخواص قد قدمت فيوضات معنوية كثيرة إلى الذين خاطبوهم كل بحسب استعداده، فلكي نستفيد من أهل الحق هؤلاء يجب أن

311 آل عمران: ١٣٤.

نصاحبهم ونكون في معيتهم في الدنيا، وأن نكون معهم عند الهجرة والسفر إلى العالم الأبدي إلى الآخرة.

وقد أمر الله ﷻ الأرض ألا تأكل أجساد العباد الصالحين بسبب فضائلهم وأخلاقهم.

وفي ذلك يحكي جابر بن عبد الله رضي الله عنه فيقول:

«لما حضرَ أُحُدٌ دعاني أبي من الليل، فقال: ما أراني إلا مقتولًا في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك، غير نفس رسول الله ﷺ، فإن عليَّ دينًا فاقضِ، واستوصِ بأخواتك خيرًا. فأصبحنا، فكان أول قتيل ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته هُنَيَّةً غير أذنه».[٣١٢]

ومثال آخر لتلك الحال من التاريخ المعاصر قصة حافظ للقرآن ومؤذن للصلوات من أهل الإستقامة. فقد حكى عنه الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو رحمه الله شاهدًا على القصة، إذ قال:

«بعد وفاة هذا المؤذن بثلاثين عامًا فتحوا القبر لينقلوه منه بسبب شق طريق في تلك المنطقة. وعندما فتحوا القبر وجدوا جسده سليمًا مازال على حاله لم تأكله الأرض، ولم يفسد. بل إن كفن ذلك الميت كان شديد البياض كأنه كفن جديد».

٣١٢ البخاري، الجنائز، ٧٨.

وفي التاريخ الإسلامي تصادفنا كثير من تلك المرويات والمشاهدات وأشباهها، وهذه تجليات فريدة للحق ﷻ على بعض عباده الصالحين لكي نأخذ منها العبرة والنصيحة والتنبيه. فأجساد العباد الصالحين تصير تراباً مثلها في ذلك مثل أجساد جميع البشر، إلا أن الله تعالى ينعم على بعض عباده الصالحين فلا تفسد وتتعفن أجسادهم، وهذا الأمر إكرام من الله تعالى فيه حكمة لنا. ولكن المهم أن نسعى ونجتهد، لأن نكون مثل هذه الشخصيات العظيمة من جانب، ومن جانب آخر نربي أولادنا صالحين لأمتهم. وفي ذلك يقول الحديث الشريف:

«إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول أنَّى هذا؟ فيُقَال باستغفار ولدك لك».[٣١٣]

وفي حديث آخر يتعلق بهذا الشأن يقول رسول الله ﷺ:

«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[٣١٤]

إن الإنسان الذي يعيش بقلب روحاني يحوِّل وجه الأرض إلى جنة وتكون رحمة الله تعالى وإحسانه مكافآت له. وذروة السعادة في الحياة الدنيا وربما بداية السعادة الأبدية أن نستطيع أن نعيش

٣١٣ ابن ماجه، الأدب، ١.

٣١٤ مسلم، الوصية، ١٤؛ الترمذي، الأحكام ٣٦.

بالمحبة المحمدية في رحاب الربيع المحمدي. ومهمتنا طوال عمرنا أن نقتفي أثره ونحافظ على عزته وشرفه الذي منحه لأمته.

فاللهم أنعم علينا بأن نؤدي تلك المهمة العظيمة، وأن يعيش كل واحد منا عمره نموذجًا لأهل الإيمان أمثال عمر بن عبد العزيز، وأبي يزيد البسطامي ومحمود سامي أفندي وغيرهم. وأدخلنا في زمرة السعداء الذين تحيا بهم الأمة الإسلامية. آميـــن!

القدر وأسراره

إن قدرة العين على الرؤية والأذن على السمع تمتد حتى مسافة معلومة، وتنعدم هذه القدرة بعد تلك المسافة. وكذلك الحال عند إدراك القضاء والقدر بشكل لائق فهو فوق قدرة البشر، لأننا نسعى لأن نعرف الأحداث ونحللها بالأسباب والأعذار، ولا يمكن أن يدرك أغلبنا الحكمة التي وراءها.

إن القدر المحدد بأدق تفصيلاته، والقضاء الذي يحدث عندما يحين وقته، يحدِّدان زمن الأحداث كلها، مكانها وشكلها وأسبابها في الكون كله من الذرات إلى المجرات، وتظهر حكمتهما بعظمة تليق بالجلال الإلهي.

إن الله تعالى قد خلق الموجودات كلها بقدر وسيرها بقدر، وآثار الأحداث في طرق الحياة هي خطط القدر في الحقيقة. فالقمر والشمس والنجوم والنباتات والإنسان والحيوانات وسائر الموجودات كلها تحتويها خطة القدر هذه، وحتى أي ورقة تسقط من فرع شجرة لا تخرج عن تلك الخطة. ولو لم تكن الموجودات كلها تابعة لخطة القدر لعمَّت الفوضى في الكون، فكل أثر فني يوجد ويتم إبداعه بحسب قدرة الصانع وإمكانياته. فمثلاً كل خط لخطاط أو لوحة لفنان تتكون وتتشكل بحسب إرادته واستعداده. وأيضًا فإن الله ﷻ قد قدَّر وحدد بإرادته الإلهية ومشيئته منذ الأزل مظاهر القدرة التي ستظهر في الحياة منذ خلق الكون وحتى فنائه، والحِكم والأسرار التي في الإنسان الذي هو خارقة الصنعة الإلهية، والخصوصيات التي ستصاحب الأحياء الأخرى منذ الميلاد وحتى الوفاة.

وهكذا فإن القدر هو اسم لماهية هذا التنظيم الذي هو محصول الإرادة والمشيئة الإلهية. وقد عبر الحق ﷻ عن هذه الحقيقة في كتابه العزيز فقال:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٣١٥]

وقال أيضًا:

﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[٣١٦]

فالخلاصة أن القدر هو علم الحوادث التي لم تخلق بعد، ومعرفتها وترتيبها وتثبيتها في اللوح المحفوظ؛ أما القضاء فهو تحقق تلك الحوادث بالتدريج في ترتيبها بالشكل الذي تم تثبيته في اللوح المحفوظ. ومعرفة الحق ﷻ بالحوادث التي ستظهر بصفة العلم قبل أن تتحقق تلك الحوادث هي من مقتضيات الألوهية.

ولا ريب أن الله سبحانه وتعالى هو صاحبُ تلك العلوم والمعارف، لأن الشروط التي تقوي فهمَ القضاء والقدرة والإحاطة بها بالنسبة لنا هي ليست موضوع بحث بالنسبة لله تعالى.

ومن الضروري أن نؤمن بوجود كل شيء في الكون وخلقها بكلمة كُنْ. ورغم أن القدر هو أكثر شرط مجرد مطلق من شروط

٣١٥ القمر: ٤٩.

٣١٦ الحديد: ٢٢.

الإيمان الستة، إلا أنه في الواقع حقيقة يقبلها كل فرد بالإجماع. وحتى الأفراد غير المؤمنين يقبلون دائمًا تأثير قدر ما على قوتهم نفسها بقولهم: «مكتوب على الجبين».

حتى المنكرين يظهرون التصديق بحقيقة القدر في ضمائرهم وأعماقهم- ربما بسبب الفطرة- بعبارات مثل: «حظي ساعدني» أو «عاندني طالعي».

فأي إنسان يفكر كما ينبغي في الحوادث التي يقابلها لا يستطيع أن يمنع نفسه من الإيمان بأن السيناريوهات التي لا حصر لها- والتي تُعرَض وتُشاهَد في الكون- تظهر وتتحقق في رحاب إطار حدده الله تعالى.

فكما أنه لا يمكن تعريف اللون لإنسان أعمى لا يرى، فإن من يفكر بالانطباعات المأخوذة من عالم الدنيا- والمحددة بالإدراك البشري التابع لقيود الزمان والمكان- لا يمكن أن يصل بشكل لائق ومناسب لسر الماهيات العليا كالقضاء والقدر.

إن الحق ﷻ قد أخفى قدَره عن مخلوقاته كلها، ولا قدرة لأحد أن يعرف قدره قبل أن يتحول إلى قضاء. لكن الله تعالى في هذا الأمر قد أعطى جزءًا من «علمه اللدني» لبعض خلقه.

والواقع أن بقاء القدر مجهولاً، وعدم القدرة على معرفته، وعدم استطاعة قوة تفكير الإنسان تجاوز هذا الجدار المرتفع المسمى الغيب، هو من مقتضيات رحمة الله تعالى اللامنتهية.

ولكن توجد بعض المواقف الاستثنائية كالرؤية الصادقة أمكنها تجاوز هذا العائق، وعبور هذا الجدار في ظل اللطف والإحسان الإلهي.

ففي الحقيقة يُشاهد كثيرًا تحقيق الأخبار المستقبلية التي يراها الأشخاص الصالحون في رؤياهم، وهذه الرؤى فيوضات نورانية انعكست من «**اللوح المحفوظ**» على قلوبهم.

ويطلق اسم «**الإرادة الجزئية**» على قدرة الإنسان على ترجيح أن يقوم بأعمال الخير أو الشر من عدمه. أما «**الإرادة الكلية**» فهي أمر خاص بالحق ﷻ.

لهذا فإن الحرية المطلقة بالنسبة للعبد غير ممكنة، فأمور مثل الميلاد والوفاة والعمر والجنس والقومية والذكاء لا يمكن للإنسان أن يتدخل فيها، لأنها تدخل في نطاق «**القدر المطلق**»، والإنسان غير مسؤول عن هذه الأفعال التي تفرض عليه.

وقد جعل الحق ﷻ عبده مسؤولاً على قدر الامكانيات التي أعطاها له، فلا ثواب ولا عقاب في الأفعال التي تحدث خارج إرادة الإنسان. فمثلاً لو شرب أحد الصائمين أو أكل وهو ناسٍ لا يفسد صيامه، لهذا لا تقع عليه أي عقوبة.

وقد بين الحق ﷻ في الآية الكريمة أنه لم يُحَمل الإنسان فوق طاقته فقال:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٣١٧]

لكن الله ﷻ قد جعل الإنسان مسؤولاً على قدر طاقته، فعندما يرتكب الإنسان معصية ما بشكل إرادي لا إكراه فيه ويحمِّل القدر مسؤولية هذا الذنب يكون ذلك من غفلته وجهله.

فالله تعالى قد وضع أسس الفجور والتقوى في نفس الإنسان لأن الإنسان هو مخلوق مسؤول مجهز للامتحان.

وقد أعطى الحق ﷻ للإنسان حق الاختيار بين أمرين واستعمال أي منهما بحرية وبشكل إرادي. أي إن العبد قد أُعطي في هذه الدنيا الفانية الحرية داخل حدود معلومة. وهذا يطابق تمامًا المصروف الذي يأخذه طفل من والده ويكون مخيرًا في إنفاقه في الخير أو الشر. وهكذا فإن هذه الاختيارية هي أهم رأس مال للسعادة الأبدية أو الهلاك.

وفي هذا الكون حتى الورقة على الشجرة لا تهتز أو تسقط إلا بإذن الله تعالى. ومع أن إرادة الحق ﷻ متحققة في كل كائن، إلا

٣١٧ البقرة: ٢٨٦.

أن رضاه لا يكون إلا في الخير. فغاية ومراد كل أستاذ أن ينجح طلاب فصله كلهم، ولكن لو لم يجتهد الطلاب فليس هناك ما يفعله الأستاذ.

إن وظيفة الطبيب هي التماس الشفاء للمريض، ولكن لو لم يتبع المريض وصفة العلاج يكون هو المسؤول عن الآثار السلبية التي تصيبه، وليس هناك أي ذنب على الطبيب.

لهذا فإذا ما ارتكب إنسان ذنبًا ما أو سلك طريقًا خاطئًا وقال: «ماذا أستطيع أن أفعل قدري هكذا»، يكون هذا القول نابعًا من غفلته وجهله، فمن يرد إقامة الصلاة يهيِّئ الله تعالى له أسباب إقامة الصلاة، والذي لا يريد أن يصلي يُعْطيه الله تعالى الأسباب التي لا تجعله يؤديها. وعلى ذلك فإن أي إنسان يكون ظالماً مجافيًا للحق والحقيقة إذا افترى على القدر كذبًا وزورًا ليجد العذر لنفسه.

فالله تعالى قال في كتابه العزير:

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾[318]

وقال تعالى أيضًا:

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[319]

---

٣١٨ النساء: ٤٠.

٣١٩ الشورى: ٣٠.

ويوضح مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله في صدر تفسيره لتلك الآيات مسؤولية البشر على قدر إرادتهم الجزئية، وضرورة ألا يحيل الإنسان خطأه إلى القدر فيقول في المثنوي:

«لو انغرست شوكة فيك فاعلم أنك أنت الذي غرست تلك الشوكة. ولو كنت ترفل في أقمشة رقيقة لطيفة ناعمة فاعلم أنك أنت الذي نسجت تلك الأقمشة».

إن قدرة العين على الرؤية والأذن على السمع تمتد حتى مسافة معلومة، وتنعدم هذه القدرة بعد تلك المسافة. وكذلك الحال عند إدراك القضاء والقدر بشكل لائق فهو فوق قدرة البشر، لأننا نسعى لأن نعرف الأحداث ونحللها بالأسباب والأعذار، ولا يمكن أن يدرك أغلبنا الحكمة التي وراءها.

فمثلاً جاء رجل ذات يوم إلى سيدنا علي رضي الله عنه يسأله عن سر القضاء والقدر فقال له: «**ذلك الأمر بحر عميق**».

وقد حاول كثير جدًّا من الناس السباحة في هذا البحر معتمدين على ذكائهم فسقطوا في سراديب الباطل مثل الجبرية: «الذين نفوا أية إرادة للعبد»، **والقدرية**: «الذين ادعوا أن الإنسان صاحب إرادة مطلقة في كل أمر». وفي النهاية غرقوا في بحر لا ساحل له ولا قرار.

ولهذا فإننا ما لم نحدد بشكل صحيح حدود الإرادة التي تشكل منبع مسؤولية الإنسان، فإننا لن نستطيع أن نتخلص من الانحدار نحو الزلل.

والواقع أن اعتبار الإنسان بأنه خالق لأفعاله، وتمجيد قدرته على الإرادة والترجيح، أو إنكار إرادته الجزئية أمرٌ يخالف أصول ديننا الأساسية، لأن الإنسان لديه إرادة واختيار في الحقيقة، ولكن هذا الأمر هو منحة وهبة من الحق ﷻ.

وعلى الرغم من إمكانية أن نقطع مسافة ما في عالم القلب بالتسليم، إلا أنه ليس من الممكن على الإطلاق أن نتمكن من حل سر هذا الأمر في موضوع كهذا يعجز فيه العقل والإدراك. لذا فإن إدراك عجز العقل، ومعرفة حدوده، وعدم الإكراه على تجاوزه هو من موجبات العبودية الكاملة.

وما أجمل تلك القصة التي ذكرها مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله في المثنوي ليوضح أن عدم القدرة على إدراك سر القدَر وبيانه بالعقل هو في الأساس نعمة كبيرة فيقول:

جاء رجل إلى سيدنا موسى عليه السلام وقال له:

«**يا كليم الله**، علمني لغات الحيوانات، لكي أفهم لغتهم وآخذ العبرة من أحوالهم وأُدرك العظمة الإلهية».

فرد عليه سيدنا موسى عليه السلام قائلاً:

«اصرف نظرك عن تلك الرغبة ولا تسع لتعلم أشياء فوق قدرتك وطاقتك، فلو سعت نملةٌ لتشرب ماء فوق حجمها لاختنقت وغرقت وهلكت».

أي لا تجبر نفسك ولا تكرهها على تجاوز العلم الذي قدِّر لك، لأن ذلك فيه كثير من الأخطار. وانظر لتأخذ العبرة من المملكة الإلهية التي في الكون على قدر ما يتحمل عقلك. ووجِّه قلبك إلى الله تعالى، واعلم أن أسرار التجليات الإلهية تظهر وتتجلى على قلب سليم. فقال الرجل:

«فعلى أقل تقدير علمني لغة الكلب الذي يقف أمام الباب ويحرس المنزل، ولغة طيور المنزل التي تعيش معنا».

وعندما تيقَّن سيدنا موسى عليه السلام أنه لن يستطيع أن يثني الرجل عن رغبته وافق على طلبه في النهاية، ولكن نبهه قائلاً:

«خذ حذرك ولا تغرق في بحر هذا السر!».

وعندما استيقظ الرجل في الصباح سأل نفسه:

«لننظر هل تعلمت لغة تلك الحيوانات بحق؟»

ووقف على عتبة الباب وانتظر ليعرف الإجابة. وفي هذه الأثناء كانت الخادمة تنفض غطاء المائدة فوقعت قطعة خبز قديمة على الأرض. وفي الحال انقض ديك على قطعة الخبز وخطفها، فقال له الكلب: «لقد ظلمتني لأنك تستطيع أن تأكل حبوب القمح، أما أنا فلا أستطيع ذلك. لماذا خطفت قطعة الخبز تلك التي كانت من نصيبي؟». فرد عليه الديك قائلاً:

«لا تحزن! غدًا سيموت حصان صاحب المنزل فلتأكل حتى تشبع وتصاب بالتخمة».

وعندما سمع صاحب المنزل تلك الكلمات ظن أن الديك قد اطلع على الغيب فباع حصانه على الفور. وأصيب الديك بالخجل من الكلب، واستمر خلاف المصالح هذا بين الديك والكلب لثلاثة أيام. وقام صاحب المنزل الذي علم من حديث الديك أن الحصان سيموت في اليوم الأول، والبغل سيموت في اليوم الثاني، والعبد سيموت في اليوم الثالث، ببيع الحصان والبغل والعبد قبل أن يموتوا ظنًّا منه أن هذا ذكاء.

وهكذا لم يستطع الكلب أن يحقق ما كان يأمله من أي منهم. واستطاع الديك أن يقنع الكلب في كل مرة. وعندما شعر الديك بالخجل ثلاث مرات بسببهم، قال للكلب في النهاية في المرة الرابعة:

«حقيقة إن صاحب المنزل رجل ذكي خبير استطاع أن ينقذ ماله، ولكنه بهذا السلوك قتل نفسه، لأنه سيموت غدًا وسوف يبكي عليه الورثة غدًا ويتأسفون. ولكن سوف يذبح ثوره ويستفيد كل فرد من هذا ونحن أيضًا وأنت أيضًا».

لقد كان موت الحصان والبغل والعبد حصنًا يحمي هذا الرجل الساذج من القضاء السيئ الذي سيحل عليه، ولكنه هرب من حسرة وألم أن يفقد ماله وممتلكاته وقتل نفسه.

وعندما سمع الرجل الأحمق هذيان ذلك الديك، اصفر لونه واشتعل قلبه نارًا كأنه الجمر، وهرع يائسًا إلي سيدنا موسى عليه السلام وبدأ يتوسل إليه قائلاً:

«يا كليم الله! ارحم توسلاتي وسكِّن عذاباتي وآلامي».

فقال له سيدنا موسى عليه السلام:

«لقد دخلت في أعمال تتجاوز طاقتك وقدرتك، والآن أنت تتخبط في التيه. هل كنت تظن أنك ستحقق فائدة ببيعك تلك الحيوانات؟ لقد قلتُ لك بإصرار لا تُكرِه نفسك على معرفة سر القضاء والقدر، فالعاقل الذي يريد أن يرى مستقبله قبل أن يحدث يصير في نهاية الأمر رجلاً أحمق. لكن لم يبقَ شيء يمكن أن نفعله، ومادمت ماهرًا في البيع والشراء، فاشترِ الآن روحك لتنقذها.

وعندما توسل الرجل إلى موسى عليه السلام بندم كبير قال له موسى عليه السلام:

«سبق السيف العزل، فالسهم بعد إطلاقه من القوس لا يمكن أن يعود إليه أبدًا. ولكن أدعُ صاحبَ الإحسان والفضل أن يقبض روحك على الإيمان».

وتضرع موسى عليه السلام إلى الله عز وجل، وهكذا تُوفي الرجل ورحل بإيمانه ببركة دعاء موسى كليم الله. وعندها قال الله تعالى لموسى عليه السلام:

«يا موسى لو رجوتني لأحييتُه».

فقال موسى عليه السلام للمولى عز وجل:

«يا رب لك الحمد والشكر. أحيهِ في الآخرة فذلك هو العالم المنير والعظيم، لأن الأبدية هناك، والمكان الذي تظهر فيه أسرار القضاء والقدر هناك».

فنفهم من هذه القصة أن الإنسان يطلب الأشياء بحرص وطمع أحيانًا، وربما كانت هذه الأشياء ضارة له، وربما يكون الشيء الذي يرغب فيه سيحمله إلى الهلاك، والإنسان الذي يهوي في عاقبة كتلك لا يستطيع أن يخلِّص نفسه من الندم ويبكي ويتأوه.

ومن أجل ذلك فإن أفضل شيء لِسكُون القلب في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة، هو إظهار التوكل والتسليم لله تعالى مدركاً هذه العظمة الإلهية. وليس هناك استثناء لأحد في هذا الأمر. ورأس مال العبد الخالد هو إمكانية أن يدرك أنه فان.

أي إن التسليم للحق ﷻ هو الوسيلة الوحيدة في مواجهة القضاء والقدر، لأن التوكل والتسليم هو باب رحمة، مثلما قال النبي ﷺ:

«الإيمان بالقدر يذهب الهم و الحزن».[320]

ولكن الرضا والتسليم والتواكل، وعدم التماس أي تدابير، وعدم إظهار أي سعي وجهد لمنع البلايا التي ستأتي، وتلقي الأمور بسلبية وكسل يعد أمراً خاطئاً غير صحيح. لأن التوكل هو التسليم إلى الحق ﷻ، واللجوء إليه في طلب النتائج بعد اتخاذ كافة أنواع التدابير لجلب الخير ودفع الشر. فالتوكل دون الأخذ بالأسباب هو توكل جاف مزيف، كما أنه ليس مقبولاً ومخالف لروح التوكل الحقيقي.

٣٢٠ السيوطي، الجامع الصغير جـ.١، ١٠٧.

عن عبد الله بن عباس:

أن عمر بن الخطاب ﵁، خرج إلى الشأم، حتى إذا كان بِسرغ لقيه أمراء الأجناد، أبوعبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم. قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبوعبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف- وكان متغيبًا في بعض حاجته- فقال: إن عندي في هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه» قال: فحمد الله عمر ثم انصرف.[321]

فنجد هنا أنه لا يمكن الفكاك من القدر، لهذا فإنه من تمام العبودية اتخاذ التدبير والسعي، ثم الرضا بالنتيجة التي قدَّرها الله ﷻ.

والواقع أن الخفاء الذي في القدر وعدم إدراك العبد له بالشكل اللائق هو بالنسبة للذين ينظرون من منظور الحكمة ليس سبباً قاهراً، بل على العكس هو وسيلة لطف ونعمة كبيرة، لأنه في حال معرفة البشر للقدر فإنهم يقعون في أخطار ومهالك كثيرة لا فكاك منها، وهي حقيقة لا يمكن إنكارها.

فمثلاً لو أُبتلي رجل بمرض لا شفاء منه، فإنه في ظل جهله بالقدر يستطيع أن يبقى بعيداً عن الهم حتى اللحظة التي سيموت فيها. ولكن لو عرف شخص متى سيموت فإنه في السنوات التي يقترب فيها أجله سيعجز عن الحركة، ولا يستطيع أن يؤدي عملاً، ويموت عدة مرات، ويتجدد الموت فيه كل وقت. والأم التي تعرف أن ابنها الحبيب سيموت قبل أن يحين أجله ستعيش في مأتم وحزن قبل هذا الوقت بسنين. والنتيجة أن هذا الموقف يشكل تضاربًا في التوازن الذي في الحياة، ويؤدي إلى فساد هذا التوازن. ولعل الضغوط والأزمات وحوادث الانتحار في الأعوام الأخيرة

---

٣٢١ البخاري، الطب، ٣٠.

هي عاقبة حزينة جلبها الحرمان من الراحة المعنوية، لأن القلب البعيد عن التربية المعنوية من الطبيعي جدًّا أن يكون أسيرًا للرغبات والشهوة وأطماع النفس. والحياة التي تستطيع أن تواجه مفاجآتِ الحياة بالهدوء والصلابة يمكن أن تتحقق فقط في ظل تسليم الإنسان بالقدر، ذلك التسليم الذي يؤدي به إلى الإيمان الكامل بالغيب.

وقاعدة السعادة الذهبية هي جعل العقل يتبع الوحي، وتزيين القلب بالأخلاق الجميلة، وإظهار الرضا تجاه مفاجآت الحياة. فالسعادة الحقيقية هي قبول الحياة بحلوها ومرها، وإظهار التحمل تجاه مشكلات الحياة ورؤية الجمال في كل شيء، والتسليم لرب العالمين. والحق ﷻ يظهر أحيانًا لطفه في صورة قهر، وقهره في صورة لطف. وجهل الإنسان بكل هذا ينبع من كون هذه الدنيا مكان امتحان. يقول الله تعالى:

﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٣٢٢]

ويقول تعالى في آية أخرى:

﴿قُل لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٣٢٣]

---

٣٢٢ البقرة: ٢١٦.

٣٢٣ التوبة: ٥١.

والحقيقة أن عمى البصر مثلاً هو ابتلاء ومصيبة كبيرة من وجهة النظر الدنيوية، لأن الإنسان يعتقد أنه لا توجد أي نعمة تضاهي نعمة العين التي ترى. ولكن الذي أصيب بالعمى في الدنيا لو استطاع أن يَسْلم من السقوط في مستنقعات الذنب بسبب هذا العذر، فإن هذه الحال التي تبدو مثل وسيلة تعذيب في الظاهر ستنقلب إلى سرور في الحقيقة. وهكذا الفقر والغنى فلو أن فقيرًا لم يشتكِ من حاله ورضي بما قسمه الله له، فإن هذا الفقر ربما سيصبح وسيلة للغنى الأبدي. كما أن ذلك الفقير لو كان غنياً في هذه الدنيا وأدت الإمكانات التي يملكها إلى إثارة الأنانية فيه، وتمكن وهم القدرة من نفسه، وأصابته الغفلة، وغرق في السفاهة والدعة لذهبت سعادته الأبدية هباءً منثورًا. وطبيعي أن عكس هذا ممكن أن يتحقق، لكن الحاصل أن المؤمن الذي يرى الجمال في كل حال هو فيه، ويرضى بما قدره الله تعالى وقسمه، يجب أن يعلم أن هذه فرصة لاكتساب السعادة الأبدية، ويجب أن يسعى لأن يعيش ويحيا على الصبر والشكر والتسليم. وفي ذلك يقول الحديث الشريف:

«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له».[٣٢٤]

٣٢٤ مسلم: الزهد ٦٤.

وعندما يتم تعميق هذه الأصول الأساسية التي ذكرت حتى الآن والمتعلقة بمسألة القدر نقابل كثيرًا جدًا من المشكلات والمسائل التي لا فائدة منها سوى في مجدلات ونزاعات علم الكلام. لذلك فقد أمر رسول الله ﷺ بأن نكتفي بالإيمان بالقدر، ومنعنا من مناقشة لا طائل ولا فائدة من ورائها. فقد ورد في هذا الشأن عن أبي هريرة أنه قال:

خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه، حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان، فقال: «أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه».[٣٢٥]

وقد تحدث الشاعر التركي ضياء باشا أيضًا عن الحقائق التي فوق طاقة البشر فقال:

لا ينفع العقل في إدراك المعالي

فميزانه لا يحمل مثل تلك الأثقال

فيا رب اجعلنا من الذين يتوكلون عليك حق التوكل، واجعل لنا نصيباً من الأعمال التي تجلب رضاك، ويسِّر لنا نيل صفاء الرضا بالقضاء والقدر. آمين!

---

٣٢٥ الترمذي، القدر، ١.

المحتويات

مقدمة..٥
الأنفاس الأخيرة-١ ....١٣
الأنفاس الأخيرة-٢ ....٢٩
الأنفاس الأخيرة-٣ ....٤٥
ذكر الله في الكون وأوقات السحر..٦١
القرآن والتفكر-١ ....٧٧
القرآن والتفكر-٢ ....٨٩
القرآن والتفكر-٣ ....١٠٣
التوبة والبكاء ١١٧
الدعاء ١٣١
الدعوة الى الحق والخير-١..١٤٣
الدعوة الى الحق والخير-٢ ....١٥٧
الأِيثار ١٧
الأِستغناء...١٨٣
أخلاق التجارة ٢٠١
القرض الحسن والأِنفاق في سبيل الله ٢١٩
الدَين والأستدانة ٢٣٥
الصداقة ٢٥٩
الوفاء ٢٧٥
الاقتداء بأهل الإيمان ٢٩٩
القدر وأسراره ٣١٥

دار الأرقم
للنشريات والمطبوعات

كتب إسلامية مجاناً

يمكنكم الآن تحميل حوالي ١١٩٠ من الكتب الإسلامية بـ ٥٤ لغة من الإنترنت مجاناً

كتب إسلامية بلغات مختلفة وبصيغة pdf جاهزة للتحميل من موقع www.islamicpublishing.org

تستطيع الآن طباعة النسخ بصيغة الـ pdf أو تحميلها على الحاسوب وإرسالها لأصدقائك عبر البريد الإلكتروني.

الإنكليزية - الفرنسية - الإسبانية - الروسية - الإيطالية - البرتغالية - الألمانية - الألبانية - العربية - الأذرية - الباشكيرية - البنغالية - البوسنية - البلغارية - الصينية التتارية القرم - الهولندية - الجورجية - الهندية - الألمانية الهوسا - المجرية - الإندونيسية - الكازاخستانية - التترية قازان - القرقيزية - اللتوانية - ليتوانيا - اللوغندية المسخيت التركية - الماليزية - الرومانية - المنغولية - المورية - التركمانية - التيغرينية - السواحلية - الطاجكية - الأمهارية - الصينية التقليدية - الكورية التوية الأوكرانية - الأغورية - الأوزبكية - الولوفية - الزرمية - الأورمية - الفارسية - الأردية - السلوفينية - الكردية- اليابانية- البولندية - نكوا

islamicpublishing.org